رحلة مِشعل المَحمل

محمد صادق باشا



رحلة مِشعل المَحمل

تأليف
محمد صادق باشا



رحلة مِشعل المَحمل

محمد صادق باشا

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٣ ٢٦٢٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٨٨١.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فيقول الفقير إلى مولاه محمد صادق بيك ميرالاي[١] أركان حرب المصري: إني قد استخرتُ الله في أن أشرح ما شاهدته برًّا في طريق الحج الشريف، من كل مأمن أو مخيف، وما هو جارٍ في كيفية أداء هذه الفريضة الإسلامية، ليكون دليلًا مختصرًا مفيدًا للأمة المحمدية، وخدمة لأبناء الوطن، ولم أذكر شيئًا بمجرد الظن، بل عوَّلت في الغالب على الاقتصار على ذكر الحسن، وسميته: «بِمِشْعَلِ المَحْمَل»،[٢] وعلى الله سبحانه وتعالى أتوكَّل، وإن وُجد فيه شيء لا ينبغي أن يُذكر، فإنما ذكرته أداءً لحق الوظيفة، مع التلطيف؛ ليكون قدوة ودليلًا لمن يتوظَّف من الآن، وليس الخبر كالعيان.

---

[١] ميرالاي: مركب من «مير» مختصر أمير، ومن «الاي» الكتيبة، أي أمير الكتيبة. وهي تعادل رتبة العقيد في رتب الضبَّاط اليوم.

[٢] المحمل: أعواد من خشب على شكل الهودج شكله مربع ذو سقف يأخذ في الارتفاع من الجوانب إلى الوسط الذي فيه قائم ينتهي بهلال، وفي العادة يسدل على ذلك الهيكل الخشبي كسوة قد تكون من الحرير، وقد تكون من غيره، ويوضع في أثناء السفر على ظهر جمل (مرآة الحرمين، إبراهيم رفعت باشا، ٢ / ٣٠٤). ويرافق المحمَل المصري كسوة الكعبة الشريفة، والصُّرَّة، وصدقات وهدايا مكَّة والمدينة، وبحكم وجود هذه الأشياء المرافقة اكتسب المَحْمَل هيبة وقدسية لدى الشعوب الإسلامية، مما جعل أصحاب التوجه الإصلاحي السَّلفي إلى الوقوف بحزم ضد هذا التقديس غير المشروع، ولو بقي الاحترام والتقدير الاعتيادي لهذا الشعار، الذي كان بمثابة راية الدولة ورمزها في ذلك الوقت، لما وقف الناس ضد المحمل وضد قدومه بهذه الصفة، ومن درس تاريخ محامل الحج، أو قرأ هذه الرحلة كاملة لعرف معنى كلامي، غفر الله لنا ولهم.

صُرَّةُ المَحْمَل

اعلموا وفقنا الله وإياكم لما فيه السداد، وهدانا إلى طريق الرشاد، أني قد تعيَّنت أمينًا لصُرَّة[١] الحج الشريف في طَلَعَته[٢] سنة ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م، وعودته سنة ٩٨ هجرية/١٨٨١م، وكانت سعادة عاكف باشا[٣] اللوا[٤] أميرًا على الحاج في هذا العام، ورئيس أورطتي[٥] السَّواري[٦] حضرة عاطف بيك[٧] القائمقام.[٨] وهاتان الأورطتان عبارة عن ثمانية بلوكات،[٩] معها مدفعان جبليان من الشَّشخانة،[١٠] وثلاثة وعشرون طوبجيًّا.[١١] وكان عدد الجميع بضباطهم: مائتين وواحدًا وأربعين شخصًا تابعين الصُّرَّة؛ لحفظها وحفظ المَحْمَل والحجاج ووَكْب المَحْمَل في البنادر[١٢] التي يمر بها.

---

[١] الصرَّة: المبالغ المخصصة للمحمل المصري ذهابًا وإيابًا، سُميت صرَّة لأن العُملة كانت معدنية، وتُحفظ في كيس، ثم تُقسَّم إلى أكياس صغيرة، أي: صُرَر ومفردها صُرَّة، وتُوزَّع على من خُصصت لهم.

[٢] طلعته: ذهابه.

[٣] باشا: من اللغة التركية وتعني: الحاكم، الوزير، الوالي، نائب السلطان.. وأغلب الكلمات التي يستخدمها الرحَّالة هنا هي من اللغة التركية المعروفة في العهد العثماني.

[٤] اللوا: رتبته العسكرية.

[٥] أورطة: القوات العسكرية المصاحبة للمحمل المصري.

[٦] السواري: الفرسان.

[٧] بيك: السيد صاحب الشأن الكبير، وهي أقل من رتبة الباشا.

[٨] القائمقام: القائم مقام أي الذي يقوم مقام الأمير في رئاسة اللواء.

[٩] بلوكات: الحامية العسكرية أو السرايا المصاحبة للمحمل.

[١٠] الششخانة: المدافع التي تُحشى بملح البارود ولا تُستخدم فيها القذائف جاهزة.

[١١] الطوبجي: المدفعي. وهم رجال المدفعية المصاحبة للمحمل.

وكان مبلغ الصُّرَّة: ١٣٦٣٤١٧ غَرْشًا، عنها جنيه إنكليزي عدد: ٥٦١٩، ريال بطاقة عدد: ٣٩٦٠٠، غروش: ٢٢٣١٠. من ذلك مصروفات خدمة الصُّرَّة ذهابًا وإيابًا، ومُرَتَّبات العُربان،[١٣] ومجاوري مكة والمدينة،[١٤] والتكايا[١٥] وغيرها، فضلًا عن الأمانات التي تُرسَل إلى أربابها من دواير[١٦] ونحوها، ثم ثلاثون قنطارًا من الحلواء،[١٧] ثولاثة قناطير من الشمع السَّكَنْدري،[١٨] وعدد من الأكراك،[١٩] والبنشات،[٢٠] والأقمشة والشيلان الكشميرية،[٢١] والشال الأبيض.[٢٢]

والمستخدمون مع أمين الصُّرَّة هم: حكيم،[٢٣] وأجزجي[٢٤] برتبة يوزباشية،[٢٥] وصرَّاف،[٢٦] وكاتبان، وبيرقدار[٢٧] المَحْمَل، ومبلغ الجبل، وضوئية[٢٨] وعكامة،[٢٩] وفرَّاشون

[١٢] البنادر: جمع بَندَر. وهو الميناء والمرسى الذي ترسو فيه السفن والبواخر.

[١٣] مرتبات العُربان: المبالغ المخصصة لشيوخ القبائل ووجهائها.

[١٤] مجاورو مكة والمدينة: هم الذين انقطعوا للعبادة وطلب العلم في المسجد الحرام والمسجد النبوي، والفقراء والمساكين وغيرهم.

[١٥] التكايا: ومفردها تكيَّة، وهو المكان الذي ينفرد فيه الإنسان لعبادة الله وحده، وفيما بعد صار هو المكان الذي توزع فيه الصدقات.

[١٦] دواير: جمع دائرة. وهى الدوائر والإ الحكومية التى فى طريق الحج.

[١٧] الحلواء: الحلوى.

[١٨] الشمع السكندري: نسبة لمدينة الإسكندرية.

[١٩] الأكراك: حاويات المواد الغذائية من قمح وأرز وخلافه.

[٢٠] البنشات: مفردها بنشة، وهي السترة أو الملابس الرسمية.

[٢١] الشيلان الكشميرية: نوع فاخر من القماش يأتي من إقليم كشمير في شمال الهند.

[٢٢] شاش: نوع من القماش شفاف، ولا يزال الاسم متداولًا خاصة عند أهل الطب.

[٢٣] حكيم: طبيب.

[٢٤] أجزجي: صيدلي.

[٢٥] يوزباشي: هو الرائد في رتب الضباط اليوم.

[٢٦] صرَّاف: المحاسب الآلي.

[٢٧] بيرقدار: محافظ أو حامل الراية، العَلَم.

[٢٨] ضوئية: أو ضوية جمع ضاوي، وهو الشخص غير المرموق أو غير المعتبر وهم الخدم.

[٢٩] عكامة: الذين يتولون تحميل الدواب ويشدون الحبال عليها في أثناء التحميل.

لنصب خيام الموظفين، وسقَّاءون،[٣٠] وأمينا كساو،[٣١] لتفرقتها على العُربان[٣٢] وغيرهم، ومقدار كافٍ من الجِمال، لحمولتهم وحمولة مؤن العساكر والمياه.

وجميع الترتيبات المتعلقة بالمَحْمَل والصُّرَّة والمشتروات والتجهيزات جارٍ أعمالها سنويًّا بمعرفة الروزنامجة،[٣٣] بناء على أمر الداخلية. وأن مرتب أمير الحاج خمس مئة جنيه إنعامًا،[٣٤] سوى ماهيَّة الرتبة،[٣٥] ومرتَّب الأمين خمسة وسبعون جنيهًا إنعامًا، سوى ماهية الرتبة، مع خَرج أحد عشر شخصًا، ولسائر مستخدمي الصُّرَّة مرتبات على حسب درجاتهم.

---

[٣٠] سقَّاءون: الذين مهمتهم جلب الماء وتوفيره للقافلة.

[٣١] كساوي: مفردها كساء، وهي الملابس المخصصة لشوخ ووجهاء القبائل وغيرهم.

[٣٢] العُربان: أبناء القبائل. والمقصود هو أن الحكومة المصرية في ذلك الوقت، تدفع بعض المبالغ، مع كسوة لمشايخ القبائل والوجهاء، لقاء حمايتهم للمحمل المصري.

[٣٣] الروزنامجة: من الفارسية، وهي الروزنامة وتعني التقويم، ثم صارت تُطلق على ديوان أو وزارة المالية.

[٣٤] إنعامًا: مكافأة.

[٣٥] ماهيَّة: أجر أو راتب الموظف المعتاد. الرتبة: المنصب، المرتبة، الكرسي.

مَوكب المَحْمَل

في يوم الاثنين ٢٢ ل (شوال) سنة ١٢٩٧ هجرية، ١٨ توت سنة ١٥٩٧ قِبطية، ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٠ مسيحية، تهيَّأ محفل المَحْمَل الشريف بميدان محمد علي الساعة ثلاثة، بحضور ذي العز والطبع الشفيق، جناب الخديوي[١] الأعظم محمد باشا توفيق[٢] أدامه الله وأبقاه، وبلَّغه من الأمل ما اشتهاه، واستلم سعادة أمير الحج ذِمام[٣] جمل المَحْمَل — كالعادة — من اليد الشريفة الخديوية، بحضور النُّظَّار العظام، وقاضي أفندي،[٤] وشيخ الإسلام والعلماء،

[١] الخديوي: من الفارسية، وهو لقب اختص به حكام مصر من أسرة محمد علي باشا، ويعني: السيد صاحب الرفعة والمكانة، وهو دون الخليفة وفوق الأمير.

[٢] محمد باشا توفيق: هو محمد توفيق بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي الكبير، ولد في القاهرة عام ١٢٦٨هـ/١٨٥٢م، ونشأ بها وتعلم بها، وتقلَّد عددًا من الوظائف أهمها: رئاسة المجلس الخصوصي الذي كان بمثابة مجلس الوزراء، فنظارة الداخلية، ونظارة الأشغال. تولَّى حكم مصر في عام ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م، وكان مهتمًا بنشر التعليم منذ أن كان وليًّا للعهد، له الكثير من الإصلاحات. توفي عام ١٣٠٩هـ/١٨٩٢م رحمه الله (انظر: حقائق الأخبار عن دول البحار، الميرالاي إسماعيل سرهنك، تحقيق ودراسة: أ.د. عبد الوهاب بكر، المجلد الثاني/الجزء الثاني، ص٦٦٥).

[٣] ذمام: هكذا جاء في النسخة التي بين يدي، وهو خطأ في الطباعة على ما أعتقد، والمؤلف يريد زِمام بالزاي وليس بالذال، وهو الحبل الذي يُقاد منه جمل المَحمل وكل دابة، والخطام هو الزِّمام، وجمعه أزِمَّة. وخَطَمتُ البعير: زَمَمته (انظر: لسان العرب، ١٢ / ٢٧٢، مادة زمم). قلتُ: ومنه يُقال لقطعة الذهب أو الفضة التي تضعها النساء على أنوفهن: زِمام. وعند التصغير يُقال: زُمَيِّم، يضعنه من خلال ثقب صغير يحدثنه في طرف الأنف الأيمن أو الأيسر، يفعلن ذلك من باب الزينة.

[٤] أفندي: من اللغة اليونانية، انتقلت إلى الأتراك في وقت مبكر، وتعني: المتعلم، المثقف. وكانت تطلق على العلماء خاصة، وفيما بعد توسعوا في إطلاقها.

وجميع الذَّوات الفخام، والأمراء الكرام، وسار في مَوكِب عظيم إلى أن وصل إلى العبَّاسية[٥] الساعة ٥ بالقرب من سيدي المحمدي عند صوان[٦] الأمير.

[٥] العباسية: من أحياء القاهرة اليوم.

[٦] صوان: أو صيوان وهو السرادق المُعد للاحتفال.

استلام الصُّرَّة

في يوم الثلاثاء ٢٣ ل[1] سنة ٩٧هـ/٢٨ سبتمبر ١٨٨٠م صار استلام الصُّرَّة من خزينة الروزنامجة[2] كالمبين سابقًا، بحضور أمير الحاج، وأمين الصُّرَّة، والكاتب، والصرَّاف، والروزنامجي،[3] ونائب الشرع، والشهود.

---

[1] ل: اختصار شهر شوال.

[2] الروزنامجة: من الفارسية، وهي الروزنامة وتعني التقويم، ثم صارت تُطلق على ديوان أو وزارة المالية.

[3] الروزنامجي: المحاسب المالي أو موظف المالية.

استلام كسوة الكعبة المشرَّفة

وفي يوم الأربعاء ٢٤ ل/٢٩ سبتمبر صار حَزْمُ كسوة الكعبة الشريفة،[١] وهي إحدى عشرة قطعة من مقام سيدنا الحسين رضي الله عنه سبط خير الأنام ﷺ.[٢]

---

[١] يُروى أن أول من كسا الكعبة هو إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام، ويُروى أنه عدنان بن إسماعيل، ويُروى أنه تُبَّع واسمه أسعد ملك حِمَيَر. أما أول من كسا الكعبة المشرفة في الإسلام فهو الرسول ﷺ، كساها الثياب اليمنية بعد فتح مكة عام ٨هـ/٦٣٠م، وكساها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما الثياب البيضاء (القباطي)، وسار الخلفاء من بعدهم على ذلك. وفي عهد الدولة العباسية صارت تُصنع الكسوة في مدينة تنيس المصرية حتى ضعف أمرهم، فصارت الكسوة تُرسل تارة من ملوك مصر، وأخرى من ملوك اليمن، بل حتى ملوك العجم قد ساهموا في ذلك. وعندما ضم الإمام سعود بن عبد العزيز آل سعود الحجاز للدولة السعودية الأولى، انقطعت مصر عن إرسال الكسوة، بعد عام ١٢٢١هـ/١٨٠٧م، فكساها الإمام سعود الديباج الأسود والحرير الطبيعي المزين بالقصب الذهبي والفضي. وبعد عودة الحجاز للحكم العثماني استمر إرسال الكسوة إلى مكة المكرمة. وعندما ضم الملك عبد العزيز آل سعود الحجاز أصدر أمره بإنشاء مصنع كسوة الكعبة المشرفة في عام ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م. وبعد أن زال التوتر بين السعودية ومصر في عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م قامت الحكومة المصرية بإرسال الكسوة سنويًّا. ثم توترت العلاقات مرة أخرى عام ١٣٨١هـ/١٩٦٢م، فأعادت السعودية فتح مصنع الكسوة في جَرْوَل. وفي عام ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م تم نقل العمل إلى المصنع الجديد في أم الجود بمكة المكرمة، وأصبحت المملكة العربية السعودية تقوم بكسوة الكعبة المشرفة بعيدة في ذلك عن الأهواء والتقلبات السياسية (انظر: تاريخ الكعبة المعظَّمة عمارتها وكسوتها وسدانتها، حسين سلامة، تعليق: أ.د. يوسف الثقفي. كسوة الكعبة المعظمة عبر التاريخ، د. السيد محمد الدقن).

[٢] قُتل الحسين بن علي رضي الله عنه في ١٠ محرم ٦١هـ/٦٨٠م، في صحراء الطف بالعراق في موضع يُقال له: كربلاء. وأُخذ رأسه إلى والي العراق عبيد الله بن زياد، أما الجسد فقد دُفن في نفس المكان، ولا يعرف مكان قبره إلى الآن. وبعد ٣٠٠ سنة تقريبًا أقام بنو بُوَيْه مشهدًا في كربلاء، يزعمون فيه أن هذا

قبر الحسين رضي الله عنه وأرضاه. واختلف المؤرخون في مآل الرأس الشريف حتى قيل: إن رأس الحسين بن علي رضي الله عنه لا يُعرف أين دُفن، إلا أن الذي عليه الدليل — إن شاء الله — أن ابن زياد أرسله مع أولاد ونساء الحسين رضي الله عنه إلى الخليفة الأموي يزيد في دمشق، وهذا بدوره أكرم نزلهم، حيث إن يزيد لم يأمرهم بقتله؛ بل هو اجتهاد من الشقي الخاسر ابن زياد، وهذا لا يُعفي يزيد من الاشتراك في هذه الجريمة؛ لأنه لم يعاقب ابن زياد ومن معه! وعند الله تلتقي الخصوم. ثم أرسل يزيد الرأس الشريف معهم إلى المدينة، ودُفن في البقيع إلى جوار أمه فاطمة رضي الله عنهما. وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن المشهد المنسوب إلى الحسين بمدينة القاهرة: هل هو صحيح أم لا؟ فأجاب: الحمد لله، بل المشهد المنسوب إلى الحسين بن علي رضي الله عنها الذي بالقاهرة كذب مختلق بلا نزاع بين العلماء المعروفين عند أهل العلم، الذين يرجع إليهم المسلمون في مثل ذلك؛ لعلمهم وصدقهم. ولا يُعرف عن عالم مسمى معروف بعلم وصدق أنه قال: إن هذا المشهد صحيح. وإنما يذكره بعض الناس قولًا عمن لا يعرف، على عادة من يحكي مقالات الرافضة وأمثالهم من أهل الكذب. وأضاف يقول: فإنه معلوم باتفاق الناس أن هذا المشهد بُني عام بضع وأربعين وخمسمائة، وأنه نُقل من مشهد بعسقلان، في أواخر الدولة العبيدية، وأن ذلك المشهد بعَسقلان كان قد أُحدث بعد التسعين والأربعمائة. وقال في موضع آخر: وما زال ذلك مشهورًا بين أهل العلم حتى أهل عصرنا من ساكني الديار المصرية: القاهرة وما حولها (انظر: مجموع الفتاوى، ٢٧ / ٤٥٠، بتصرف). هذا مع معرفة أنه لا يجوز البناء على القبور، والذي سأبينه في موضعه مع الدليل في هذه الرحلة إن شاء الله.

قيام المَحْمَل من العباسية بالقاهرة

وفي يوم الخميس ٢٥ منه (شوال ١٢٩٧هـ، الموافق ٣٠ سبتمبر ١٨٨٠م)، في ابتداء الساعة الأولى[١] أُطلقت مدافع القيام، وقام الرَّكب متوكلًا على الملك العلَّام، ولم يكن فيه من الحجاج الأغنياء أحد؛ لتوجُّه جميعهم بحرًا. وكان السير في أرض سهلة مُرملة من اليمن، ومزروعة من اليسار، إلى أن وصل إلى محطة بِرْكَة الحاج[٢] الساعة ٣، وهي بشرقي كفور الجاموس، التابعة للقليوبية،[٣] وهناك ترعة كبيرة نيلية، وسواقي عذبة المياه. وقد بلغت الحرارة الجوية في وقت الزوال ٣١ درجة ريومور داخل الخيمة.

وفي يوم الجمعة ٢٦ منه (١ أكتوبر) قام الرَّكب الساعة ٦،[٤] ووصل الساعة ١١[٥] إلى محل يُسمى أبواب المصاطب، وفي الساعة الواحدة ليلًا[٦] جدَّ السير إلى الساعة الخامسة[٧]

[١] هذا هو التوقيت الغروبي، والذي كان سائدًا عند المسلمين فيما مضى، ويبدأ اليوم فيه وينتهي عند غروب الشمس، وينقسم إلى ٢٤ ساعة، ١٢ ساعة للنهار، و١٢ ساعة لليل، أما التوقيت الزوالي فيبدأ اليوم فيه وينتهي عند منتصف الليل، وينقسم اليوم فيه إلى ٢٤ ساعة متواصلة، وهو السائد في العالم الآن، والساعة الأولى (غروبي): الساعة ٦ صباحًا (زوالي) تقريبًا.

[٢] بِركة الحاج: بكسر الباء، أول منازل الحاج المصري، ليست ببعيدة عن القاهرة، سُميت بذلك لنزول الحاج فيها في ذهابهم وعودتهم. قال عنها الجزيري — وهو ممن عاش في القرن العاشر الهجري: وبالِبركة نخلٌ كثير، وبعض سكان وبيوت، ويُنصب بالِبركة سوقٌ كبير، فيه كل ما يحتاجه المسافرون من المركوب والملبوس والمأكول، بحيث إن من أراد ابتداء السفر من البِركة يتهيَّأ له سائر ما يحتاجه من أسبابه، وينتظم بها سائر أحوال الركب (الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظَّمة، الجزيري، ٢ / ١٣٠٩، بتصرف).

[٣] القليوبية: هي إحدى المحافظات المصرية، وتقع بمنطقة شرق النيل عند رأس الدِّلْتا، وعاصمتها القديمة هي قَليوب والآن بَنْها.

وثلث، وحُطَّت الرحال للاستراحة بجوار محل البوسطة القديمة،[8] وبعد خمس وعشرين دقيقة استمر السير إلى الساعة ٨[9] وأناخ بجوار الشيخ التكروري.

وفي يوم السبت ٢٧ منه (٢ أكتوبر) سار الركب الساعة ٧ ونزل في س١١ ق٤٠ بجوار بوسطة مهدومة، وفي الساعة الأولى من ليلة الأحد شرع في المسير، واستمر السير طوال الليل، وحصل استراحتان قَدْرُ الواحدة منهما عشرون دقيقة.

[4] الساعة ٦ (غروبي): الساعة ١٢ ظهرًا (زوالي) تقريبًا.

[5] الساعة ١١ (غروبي): الساعة ١٧ مساء (زوالي) تقريبًا.

[6] الساعة الواحدة ليلًا (غروبي): الساعة ١٩ مساء (زوالي) تقريبًا.

[7] الساعة ٥ ليلًا (غروبي): الساعة ٢٣ ليلًا (زوالي) تقريبًا.

[8] البوسطة: مكتب البريد.

[9] الساعة ٨ ليلًا (غروبي): الساعة ٢ بعد منتصف الليل (زوالي) تقريبًا.

ميناء السويس

وفي يوم الأحد ٢٨ ل/ ٣ أكتوبر، الساعة الواحدة إلا ربع نزل بالقرب من بئر السُّوَيْس، فكانت المسافة من الشيخ التكروري إلى البئر بسير الجِمال ساعة ١٥ وق١٠، وفي الساعة الثانية تهيأ المَحْمَل بكسوته المزركشة واصطفت أمامه الضُّباط والعساكر والطبول والأشاير، وسار الموكب إلى أن قرب لبندر السويس،[١] وتقابل مع محافظها وعساكرها وأعيانها ومشايخها ومن بها من أهل الطريق، وساروا جميعًا أمام المَحْمَل بموكب عظيم وجمٍّ من الأهالي المتفرجين، حتى مروا من قَنْطَرَة التِّرعة الحلوة،[٢] ووصلوا إلى ميدان محطته المعتاد الساعة ٣، ودخل كل من المستخدمين خيمته، وبارك أمراء السويس لأمراء الحاج بسلامة الوصول كما هي الأصول. وفي وقت الظهر بلغت الحرارة ٣٣ درجة. وبعد العشاء أُطلقت الصواريخ، وضُربت الطبول أمام خيمتي الأمير والأمين، ثم أمام بيت محافظ السُّويس.[٣]

وفي يوم الإثنين ٢٩ ل/ ٤ أكتوبر، جرى استلام خَرْج المستخدمين من شونة[٤] السويس، من قنيظة وأرز وعدس ومسلى وعلايق للمواشي، على حسب المرتب لمدة السفر منها إلى نِخِل بكسر النون والخاء. وقد ارتقت الحرارة ظهر هذا اليوم إلى أربعة وثلاثين درجة ونصف.

[١] بندر السويس: ميناء السويس. وكان اسمها قديمًا: القُلْزُم. لذلك كان البحر الأحمر يُسمى قديمًا بحر القلزم.

[٢] الترعة الحلوة: هي ترعة السويس الحلوة. وتسمى: تِرعة الإسماعيلية. والذي أجرى هذا النهر هو الخديوي إسماعيل بن إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا. وتبدأ هذه الترعة من النيل في شمال القاهرة، وقبل أن تصل إلى مدينة الإسماعيلية تتفرع هذه الترعة إلى فرعين: فرع يتجه شمالًا إلى مدينة بور سعيد والثاني يتجه جنوبًا إلى مدينة السويس.

[٣] محافظ السويس: الحاكم الإداري لمدينة السويس.

وفي يوم الثلاثاء غاية ل (٥ أكتوبر) كانت الحرارة صباحًا ستة عشر درجة، وفي الساعة الواحدة إلا ثلث قام الرَّكب، ووصل إلى قنطرَة التِّرعة المالحة[٥] س١ ق٤٠، وكان البحر مُنْجَزِرًا،[٦] فانتظرنا مدة حتى علت المياه، وأُلقت أبوا القنطَرة، ومر جميع الركب من الساعة ٥ ق١٥ إلى س٦.

وكان عدد الركب: ١١٠٣ أنفس، و٢٤٧ حصانًا، و٤٨٨ جملًا، و١٠٠ حمار. ولم يكن معه من هو قاصد للحج من الأهالي إلا شِرْزِمةٌ[٧] قليلة من الفقراء، وأما الأغنياء من الحجاج، فتوجهوا جميعًا بَحرًا.

ووصل الرَّكب إلى الناطور الأول الساعة ٨، وهذا الناطور مبني بالحجر الزَّلَط،[٨] فوق تلٍّ من الرمل، كهيئة طاحون الهواء، عرضه أربعة أمتار وارتفاعه أربعة، وفي س١٠ ق٤٥ وصل إلى الناطور الثاني وهو على شكل العامود، ارتفاعه ثلاثة أمتار، مبني بحجر النحت،[٩] وصار المبيت بجانبه في وادٍ متَّسع مُرمِل به بعض أَكَمات[١٠] صغيرة ورمال متنقلة.

وفي الساعة التاسعة من ليلة الأربعاء سار الركب ومر على الناطور الثالث الساعة عشرة، وهو مثل الثاني ومُعدٌّ لمبيت الحاج، وقد جُعلت هذه النواطير في هذا الوادي المُتَّسع أعلامًا لتدل المسافر على الطريق، وفي الساعة ١١ وصل لمحل يُسمى العلواية، واستراح قَدر نصف ساعة، ثم سار في طريق كلها رمال بين صعود وهبوط محاطة بتلال.

وفي يوم الأربعاء أول ذي القعدة سنة ٩٧هـ/٦ أكتوبر ١٨٨٠م، وصل بعد مضي أربعين دقيقة من النهار إلى سلسلة تلال تمتد شَرقًا إلى اليمين، وعلى س١ ق٥ تتجه شرقًا

---

[٤] شونة: مخزن، مستودع حبوب.

[٥] القَنطَرة: جسر على الماء للعبور. التِّرعة المالحة: قناة السويس. وبدءوا في حفرها عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م، وانتهوا منها عام ١٢٩١هـ/١٨٧٤م.

[٦] مُنجزِرًا: في حالة الجَزر، وهو انحسار مياه البحر.

[٧] الشِّرزمة: بالذال والدال، القليل من الناس. وتأتي بمعنى: القطعة من الشيء (انظر: لسان العرب، ١٢ / ٣٢٢، مادة: شرذم).

[٨] الحجر الزَّلَط: الحجارة القاسية المعروفة، بخلاف اللبن وهو الطين النيئ، أما الطين المحروق فهو ما نسميه الفخار، والذي يُستخدم في البناء يُسمى في أيامنا الطوب الأحمر.

[٩] حجر النحت: الحجر المأخوذ والمنحوت من الجبال.

[١٠] أَكما: مفردها أَكمة والأكمة: دون الجبل وهي الرابية، وتجمع على أكمات وأَكَم وأُكُم وآكام (انظر: لسان العرب، ١٢ / ٢١، مادة: أكم).

بينها ثم تنحرف مُبحِرًا، ثم تعتدل شرقًا، وبعد الساعة ١ تتجه غَربًا، ثم تُبحِر مع تعرُّج بتقوُّس كبير مسافة خمسة دقايق،[١١] ثم تُشرِّق بين رمال كثيرة متسلسلة ما بين الشرق والجنوب محاطة يسارًا بسلسلة التلول المار ذكرها، وفي س٣ ق٥ تمر فوقها مُشرِّقة مُقبِلة إلى س٣ ق٤٠، ثم على سلسلة أخرى مُشرِّقة ثم مُبحرة ثم تعتدل شرقًا، وفي س٤ تمر بمحجر وتنحرف بين الشرق والشمال وتصير سلسلة التلال يمينًا، ثم بعد مسير خمس دقائق تتجه شَرْقًا، وبعد خمس دقائق أخرى تتجه قِبْليًّا، ثم تُشَرِّق في وادٍ مُتَّسِع ذي أرض صلبة صالحة للزراعة بها حشايش قصيرة، وفي س٥ ق١٥ استراح الرَّكب، وفي س٥ ق٤٥ سار، وفي س٦ ق٢٠ مرَّ بطريق بين جبلين، بها زَلَط ورمل، عرضها من ١٥٠ مترًا إلى ٢٠٠ متر، تستمر إلى س٦، أعني مسافة عشرة دقائق، ثم تتجه ما بين الجنوب والشرق إلى س٦ ق٤٣ فتعتدل بتقوُّس بتعرُّج إلى الشرق بين خيران[١٢] صغيرة من مجرى السيل، ثم تنحرف إلى الجنوب الشرقي، ثم شرْقًا، وهكذا تارة وتارة على حسب امتداد الجبال بها من الطرفين إلى س٧ ق١٥، ثم تنحرف جنوبًا قدر ثلاث دقائق، ثم تتجه إلى الشرق، وبعد س٧ ق٥٣ تتجه جنوبًا وتضيق، وبعد مسير خمس دقائق تُشرِّق مع صعود قليل ممتد، ثم تنحدر في خور، وفي نهاية س٨ ق١٠ تتجه إلى الجنوب الشرقي ثم شرقًا، وفى نهاية س٨ ق٤٥ تتسع الطريق ويقل الزلط ويثبت الرمل، وفي نهاية س٨ ق٥٣ يصل الركب إلى محجر مضيق اتساعه عشرون مترًا، ثم يتضايق[١٣] إلى خمسة أمتار، ويمتد مع صعود وهبوط على طول ثلاثمائة متر، ثم يتسع الطريق، ثم يضيق مع صعود، ثم يتسع ويميل إلى الجنوب الشرقي ثم إلى الشرق، ثم ينحرف إلى الجنوب الشرقى إلى نهاية س٩ ق٤٢، ثم يتجهه قليلا إلى الشرق، وبعد س٩ ق٥٠ يتجه إلى الجنوب بتعرج بتقوُّس مُتَّسع بين جبلين، ثم إلى الشرق، وبعد س١٠ يهبط من محجر مضيق، وبعد س١٠ ق٣٠ تقل الجبال ويتسع الطريق بين صعود وهبوط في حجارة، وفي س١١ انتهت التلال إلى وادٍ سهل متسع يُسمى بوادي جبال الحصن، وفي الساعة ١١ نزل الركب للمبيت، وكل هذه الطريق مار من وادي التِّيه،[١٤] وفي الساعة الثامنة من ليلة الخميس ضُرب مدفع التحميل، وفي س٩ سار الركب، وكانت حرارة الجو ١٢ درجة، وفي س١١ ق٤٥ نزل للاستراحة.

[١١] دقايق: دقائق، ومفردها دقيقة.

[١٢] خيران: جمع خور.

[١٣] يتضايق: أي يضيق.

[١٤] وادي التيه: يقع في سيناء حيث تاه بنو إسرائيل.

قلعة نِخل

وفي يوم الخميس (٢ ذي القعدة/٧ أكتوبر) بعد مضي ق١٥ من النهار جَدَّ السير في وادٍ شَرقي قِبلي متسع صلب الأرض صالح للزراعة بع عاقول وبعض حشايش، وبعد س٥ نزل للاستراحة، وبعد س٦ ق٤٠ أخذ في السير، وبعد س٧ ق٥٠ مرَّ مُشرقًا بين أَكَمات محجرة قليلة الارتفاع وقريبة المسافة، وفي نهاية الساعة ٩ مرَّ بمحجر مستوٍ على يمينه جبل مرتفع عليه أَكَمَتان هرميتا الشكل، ثم امتد الطريق بين جبلين متباعدين إلى وادٍ متسع جدًّا محاط بجبال بعيدة يُسمى وادي نخل، وبعد الغروب بعشر دقائق وصل الركب إلى قلعة نخل، وهي قلعة مربعة الشكل مبنية بالحجر النحت ذات مزاغل طول كل ضلع منها ٢٨ مترًا ما عدا الأبراج التي في زواياها، وقطر كل منها ستة أمتار، وهذه القلعة مرتفعة عن سطح الأَكَمة التي هي عليها بنحو سبعة أمتار ونصف، والأَكَمة مرتفعة عن أرض الوادي بخمسة أمتار، وبداخل القلعة حواصل مُعَدَّة لذخائر الحجاج والمستخدمين، وبها محافظ،[١] ويوزباشي،[٢] وملازم مخزنجي،[٣] وبلوكباشي،[٤] وستة عشر عسكريًّا، ببندق طرز قديم بشَطْفة، وستة طوبجية، ومدفع واحد نحاس طرز قديم بَرِّي، وطول حوشها[٥] من الداخل ٢٣ مترًا في ١٥، وفي أسفل البرج الشرقي البحري ساقية ماؤها قيسوني،[٦] عمقها ٢٢

---

[١] محافظ: حاكم إداري.

[٢] يوزباشي: ضابط برتبة رائد.

[٣] ملازم مخزنجي: ضابط التموين.

[٤] بلوكباشي: رئيس الجنود.

[٥] حوشها: الحوش: هو السور الذي يحيط بالمبنى.

[٦] قيسوني: ارتوازي.

مترًا، يديرها ثَوْران،[٧] فَيَصل ماؤها إلى خارج القلعة إلى ثلاثة أحواض مبنية معدة للحجاج والقوافل، أحدها طوله ١٤ مترًا في ٢٨ بعمق ثلاثة أمتار، خَرِبَ من منذ سنتين، والآخران كل منهما طوله عشرة في تسعة، أحدهما ملآن، والآخر يُملأ عند رجوع الحاج، وبجانب هذه الأحواض أحواض صغيرة مستطيلة تُملأ لشرب الدواب، وفي كل عام قبل طلوع الحاج بشهر يبعث الميري[٨] بأربعة أثوار مع لوازم الساقية لإدارتها مدة طلوع ونزول الحاج، ثم ترجع الأثوار إلى مصر مع الحج المصري، وفي بقية العام يستخرج سكان القلعة الماء بواسطة حبال ودلاء مع المشقة الزائدة. وبخارج القلعة ساقية خرِبة، وبئر مبنية عمقها ١٦ مترًا قليلة المياه، وهناك عِشَش[٩] لسكنى العساكر، وهذا الوادي أرضه سهلة صالحة للزراعة به ثلاثة مجار للسَّيل، فمتى أتى ارتوى أغلبها وزرعتها العُربان؛ لأن طينتها التي تعلو الرمل خزفية بيضاء صلبة بحيث إذا أمطرت ومشى عليها إنسان أو حيوان وترك أثر قدمه فيها، ومضى عليها زمن تحجَّرت وصار الأثر كأنه أصلي في الحجر، وعلى هذه القلعة يمر الحاج المغربي ذهابًا وإيابًا، وبالقرب من الجهة الشرقية القِبليَّة للقلعة مقام شيخ يُسمى الشيخ النخل، باسمه سُميت البُقعة والقلعة. وفي أوان الحج يوجد هناك البطيخ والبلح والتين العلبي والجبن والدخان.[١٠]

وفي يوم الجمعة (٣ ذي القعدة/٨ أكتوبر) استلم الخَرْج[١١] والعلائق،[١٢] وكانت الحرارة عند طلوع الشمس ٩ درجات، وفي س٧ ق٤٥ من ليلة السبت سار الرَّكب، وفي س١١ ق٣٠ نزل للاستراحة.

[٧] ثوْران: مفردها ثور، وهو الذكر من البقر. وتُجمع على ثِيار وثِيارَةٌ وثِوَرةٌ وثيرانٌ وثِيَرةٌ (انظر: لسان العرب، مادة: ثور).

[٨] الميري: الحكومي أو الحكومة.

[٩] عِشَش: هي البيوت التي تُبنى من سعف النخيل وفروع الأشجار وما أشبه ذلك.

[١٠] لا تجوز زراعة الدخان ولا بيعه، حيث أجمع الأطباء والعقلاء على ضرره الظاهر.

[١١] الخرج: الإتاوة أو الضرائب أو المواد التموينية المخصصة للمحمل.

[١٢] العلائق: الأعلاف المخصصة للدواب الناقلة للمَحمل.

بئر أم عبَّاس

وفي يوم السبت (٤ ذي القعدة/٩ أكتوبر) جدَّ السير ابتداء الساعة الأولى من النهار في وادٍ متسعٍ سهل، وكانت السماء قد أندَتْ ليلًا بحيث استمر الجو غيمًا إلى الساعة ٣، وقد انحرف الدرب عن الشرق إلى قِبْلِي[١] نحو عشرين درجة، وفي الساعة ٥ تراءَت من بعدٍ[٢] جبال على طرفي الطريق، وفي الساعة ٥ استراح الركب، وفي الساعة ٦ ق٧ سار، وفي الساعة ٩ ق٣٥ مرَّ فوق محجر بجانبه خور، ثم بعد خمس دقائق مرَّ في وادٍ محاطٍ بجبال بعيدة، وفي الساعة ١٠ ق٤٠ وصل إلى محطة بير[٣] أم عباس باشا[٤] للمبيت، وهناك بير ساقية مبنية بالحجر ليس بها عُدة للملء،[٥] عمقها ١٦ مترًا، وبجانبها حوض كبير، طوله ١٥ مترًا في عشرة، وعمقه ثلاثة أمتار، وهي خربة مُعطَّلة، ماؤها مرٌّ جدًّا لعدم النزْح؛ لانقطاع مُرتبها؛ فلذا تَحمِل الحجاج المياه اللازمة لهم من نخل، ومن ذلك يصعب على الحجاج والمواشي قِلة المياه بهذا المكان.[٦]

[١] قبلي: أي باتجاه القبلة. ويقصد جهة الجنوب الشرقي بالنسبة لمصر؛ حيث إن هذا هو اتجاه القبلة لديهم.

[٢] من بُعد: أي من بعيد.

[٣] بير: تخفيف بئر.

[٤] بئر أم عباس باشا: هذه البئر كان اسمها: بئر قريص. وماؤها غير صالح للشرب، فأصلحتها أم عباس باشا الأول، فسُميت باسمها (انظر: الرحلة الحجازية، محمد لبيب البتنوني، ص١٠).

[٥] عُدة البئر: أي ليس بها دلو أو حبل وخلافه.

[٦] مرارة مائها بسبب عدم تخصيص مبلغ مالي لصيانتها ونظافتها ونزْح الماء منها بانتظام. وهذا من الفساد الإداري والمالي في الدولة إذا لم يجد من يعالجه بالطريقة المناسبة. وسنجد في هذه الرحلة أن

وفي الساعة ٧ من ليلة الأحد ضُرب مدفع التحميل، وفي الساعة ٧ ق٤٥ سار الركب خلف الدليل، وفي الساعة ٩ مرَّ صاعدًا بجوار خور، وفي الساعة ١١ استراح، وفي الساعة ١١ اتبع البراح.

بعض الآبار والقلاع التي في طريق الحاج المصري، لا زالت الدولة تصرف المخصص لها، ومع ذلك لا تُقدم الخدمة كما يجب!

العَقَبَة

وفي يوم الأحد ٥ منه (١٠ أكتوبر) وصل في نهاية الساعة ١ ق٣٠ إلى جبال ممتدة يمينًا تقابلها تلال بعيدة يسارًا، وفي الساعة ٢ انتهت تلك التلال إلى وادٍ متسع أرضه ذات رمل ثابت، وفي الساعة ٣ ق١٥ مرَّ بين جبلين من طريق اتساعه من مائة متر إلى ٥٠٠، ثم يصير عشرين مترًا، وفي الساعة ٣ ق٣٥ مرَّ بمحجر، ثم بمتسع بين جبلين، ثم مر بمحجر آخر ضيق، ثم آخر عرضه عشرة أمتار، وكل منهما طوله خمسة دقائق، وفي الساعة ٣ ق٥٠ مر من محجر منقور في الجبل مستوي السطح والانحدار، عرضه عشرة أمتار في طول ثلاثمائة متر، وعلى يمين الطريق قبر مبني بحجر نحت، وفي الساعة ٤ صعد على جبل مُرتفع نحو خمسة أمتار، سهل الانحدار، عرض الطريق على سطحه ثلاثمائة متر، وهي محاطة بالجبال، وفي الساعة ٤ ق٥٠ اتجه جبل اليسار إلى بحري،[١] وفي الساعة ٥ ق١٥ نزل الركب للاستراحة، وفي الساعة ٦ سار، وفي الساعة ٦ ق٢٥ صعد على تل طفلي الجنس[٢] محاط بجبلين، وفي الساعة ٦ اتجه جبل اليسار إلى بحري، وفي الساعة ٦ ق٥٦ مر الطريق ما بين جبل اليسار وبين أَكَمات من جبل اليمين، وفى الساعة ٧ ق١٠ مر على الأكمات، وفى الساعة ٧ ق١٥ صعد الركب على جبل اليمين، فرأى واديًا متسعًا يسارًا وجبالًا يمينًا، في أرض مستوية السطح، رملها ثابت به بعض زَلط خفيف، وفي الساعة ٨ ق٥ مر بين أكمات وانتهى جبل اليمين واتجهت الأكَمَة التي على اليسار إلى الشرق، وفي الساعة ٨ ق٢٥

---

[١] بحري: في مفهوم أهل مصر هذا هو اتجاه الشمال. وعندما يقول الرحَّالة محمد صادق: اتجه إلى قبلي، فالمقصود اتجاه الجنوب عمومًا أو الجنوب الشرقي؛ لأن هذا هو اتجاه القبلة لدى أهل مصر.

[٢] طفلي الجنس: نوع من الرمل.

اتجهت إلى بحري، ورُؤي الوادي متسعًا محدودًا بالجبال على بُعد، وفي الساعة ٩ ق٤٠ انتهى الوادي ومر الطريق بين تلال، وفي الساعة ١٠ مر على محطة الأمشاش، وهو محل مُعدٌّ لنزول الحجاج به، ليس به آبار ولا مياه إلا بعض حفائر مردومة، يُقال: إن العرب تحفر هذه الحفائر، وتأخذ منها المياه بسهولة؛ لقربها من سطح الأرض في هذا المحل، ثم تستبدلها بغيرها. وفي الساعة ١٠ ق٣٥ نزل الركب بوادٍ متسعٍ يُحدِق به شجر عبل، رمل أرضه صفراء، تعلوه طبقة خفيفة من الزلط، وفي الساعة ٧ ق٤٥ من ليلة الإثنين قام الركب، ونزل في الساعة ١١ على سطح العَقَبة.[٣]

[٣] العقبة: واحدة عَقبات الجبال. والعقبة: طريق في الجبل وَعْرٌ، والجمع عَقَبٌ وعِقاب. والعقبة: الجبل الطويل، يعرِض للطريق فيأخذ فيه، وهو طويل صعب شديد (انظر: لسان العرب، ١ / ٦٢١، مادة: عقب). وتسمى هذه العقبة: عقبة أَيْلة. وسياسيًّا الآن العقبة أردنية، وأيلة فلسطينية.

النزول من العَقَبة

قلعة العقبة

وفي يوم الإثنين (٦ القعدة/ ١١ أكتوبر) في الساعة الأولى من النهار ابتدأ النزول من العقبة، بحيث صار الراكب ينزل عن دابته أو جمله ويتجه للجنوب الشرقي نحو خمسين مترًا، ثم يميل مبحرًا بين أَكَمات من صخر، نحو ثلاثمائة وثلاثين مترًا، ثم يتجه شرقًا قدر ثلاثمائة متر، ويمر من محجر عرضه عشرة أمتار، ثم يسير نحو ستمائة متر، وينعطف جنوبًا نحو مائتي متر بين أَكَمات، ثم ينعطف إلى الجنوب الشرقي قدْر أحد عشر مترًا، ويتجه إلى الشرق الشمالي قَدر مائتين وثلاثين مترًا، ثم يتضايق[1] المحجر إلى عشرة أمتار بصخر شمالًا وخور يمينًا، وبعد مائتين وثمانين مترًا يصعد الركب مشرِّقًا قدر مائة وثلاثين مترًا، ثم يسير في مستوٍ من الأرض عرضه خمسون مترًا، ويتجه مائلًا قليلًا من الشرق إلى الشمال الشرقي، وبعد مائتين وخمسة وستين مترًا يجد هَوْيًا[2] على اليسار، وأَكَمة ومحجرًا خفيف الانحدار على اليمين، ثم يتسع الطريق، وبعد مائة متر يجد زلطًا ومحجرًا وعلى اليسار

---

[1] يتضايق: أي يضيق.

[2] هويًا: المكان المنخفض الخطر وليس بطريق. والهوة: كل وَهْدَة عميقة. وجمع الهوة هُوًى. قال ابن سيده: الهوَّة ما انهبط من الأرض. والمَهْوى والمَهواة ما بين الجبلين ونحو ذلك. والهاوية: كل مهواة لا يُدرك قعرها (انظر: لسان العرب، ١٥ / ٣٧١، مادة: هوا). والهاوية: اسم من أسماء جهنم نعوذ بالله منها. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (القارعة: ٨–١١).

خورًا، وبعد مائة وأربعين مترًا يسير في محجر بعده منحدر صعب النزول لا يمر منه إلا الجمل فالجمل مسافة عشرة أمتار، ثم يميل الطريق إلى القبلي الشرقي بين هُوى[٣] شمالًا وصخور يمينًا، وبعد أربعة وعشرين مترًا لا يمر إلا الجمل فالجمل، ويستمر ذلك قدْر مائة متر أيضًا؛ لكثرة الصخور مع تقوُّس الطريق إلى الشرق، ثم تتسع وتتجه إلى الجنوب الشرقي، وبعد مائتي متر ينتهي الانحدار وتصير الأرض مرملة، وبعد ثلاثمائة وعشرين مترًا يبدو منحدَر وجبال، ثم بعد مائتي متر يوجد محجر وصعود عرضه ثمانية أمتار، ثم رمل وصعود آخر في منحدر عرضه عشرة أمتار، وبعد مائة وتسعين مترًا ينتهي الصعود ويسهل الهبوط، وبعد مائة وخمسة وأربعين مترًا يميل الطريق مُبحِرًا قدر مائة وعشرين مترًا، ما بين خور يمينًا وصخور يسارًا، ثم يوجد زلط ومحجر، ثم يستقيم الطريق مشرِّقًا مقبلًا نحو خمسة وتسعين مترًا، ثم يتجه إلى شرقي بحري نحو ثلاثين مترًا، ثم ينحرف جنوبًا بقدر أربعين مترًا، ثم شرقًا بقدر خمسة وعشرين مترًا بين صخور ومحجر صعب، ثم يتجه إلى الجنوب الشرقي، وبعد أربعة وأربعين مترًا يوجد خور على اليسار، ويسهل السير باستواء الطريق قدر مائتين وخمسين مترًا، ثم يمر من نقب طوله عشرة أمتار، وعرضه ثمانية، وبعد ستين مترًا يظهر الخور الذي على اليسار، ويميل الطريق مشرِّقًا بقدر اثنين وأربعين مترًا مع الصعوبة؛ لشدة صلابة الأحجار وشرذمتها وإن كانت قليلة الانحدار نوعًا، ثم يتجه مُقبلًا إلى نقب في الحجر مُنحدر لا يمر منه إلا الجمل فالجمل، قدر مائة وثمانين مترًا، ثم يصير الهبوط سهلًا نحو مائة وستين مترًا، ثم يميل إلى شرقي قِبلي عن يسار خور قدر ثلاثمائة متر، ثم يقبل نحو مائة متر، ثم يستقيم بين الشرق والشرقي الجنوبي نحو خمسة وخمسين مترًا، فينتهي إلى محجر هابط متجه إلى الشرق متقوِّس طوله مائتا متر لا يمر منه إلا الجملَ فالجملَ، ولا يزال إلى الشرق قدر مائتي متر، ثم يوجد هبوط صعب ذو حجارة كثيرة كبيرة لا يمر منه إلا الجمل فالجمل، أيضًا متجه إلى الشرق الشمالي، طوله ستون مترًا على يساره خور، ثم ينعطف الطريق بانحدار يسير إلى الشرق الجنوبي قدر مائة وخمسة وعشرين مترًا مع الانحدار، وهذه النقطة منخفضة عن التي قبلها، أعني النقطة التي بعد الستين مترًا بنحو عشرين مترًا، ثم يتجه إلى الشرق الجنوبي قدر خمسة وعشرين مترًا، ثم يستدير بتقوُّس مشرِّقًا مسافة ستة وثمانين مترًا في متَّسع، ثم يميل مقبلًا ثلاثين مترًا فيستمر ما بين الشرق والشرقي القبلي قدر ستة وسبعين مترًا،

---

[٣] هُوى: مفردها هُوَّة، وهو المكان المنخفض الخطر وليس بطريق. وقد مر الحديث عنها.

ثم يميل شرقًا إلى مائة وخمسة وعشرين مترًا مع انحدار وهُوى يمينًا، ثم يبحر الطريق قدر ثمانين مترًا، ثم يستدير إلى القبلي بانحدار شديد قدر مائة وثلاثة وسبعين مترًا، ثم يتجه إلى القبلي الشرقي فوق أساس مقاطع الخور الذي على الطرفين، وبعد سبعين مترًا توجد قَنطَرة مبنية لمجرى السَّيل النازل في الخور وإلى هنا ينتهي آخر العقبة.

ومن هذا المحل يسهل سير الجمال بأحمالها إلى القلعة، وبعد سير مائة وستين مترًا من القنطرة يميل الطريق مشرِّقًا مبحِرًا قدر تسعين مترًا في عرض عشرة أمتار بين جبلين، ثم يميل مشرِّقًا مقبلًا مائة وثمانين مترًا في عرض سبعين مترًا، وبعد ثلاثمائة أخرى يتجه إلى الجنوب قدر أربعة وستين مترًا، ثم إلى الشرق الجنوبي قدر تسعمائة متر مع سهولة السير واستواء سطح الأرض، ثم يستقيم بين الشرق والشرقي الجنوبي، وبعد مائة متر يوجد صعود سهل بين أكَمتين، وبعد مائة وتسعين مترًا ينتهي الصعود وينحرف الطريق إلى الشرق، وبعد مائتي متر يبتدئ صعود بين صخرتين، ثم بعد مائتي متر ينتهي إلى هبوط مستوٍ قدر ثلثمائة متر، ثم بعد مائتين وثلاثين مترًا يبتدئ صعود آخر، وبعد مسير خمسة وسبعين مترًا من الصعود يوجد خور يمينًا، ثم بعد خمسين مترًا يعقبه الطريق شرقيًّا قِبليًّا نحو خمسين مترًا، ثم يستقيم شرقًا، وبعد مائة متر يوجد مجرى سيل، ثم بعد مائة وعشرين مترًا ينتهي الصعود ويبتدئ الهبوط في متَّسع مستوٍ ما بين الشرق والشرقي الجنوبي قدره خمسمائة متر على يمين جبل، ثم بعد مسير أربعمائة متر يمر بين تلال طولها تسعون مترًا ويكون عرضه تارة عشرة أمتار وتارة عشرين، ثم يميل مشرِّقًا مُقبِلًا قدر مائة وخمسين مترًا، ويتسع بين تلال ورمال سهلة السير نحو خمسمائة متر، ثم بعد خمسمائة أخرى تنقطع التلال ويمر الطريق على يمين جبل، وبعد مائة وعشرة أمتار يميل شرقًا مسافة أربعمائة متر، ثم ينعطف يسيرًا إلى الجهة البحرية الشرقية مسافة مائة وعشرة أمتار، ثم يتجه إلى الشرق الجنوبي قدر ستمائة وثمانين مترًا، ثم يمر بين تلال في عرض ثلاثين مترًا ويستمر ما بين الشرق والشرقي الجنوبي، ثم بعد خمسمائة متر يصعد بين تلال، وبعد مائتي متر ينحدر إلى خمسمائة متر فيتسع في أرض مرملة محاطة بتلال، وبعد مائتي متر ينحدر إلى خمسمائة متر فيتسع في أرض مرملة محاطة بتلال، وبعد ثلاثة آلاف ومائة متر ينتهي إلى رمال البحر المالح، ثم بعد أربعمائة متر يصير البحر المسمى ببحر العَقَبة[٤] عن يمينه فيمر على شاطئه، وهذا البحر متصل ببحر

[٤] بحر العقبة: خليج العقبة. وعلى هذا الخليج أربع مدن: العقبة الأردنية، وأَيْلة الفلسطينية، ونُوَيْبع المصري، وحقْل السعودي.

السوَيس أي القُلْزُم،[٥] والمرور من هذه العقبة شديد الصعوبة جدًّا، فيلزم كل الحذر في نزولها وصعودها، وخصوصًا الصعود. وقد أجرى تنظيمها نوعًا المرحوم (بإذن الله) عباس باشا[٦] ومع هذا فصعوبتها لم تزل شديدة.

ثم إن ابتداء النزول كان في أول الساعة الأولى، والوصول إلى الشاطئ الشرقي من بحر العقبة كان في الساعة الثالثة، وهناك صار وَكْب المَحْمَل بجوار نخيل، وسار عن يمينه البحر المالح، وعن يساره أرض مرملة يعلوها البحر عند المد، وبانتهاء عرض البحر سلك طريقًا محتفَّة[٧] بالنخيل إلى أن وصل القلعة بعد خمس وأربعين دقيقة، وهي قلعة متينة مبنية بالحجر النحت على ثلثمائة متر من الشاطئ، أنشأها السلطان مراد[٨] ابن السلطان سليم،[٩] طولها ٦٣ مترًا في عرض ٦٣، وفي أركانها أربعة أبراج اثنان منها آيلان إلى السقوط، وعن يمين الباب برج وعن يساره آخر، وحوشها طوله ٤٥ مترًا في مثله، وفيه بئر معين[١٠] عَذب، عمقه عشرون مترًا، ومسجد صغير للصلاة، وحواصل للذخائر، وهذه القلعة فيها محافظ يوزباشي جهادي طوبجي،[١١] وأربعة مدافع أحدها نحاس من عيار خمسة والثلاثة حديد،

---

[٥] القُلزم: اسم السويس قديمًا، وكان يُطلق هذا الاسم على البحر الأحمر.

[٦] عباس باشا الأول بن طوسون بن محمد علي، ثالث الولاة من أسرة محمد علي بمصر. ولد بجدة حين كان أبوه حاكمها، عام ١٢٢٨هـ/١٨١٣م. ومن أخباره أنه تشاجر مع عمه إبراهيم باشا حاكم مصر، فسافر إلى بلاد العرب، وبحكم العلاقة التي بينه وبين الأمير فيصل بن نايف الشِّعلان أمير قبيلة الروَلَ؛ فقد حل ضيفًا على الرُّوَلَة لمدة سنتين حتى موت إبراهيم باشا أواخر عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م حيث تولى عباس حكم مصر بعد عمه. وقد أرسل عباس باشا الأول ابنه الأمير محمد صديق إلى الرولة ليتدرب على الفروسية وفنونها، اقتداء بالأمويين، إلا أنه توفي عندهم في أثناء تواجدهم في بلاد الشام، فدفنوه في بُصْرى عام ١٢٦٩هـ/١٨٥٣م. قتل عباس باشا الأول غيلة علم ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م رحمه الله (انظر طرفًا من هذه الأخبار في كتابي: قبيلة الرولة في التاريخ، فائز الرويلي، ص١٧٣).

[٧] محتفة: أي يحفه النخيل من الجانبين.

[٨] مراد: هو السلطان العثماني مراد خان الثالث بن السلطان سليم بن السلطان سليمان القانوني، ولد عام ٩٥٣هـ/١٥٤٦م، وتولى الخلافة عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م. وكانت وفاته عام ١٠٠٣هـ/١٥٩٥م رحمه الله (انظر تاريخ الدولة العليَّة، محمد فريد بك المحامي، ص٢٥٩).

[٩] سليم: هو السلطان العثماني سليم خان الثاني، ولد عام ٩٣٠هـ/١٥٢٤م، وتولى الخلافة عام ٩٧٤هـ/١٥٦٦. وكانت وفاته عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م رحمه الله (انظر: تاريخ الدولة العلية، محمد فريد بك المحامي، ص٢٥٣).

[١٠] معين: مياه جوفية.

وبها ٣٣ عسكريًّا بيادة،[١٢] وسبعة طوبجية،[١٣] وبجوارها بيوت صغيرة وعِشَش، وهي أكبر قلاع طريق الحاج.

وسكان هذه البقعة يبلغون مائة شخص، وتأتي إليها العُربان في موسم الحاج للتجارة بالفواكه، مثل الخوخ والرمان والعنب من مَعان[١٤] التي هي بلدة في حدود الشام، وأما البامية والخضارات تنزرع[١٥] بها. وهناك نخيل ومياه عذبة، ويحفرون حفائر بجانب البحر المالح فتنبع منها مياه أعذب من ماء البئر التي في القلعة.

وقد شاهدت هناك بعض عجائب صنع ربي، وذلك أنه حُمِل إليَّ سمك غريب الشكل، ظهره زمردي اللون، وجانباه بنفسجيان، أشبه بالطير المُسمى بالدُّرَة لونًا وشكلًا، فإن فمه وعيناه كمنقاره وعينيه.

---

[١١] محافظ يوزباشي: الحاكم الإداري ضابط برتبة رائد، وتخصصه جهادي طوبجي: أي جهادي مدفعي. مثل قولنا في هذه الأيام: المقدم مظلي مهندس فلان.

[١٢] بيادة: هم المشاة في الجيش.

[١٣] طوبجية: مدفعية.

[١٤] مَعان: مدينة تقع في جنوب اللملكة الأردنية، بينها وبين تبوك حوالي ٢٢٥ كيلًا، وبالقرب منها وقعت معركة مؤتة الشهيرة بين المسلمين والروم عام ٩هـ/ ٦٣٠م.

[١٥] تنزرع: أي تُزرع بها.

صَرْفُ مستحقَّات العُربان

محطة ظهر الحمار

وفي يوم الثلاثاء ٧ منه سنة ٩٧ (١٢ أكتوبر ١٨٨٠) صُرف للعُربان مرتَّباتهم؛[١] من دراهم، وبنشات،[٢] وأكراك،[٣] وشيلان كشميرية،[٤] وشاش، وحلويات. وقد بلغت الحرارة بعد الظهر ٢٥ درجة.

وبعد استلام الخرج[٥] والعلايق،[٦] سار الركب في الساعة العاشرة عن يمينه البحر وعن يساره الجبال، في أرض تارة مرملة وأخرى متحجِّرة، وفي الساعة ١ ق٤٠ من ليلة الأربعاء أناخ للاستراحة، وفي الساعة ٢ جدَّ السير، وفي الساعة ٢ ق٤٠ صعد على سطح متباعد عن البحر، وفي الساعة ٤ هبط منه، وفي الساعة ٤ ق١٥ مرَّ بجوار البحر، وفي الساعة ٤ ق٤٥ مر من مضيق متحجر بين الجبل والبحر، لا يمر منه إلا الجمل فالجمل بهبوط وصعود

---

[١] مرتباتهم: المخصص لهم.

[٢] بنشات: جمع بنش وهي السترة الرسمية وتُطلق على كل العطايا.

[٣] أكراك: حاويات كبيرة تحفظ فيها الأطعمة.

[٤] شيلان كشميرية: نوع فاخر من القماش يأتي من إقليم كشمير في شمال الهند. وقد يكون المقصود العُبيُّ التي يلبسها الأمراء والمشايخ والوجهاء، وهي ما نسميها «بُشُوت»، ومفردها «بشْت»، والبعض يسمونها «مَشالِح»، ومفردها «مِشْلَح». والتي عادة تُنسج وتخاط من هذا الصوف الذي يأتي من هذا الإقليم.

[٥] الخَرج: الإتاوة أو الضرائب أو المواد التموينية المخصصة للمحمل.

[٦] العلايق: الأعلاف المخصصة للدواب الناقلة للمَحْمَل.

صعب، في أرض تارة مُرملة وتارة متحجرة ومُتقطِّعة بمجاري السيول الآتية من الجبال إلى البحر، وفي الساعة ٥ سار في نخل كثير ممتد إلى المحطة محصور بين الجبل والبحر، وتضايق الطريق[٧] في بعض المحلات إلى عشرة أمتار، وفي الساعة ٥ ق٤٥ وصل الركب إلى محطة ظهر الحمار، فحطَّ فنزل[٨] ببقعة مرملة، غربيها البحري البحر والنخيل، وسائر جهاتها محاط برمال، وتستخرج المياه هناك من حفائر بجوار البحر، ولا سكن بها، إلا أن العرب تأتي إليها في أوان البلح يجنونه ليبيعوه في جهات أخرى،[٩] ولا يوجد هناك شيء للمبيع إلا حشيش للجمال بدلًا عن التِّبن.[١٠]

[٧] تضايق الطريق: ضاق الطريق.

[٨] فحط فنزل: أي حط رحاله ونزل في محطة ظهر الحمار.

[٩] أي يأتون في الصيف لجدِّ النخيل وجلب الرطب والتمر إلى أماكن أخرى.

[١٠] التبن: عيدان القمح بعد الحصاد والتي تستخدم كعلف للبهائم.

شَرَفَةُ بني عَطِيَّة

وفي يوم الأربعاء ٨ منه (١٣ أكتوبر) صُرف للعرب صباحًا ما هو مُرَتَّبٌ لهم. وفي الساعة ٧ ق٤٠ سار الحاج صاعدًا على جبل مرتفع نحو العشرين مترًا، صعب الصعود، وبعد الاستواء على سطحه استراح نحو أربعين دقيقة، ثم اتجه مُقبلًا في وادٍ متسع عن يمينه البحر وعن يساره جبال، وفي الساعة ٨ ق٥٠ مر في خور، وفي الساعة ٩ وصل إلى أرض مرملة بشاطئ البحر، وفي الساعة ٩ ق٣٠ نَفذ من بين جبلين صاعدًا إلى وادٍ مرمل به أكمات وخيران كثيرة يتصل بوادٍ سهل مستوٍ بعيد عن البحر، وفي الساعة ١٠ ق٣٠ وصل إلى طريق متسع بين جبال، وبعد نصف ساعة من الغروب استراح، وفي الساعة الأولى من ليلة الخميس سار فمرَّ من أراضٍ متحجِّرة ذات هبوط وصعود، وفي الساعة ٥ ق٣٠ اتسع الطريق وكثر الشجر المسمى بالعبل،[1] وفي الساعة ٦ استراح، وفي الساعة ٦ جدَّ السير،[2] وفي الساعة ٧ ق٣٥ مرَّ بمقابر الشهداء، وبهذا الوادي حشايش وزَلط وهو محاط بالجبال، وفي الساعة ١٠ ق٥٠ نزل الركب في محطة الشَّرفا،[3] وهو محل محاط بجبال عالية متحجِّرة ارتفاعها نحو خمسين مترًا، ليس به مياه للشرب.

وقد حصل للموظفين بالمَحْمَل مشقة شديدة، لمنع أمير الحاج الفرَّاشين من التقدم أمام الركب قبل الوصول إلى المحطة بساعتين؛ لنصب الخيام كما كان معتادًا قديمًا؛ ليستكنَّ

[1] العبل: شجر الأثل. ويُعرف الأثل علميًّا باسم Tamarix articulate (انظر: موسوعة جابر لطب الأعشاب، د. جابر بن سالم القحطاني، ٢ / ١٦).

[2] كذا، ولعل الصحيح: وفي س٦ ليلًا استراح، وفي الساعة ٦ نهارًا جدَّ السير. والساعة ٦ ليلًا (غروبي): الساعة ١٢ منتصف الليل. والساعة ٦ نهارًا (غروبي): الساعة ١٢ ظهرًا. أو قد تكون استراحة قصيرة لم يدقق الوقت فيها. والله أعلم. وسيمر معنا مثل ذلك في الصفحات القادمة إن شاء الله.

كلٌّ في خيمته عند وصول الركب، ويستريح من التعب، ويهيئ لنفسه ما يقتاته،[4] فإنهم لما وصلوا إلى المحطة آخر الليل — مع التعب الشديد — لم يجدوا الخيام منصوبة، وتأخر نصبها من الظلام وكثرة الازدحام،[5] وهو لذلك في غاية الانتظار، حتى طلع النهار، فدخل كلٌّ إلى خيمته، واستكنَّ بين أمتعته. وقد شاهدنا مرارًا أن من ضاع منه شيء ونودي عليه فمستحيل أن يعود إليه.

وفي يوم الخميس ٩ منه سنة ٩٧ (١٤ أكتوبر ١٨٨٠م)، بلغت الحرارة بعد الظهر ٢٧ درجة. وفي الساعة ٨ سار الركب في طريق متسع مُرمل به زلط وبعض حشايش وعلى جانبيه جبال شاهقة، وفي الساعة ١١ ق٤٥ استراح، وبعد أربعين دقيقة من الغروب سار، وفي الساعة ٥ ق٥٠ استراح، وفي الساعة ٦ ق١٥ اتَّبع البراح إلى الساعة ٨ ق٢٥، ثم وقف خمسًا وثلاثين دقيقة، وسار في الساعة ٩، وفي الساعة ١٢ وصل إلى عبل ونخيل من الجهتين ممتد إلى المحطة.

---

[3] محطة الشَّرَفا أو الشَّرَفة: هي شرَفة بني عطية، قبيلة كريمة مساكنها في شمال غرب الجزيرة العربية، والنسبة منها عطوي. قال الجزيري: الشرفة كالزَّلَّاقة المبنية، مسطحة يساوي منتهاها سطح عقبة أيْلة ووادي عُفان. وأضاف يقول: وبهذه الشرَفة تُضرب الأمثال، في شدة المشاق للجمال، ويُقال: لا حج إلا بعَرَفة، ولا جِمال إلا بعد الشرَفة. لكن مشقتها العظمى على الجمال في الرجعة ... وبَردُها زمن الشتاء شديد جدًّا، وفي أيام الاعتدال لا تخلو من البرد (الدرر الفرائد المُنظَّمة، الجزيري، ٢ / ١٣٥٣). وكتب محمد لبيب البتنوني منازل الحاج المصري فذكر أنهم يسمون الشَّرفا أيضًا: أم العظام (انظر: الرحلة الحجازية، محمد لبيب البتنوني، ص١١٢).

[4] ما يقتاته: ما يأكله.

[5] يذكر الرحالة أنه بسبب الظلام وكثرة الازدحام تأخر نصب الخيام إلى أن طلع النهار. وهو بهذا ينتقد إدارة المَحمل.

مغاير شُعَيْب

في يوم الجمعة ١٠ منه (١٥ أكتوبر) بعد خمس وعشرين دقيقة من الساعة الأولى من النهار وصل إلى محطة مغاير شعيب،[1] وهو محل بين تلال يحدق به نخيل وعبل ليس به حشائش ولا مساكن مبنية إلا زربيات من جريد لسُكنى العُربان، وتحمل المياه العذْبَة من مغاير تحفر بجوار الشجر، وهذه البقعة بعيدة عن المالح[2] بأربع ساعات، ويتوصل إلى البحر من وادي مَديَن. ولا يباع بهذه المحطة شيء سوى حشيش البهائم، وبلغت الحرارة عند الزوال ٣١ درجة.

وفي الساعة ٨ من يوم الجمعة سار الركب في وادٍ متسع بين نخيل وعبل وجبال، تارة قريبة من الدرب وتارة مستبعدة عنه،[3] وانتهى الشجر في الساعة ٩ ق١٠ وظهر اتساع

---

[1] مغاير شعيب: هي مدين وتُسمى في عصرنا البِدْع، وهي مدينة صغيرة تتبع إمارة منطقة تبوك في العهد السعودي. قال الجزيري نقلًا عن صاحب تقويم البلدان: مَدْيَن: مدينة خراب، على ساحل بحر القُلزُم، محاذية لتبوك، على نحو ست مراحل منها، وبها البئر التي استقى منها موسى لسائمة شُعيب. ومدين اسم القبيلة التي كان فيها شعيب، ثم سُميت القرية بهم، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ (الأعراف: ٨٥) (الدرر الفرائد المُنظَّمة، ٢ /١٣٥٨). وقال عنها عاتق البلادي: مغاير شُعيب: جمع مغارة، وهي الغار العميق في الجبل. مغائر في صفراء شعيب التي تظلل البِدْع من الغرب ... وأضاف يقول: والإجماع من زمن متقدم على أن هذه مغاير شعيب وأن البلد هو بلد شعيب سواء كان اسمه مَدْين أو الأيْكَة، فقد مر الرحالون من حجاج مصر من هنا منذ بداية القرن التاسع أو قبله فذكروا أن الاسم هو مغائر شُعيب وأنها مدين. ويقول المساعيد — أهل هذه الديار: إن اسم البِدع ناتج عن أن هذه الأرض قد دثرت ثم بدعت فيها آبار ومزارع فسُميت بذلك (رحلات في بلاد العرب «في شمال الحجاز والأردن»، عاتق بن غيث البلادي، ص ١٣٨).

[2] المالح: البحر الأحمر.

الوادي برماله المنشورة بالزلط والحشايش، وفي الساعة ١٢ عند الغروب استراح، وبعد مضي خمسين دقيقة من الغروب سار، وفي الساعة ٦ استراح، وفي الساعة ٦ اتَّبع البراح، وفي الساعة ١١ ق٤٠ مر من طريق بين أَكَمات منخفضة تارة وصاعدة تارة أخرى على يمين جبل ممتد متسلسل.

[٣] مستبعدة عنه: بعيدة عنه.

عيون القصب

في يوم السبت ١١ منه سنة ٩٧ (١٦ أكتوبر ١٨٨٠م) في ابتداء الساعة الأولى من النهار، نزل الركب حذاء الجبل بمحطة عيون القَصَب،[١] وهناك بقعة بين جبلين بها نخيل وحشيش وسعتر وسلسول ماء آت من الجبال يجتمع في حفرة تحمل منها الحجاج مياهًا، وقد بلغت الحرارة وقت الظهر ٣٢ درجة ريومور.

في الساعة ٧ ق٣٥ سار ومر من فوق جبل كثير الزلط إلى وادٍ متسع أرضه صلبة بها حصا[٢] وحشايش، وفي الساعة ٨ ق٢٠ قرب الدرب من المالح بمسافة قليلة، وصعد الركب على تلٍّ إلى وادٍ آخر، وفي الساعة ٨ ق٤٥ صار البحر عن يمينه وجبل مرمل ممتد عن يساره، وفي الساعة ٩ ق١٠ قلَّ الجبل وكثر النخيل، وصار البحر يبعد شيئًا فشيئًا، ثم يقرب ثم يبعد،[٣] وفي الساعة ٩ ق٤٥ انتهى النخيل واتسع الوادي، وفي الساعة ١٢

---

[١] عيون القصب: وتسمى عينونة، من منازل الحاج المصري. قال الجزيري عنها في منتصف القرن العاشر الهجري: والبحر الملح قريب منها، وربما تَرْسي عليها بعض الزعايم، لبيع الغلال على أهل الركب، يجلبونه وغيره من الدقيق والمأكولات من بندر الطور، وماؤها المورود خارج من واد جارٍ على نخيل أخضر، وقصب فارسي، وشجر من المقل، ولذلك هو سريع التغير إلى العفونة، يصلح للغسل والاستحمام. والعادة الآن أن الركب يقيم بها إلى قبل الظهر بعشر درج ويرحل، وذكر ابن العطار أن الركب كان يبيت بها غالبًا في زمنه. وأضاف الجزيري يقول: ومحطة الركب في الذهاب فوق الحدرة، وفي الإياب تحت الحدرة بالقرب من قبر الشيخ إبراهيم الابْناسي الشافعي، وهو في ضمن قُبَّة عالية مبنية فوق الجبل (الدرر الفرائد المنظمة، ٢ / ١٣٧٠).

[٢] حصا: حَصَى. وهي الحجارة الصغيرة.

[٣] يعني أن الطريق مرة يقترب من البحر الأحمر ومرة يبتعد.

استراح الركب، وفي الساعة الأولى من الليل سار في هذا الوادي مع السهولة يشاهد بعضًا من شجر الدَّوْم،[٤] وفي الساعة ٥ ق٤٠ استراح بالقرب من البحر، وفي الساعة ٦ ق١٥ سار، وفي الساعة ١١ نزل بالقرب من بلد المُوَيْلِح بضم الميم وكسر اللام.

[٤] شجر الدوم: نوع من الشجر يشبه النخيل إلا أنه يتميز عنه بتفرعه، وله ثمر عند نضجه يصبح كالحجر، وبعد إزالة الطبقة الرقيقة التي تكسوه يؤكل ومذاقه حلو، وله فوائد طبية. والدوم من الفصيلة النخيلية، واسمها العلمي: Hyphaene thebaica.

المُوَيْلِح

في يوم الأحد ١٢ منه (١٧ أكتوبر) بعد مضي عشرين دقيقة من الساعة الأولى من النهار استعد الموكب ودخل بلدة المُويلِح[١] بعد الساعة واحدة وثلث، ونزل على شاطئ البحر، وهناك قلعة حصينة، بها جامع ومخازن ومحافظ و٢٣ عسكريًّا، يتبعهم أربعون في محطة سَلْمى وكُفافة، والقلعة مبنية حصينة، أنشأها السلطان سليم،[٢] طولها مائة متر في عرض ثمانين، وفي أركانها الأربعة بروج قطر الواحد منها عشرة أمتار، وطول حوش القلعة ٨٣ مترًا في عرض ٦٢ مترًا، وبها مدفع من النحاس مستعمل، وسبعة من الحديد غير صالحة للاستعمال، وبها بئر قيسوني الماء عمقها أحد عشر مترًا. وفي خارج القلعة آبار متعددة، ونخيل بكثرة، ومساكن من عِشَش إلا بيتين أو ثلاثة، ومخازن لتجارة الفحم والحطب والسمن والعسل، ويزرع هناك بعض خضارات. وأهلها نحو مائة شخص خلاف العُربان،

---

[١] المويلِح: ويسمى المويلحة بالتأنيث، بلدة صغيرة في شمال غرب الجزيرة العربية على ساحل البحر الأحمر بالقرب من مدينة وميناء ضبا. قال عنه الجزيري: المَوَيْلِح، ويُسمى النَّبْك عند أهل الدَّرَك، والمحطة بجانب البحر المالح، وبها صيادون للسمك في قوارب لطاف، ويجلب إليها الدقيق والفول والفاكهة من الطور في جلاب، للبيع على الحجيج كالعيون، ويحصل بذلك رفق للركب، يوجد بها الحشيش لعلوفة الجمال والأغنام في الغالب، تجلبه العُربان. وأضاف يقول: المُويلِح وصف للماء تصغير مالح، وهو كذلك عند قلة الأمطار. والظاهر أن المنزلة سميت باسم مائها المورود قديمًا (الدرر الفرائد المنظمة، ٢ / ١٣٧٨ بتصرف).

[٢] بل الصحيح أن الذي أنشأ قلعة مويلح هو السلطان العثماني سليمان القانوني عام ٩٦٨هـ/١٥٦٠م (انظر: العثمانيون في شمال الجزيرة العربية، مطلق البلوي، ص٩٠. نقلًا عن: قلعة المويلح «دراسة معمارية حضارية»، هشام محمد عجيمي، ص١١٤ رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

والحُمَّى مُتَسَلْطِنة[٣] على سكانها دائمًا، وكذا داء الطحال،[٤] وسبب ذلك اقتياتهم بالبلح قبل استوائه وبعده طول العام، لفقد ما يقتاتون به غيره؛ لأن الحِنطة عندهم عزيزة جدًّا.[٥] ولجميعهم من نساء ورجال اعتقاد قوي في الزَّار الذي عمَّت به البلوى في سائر الأمصار، ويحكون في ذلك حكايات ما هي إلا خرافات.

---

[٣] متسلطنة: متمكنة منهم.

[٤] داء الطحال: الطحال يوجد في الركن الأيسر من بطن الإنسان، ومن وظائف الطحال: صنع خلايا الدم الحمراء والبيضاء في الجنين، ولكن بعد خروجه من بطن أمه يتوقف تصنيعه للخلايا الحمراء، ومن وظائف الطحال صنع الخلايا اللمفاوية، ويقوم الطحال بتخزين مقدار من الدم يبلغ حوالي ٥٪ من دم الإنسان؛ ليفيض به على الجسم عند الحاجة. ومن الأمراض التي يزيد عندها حجم الطحال: الملاريا. وبالرغم من أن للطحال فوائد جسيمة إلا أن الجسم يمكنه الاستغناء عنه، ولهذا فهو يُستأصَل جراحيًّا في حالات انفجاره أو تضخمه أو التهابه أو احتقانه، وتقوم الخلايا الشبكية البطانية الموجودة في مختلف أجزاء الجسم بتعويض الجسم عما فقده نتيجة استئصال الطحال (موسوعة جابر لطب الأعشاب، د. جابر القحطاني، ١ / ٥٣٤، بتصرف واختصار).

[٥] عزيزة جدًّا: أي أنها نادرة أو قليلة جدًّا.

ضُبَا (سَلْمى وكُفافَة)

وفي يوم الإثنين ١٣ منه (١٨ أكتوبر) صُرف للعُربان مرتباتهم صباحًا، وفي الساعة ٨ ق٥٠ سار الحاج في طريق مُرمِل إلى وادٍ سهل ذي عبل أرضه صالحة للزراعة به بعض مجار للسيل، وفي الساعة ١٠ ق١٠ مر في محجر بين تلال ممتدة في طريق تضيق تارة وتتسع أخرى، وفي الساعة ١٠ ق٥٠ مر في محجر آخر، وفي الساعة ١١ ق١٠ ارتقى إلى مصعد، وبعد الغروب بربع ساعة استراح، وفي الساعة الأولى من الليل سار الركب، وفي الساعة ٣ مر بوادٍ مستوٍ جدًّا صلب الأرض صالح للزراعة، وفي الساعة ٤ مر بأرض مرملة وتلال على الجانبين، ثم في أرض مستوية يعلوها حصى وفي الساعة ٥ استراح، وفي الساعة ٦ ق١٠ جدَّ السير، وفي الساعة ٩ مر في محجر ضيق لا يمر منه إلا الجمل فالجمل يُسمى بنقر العجوز، ثم هبط بين جبلين، ثم اتسع الطريق واستوى، وفي الساعة ٩ ق٥٠ مر في محجر إلى وادٍ ذي عبل، وفي الساعة ١٠ اتسع الوادي، وفي الساعة ١٠ ق٤٠ نزل بمحطة الضُّبا[١] المسمَّاة بسَلمى وكُفافة، وهي بقعة متسعة محاطة بجبال قريبة من البحر، وبها بيوت وحواصل وجامع وبرج صغير، وهي تابعة لمحافظة المُوَيلِح، كما نبهنا على ذلك، وآبارها عذبة، وتجارتها الحطب والفحم والسمك، وبها شجر دوم.

---

[١] ضُبا: هكذا نلفظها ونسميها في هذه الأيام، وهناك من يلفظها بكسر الضاد. وضُبا ميناء سعودي في شمال غرب الجزيرة العربية، ويقابله في الجهة أخرى ميناء سفاجة المصري، وبينهما خط بحري لنقل البضائع والركاب. وضبا هي ملتقى الطرق، من الوَجه ومن تَبوك ومن حَقْل. وكان أهل البحر يسمونها: كُفافة، نسبة لجبل ليس ببعيد عنها، وأهل مصر يسمونها: سلمى، نسبة لجبل ليس ببعيد عنها أيضا، والعرب البادية يسمونها: ضُبَا. وهذا هو الذي يُعرف الآن. ومن أسمائها — أيضًا — آبار السلطان.

محطة الأزْلم

في يوم الثلاثاء ١٤ منه (١٩ أكتوبر) الساعة ٨ ق٣٥ سار الركب، وفي الساعة ٨ ق٤٥ صعد إلى تلال مفضية إلى وادٍ متسع يعلوه زلط عن يمين البحر بعيدًا منه بمسافة قليلة، وفي الساعة ١٠ ق٣٠ مر على قبر الأكفافي،[١] وفي الساعة ١١ هبط يسيرًا في محجر، وفي الساعة ١١ ق١٥ صعد فوق تلال ثم مر بالقرب من البحر، وفي الساعة ١٢ استراح، وفي الساعة الأولى من الليل سار الركب، وفي الساعة ١ وصل إلى منحدر خفيف، وفي الساعة ٥ ق١٥ سار في وادٍ مستو سهل به بعض زَلَط، وفي الساعة ٦ ق١٠ هبط من منحدر، وفي الساعة ١٠ ق٥٥ وصل إلى محطة أزْلَم،[٢] وهناك قلعة مربعة الشكل مبنية بالحجر النحت، خربة من مدة سنتين، كان قد أنشأها الملك الأشرف أبو النصر[٣] في سنة ٥١٦،[٤] وليس بهذه

---

[١] هو مرزوق الكُفافي (انظر: الدرر الفرائد المنظمة، الجزيري، ٢ / ١٣٨٥. أنس السَّاري والسارب، السراج بن مليح، ص٧١).

[٢] الأزْلَم: قال عنه الجزيري: وإنما سُمي هذا المحل بهذا الاسم لخباثة أرضه وسباخته وكثرة أفاعيه، وملوحة مائه جدًّا، وقلة نبات الأرض به، خصوصًا زمن المَحْل، والمشقات الحاصلة للوفد بشرب مائه، وبُعْد المسافة عن الماء العذْب السائغ منه ذهابًا وإيابًا وغير ذلك، وهو نصف طريق المكة، يصلون إليها في سابع يوم من العقبة. وأضاف يقول: والأزلم من المناهل الكبار المُعدة لاستعداد المحتاج من الحجاج، ويُنصب به سوق كبير، تجمع فيه الباعة ما حملته من الزاد والعليق وغيره للبيع على الحجيج، خصوصًا بالرجعة عند حضور جماعة الملاقاة بما معهم من البضائع والمأكولات، إلا أن الإقامة به بمقدار زائد عن الحاجة لا طائل فيه؛ لتضرر أهل الركب بشدة ملوحة مائه، خصوصًا في زمن شدة المحل وعدم الأمطار (الدرر الفرائد المنظمة، ٢ / ١٣٨٨ و١٣٩٣).

[٣] الملك الأشرف أبو النصر قانصُوه الغوري، نسبة إلى مدينة غوري والتي تقع في جورجيا. هو آخر سلاطين المماليك البرجية. ولد عام ٨٥٠هـ/١٤٤٦م، ثم امتلكه الأشرف قايتباي وأعتقه وعينه في عدة

المحطة سكن، وفيها ثلاث آبار لشرب الدواب فقط، عمق كل منها خمسة أمتار، وبالصحراء حشائش تُسمى بالرِّمْث[5] لا يُنتفع بها. وقد بلغت الحرارة وقت الظهر ٣٠ درجة.

وفي يوم الأربعاء ١٥ منه (٢٠ أكتوبر) في الساعة ٨ ق٣٥ سار الركب في هذا الوادي المتسع المحاط بالجبال، وفي الساعة ٩ ق١٠ ظهرت جبال على الجانبين ممتدة إلى المحطة الآتية، تارة تبعد وتارة تقرب، مع وجود حَصَى وشجر السَّنْط،[6] وبعد ق٤٥ من الغروب استراح، وفي الساعة ١ جدَّ السير، وفي الساعة ٦ استراح، وفي الساعة ٦ ق٤٥ سار في أرض متسعة محاطة بجبال تارة تعلو وتارة تنخفض.

وظائف في خدمته. نودي به ملكًا على مصر عام ٩٠٦هـ/١٥٠١م إلى أن قُتل في معركة برج دابق شمال حلب عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م وكانت ضد العثمانيين، الذين واصلوا تقدمهم بعد هذا الانتصار، وضموا مصر، فأصبح ولاية عثمانية (انظر إلى بعض تاريخه في كتاب: حقائق الأخبار عن دول البحار، الميرالاي إسماعيل سرهنك، تحقيق ودراسة: د. عبد الوهاب بكر، المجلد الأول/الجزء الثاني، ص٣٣١).

[4] هذا هو المكتوب في النسخة التي بين يدي، وهو خطأ في الطباعة لا شك، والتاريخ الصحيح هو: ٩١٦هـ/١٥١٠م. قال الجزيري: وكان بها خانٌ خراب للناصر محمد بن قلاوون، فهُدم في ولاية السلطان قانصوه الغوري، وأعيد جديدًا في سنة ست عشرة وتسع مئة على يد الأمير خُشْقَدَم، أحد الأمراء العشرات (الدرر الفرائد المنظمة، الجزيري، ٢ / ١٣٨٩). ولا زالت أثار القلعة باقية إلى الآن.

[5] الرِّمث: أشجار معمِّرة من الحَمض، يتراوح ارتفاعه ما بين ٥٠–١٠٠سم، يُعرف الرِّمث علميًّا باسم Hhalexylon Salicornicum أو Hammad Elegans. والرمث من أشهر النباتات عند العرب، فهو حمض للإبل ورعي لها، ومصدر للحطب والصابون أيضًا، وقد تحدث عنه العرب وأكثروا من ذكره لأهميته لهم (موسوعة جابر لطب الأعشاب، د. جابر القحطاني، ٢ / ٢٢١).

[6] السَّنْط: هو شجر الطَّلْح المعروف. ومن أسمائه الأكاسيا والقَرَظ. وينتشر في الجزيرة العربية والهند وبعض مناطق إفريقيا. واسمه العلمي: Acacia Arabica من الفصيلة البقولية Leguminosae. وله الكثير من الفوائد الطبية (انظر: موسوعة جلبر القحطاني، ٤ / ٢٠٤).

إسطبل عَنْتَر – قلعة الوَجْه

وفي يوم الخميس ١٩ منه سنة ٩٧ (٢١ أكتوبر ١٨٨٠م) بعد مضي نصف ساعة من النهار وصل الرَّكب إلى محطة اصْطَبْل عنتَر،[١] وهو محل متسع نوعًا، ومحاط بالجبال، في وسطه ثلاث آبار إحداها مردومة، والأخريان فيهما مياه قليلة مُرَّة لعدم نزحهما سنويًّا، وإن كان الميري يَصرِف في كل عام مبلغًا لنزحهما! وبجوارها حوضان طول كلٍّ منهما ١٥ مترًا في عرض ١٥ وعمق ثلاثة، وبهذه المحطة أعراب يبيعون الحشيش.[٢] وقد بلغت الحرارة عند الزوال ١٣ درجة.

وفي الساعة ٨ ق٤٠ سار الركب ومرَّ من فوق أَكَمة محجرة بين جبلين ومُتعرِّجة كطريق الفار، وفي الساعة ٩ ق٣٥ اتسع الطريق وقرب من المالح بمسافة قليلة مع وجود حَصَى، وفي الساعة ٩ ق٤٠ سار في وادٍ مُتَّسِع به جبل فاصل بينه وبين البحر، وفي الساعة ١٠ ق٤٠ سار في وادٍ متَّسع به جبل فاصل بينه وبين البحر، وفي الساعة الأولى من الليل سار، وفي الساعة ٥ ق٥٥ استراح، وفي الساعة ٦ جد السير بوادٍ أرضه سهلة بسيطة، وفي

---

[١] اسطَبل عنتر: من منازل الحاج المصري، ويبعد عن الوجه شمالًا حوالي ٤٧ كيلًا. جاء في الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي ص٣٢٤: أن به ميناء أثري قديم، وفيه مرسى صغير ترسو فيه السفن، مساحته ٨٠م × ٢٥٠م. ا.هـ. وقال عنه الجزيري: وهو فضاء صغير بين جبال ووعر، وحدرات ومضيق، ويُرى البحر من أماكن منه. وأضاف يقول: وبالقرب من إسطبل عنتر من جهة المشرق نحو ثُلُثَي بريد عين ماء تجري تسمى المِسْماة. وبالقرب من مضيق الاسطَبل حفائر ماء حلو، تُسمى النخيرة وأم الطين (الدرر الفرائد المنظمة، الجزيري، ٢ / ١٣٩٥).

[٢] الحشيش: أعلاف الدواب.

الساعة ١٠ ق٢٠ استراح، وفي الساعة ١١ ق١٥ وصل إلى قلعة الوجْه،[٣] وهي حصينة كقلعة نخل، في فلاة بين جبال، بها جامع ومخازن ومدفع واحد وثمانية أنفار، حولها قِفارٌ[٤] ليس بها إلا بعض نخيل وشجر نِبْق[٥] لم يُسق منذ أربع سنين، لعدم نزول السيل في هذه المدة، وليس بها بيوت ولا أسواق؛ لكن في أوان الحج تأتي البياعون من المينا التي بساحل البحر، وهي على بُعْد ساعتين.

وبالمينا[٦] رج[٧] مشيد به مدفعان من عيار واحد ونصف، وثلاثون عسكريًّا، وصاغقول أغاسي[٨] محافظ،[٩] وبيوت وسوق وثلاثة جوامع وتُجَّار، والخضار معدوم منها، ومقدار الأهالي يبلغ نحو خمسمائة نفر ما عدا العُربان المقيمين هناك، وبها بئر ماؤها عذب تُحمَل منها المياه إلى القلعة، وإن كان بالقلعة سبع آبار مبنية، عُمق الواحدة منها خمسة أمتار وقُطرها متران، إلا أن مياهها مُرَّة لا تَصلُح للشرب إلا إذا غلب عليها السيل ونُزِحت كما

---

[٣] قلعة الوَجه: من منازل الحاج المصري، وتقع في وادي الزريب شرق مدينة الوجه، على بعد ٨ كيلات تقريبًا، ويطلق عليها أهالي الوجه اسم: قلعة الزريب، أنشئت القلعة في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني عام ٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م. انظر: العثمانيون في شمال الجزيرة العربية، مطلق البلوي، ص٩٠. نقلًا عن كتاب: قلاع الأزنم والوجه وضبا، هشام محمد عجيمي، ص٥٥. ومر بها أويتنج في عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م حين ذهب مع قافلة قبيلة عنزة من العُلا إلى الوَجه، مُنهيًا بذلك رحلته في الجزيرة العربية فقال: وصلنا حوالي الظهر إلى شُعيب ضيِّق يُسمى الزَّريب، تزودنا من منابعه بالماء وأسقينا منه الجمال، ثم انصرفنا على عجل، وحينما خرجنا من ذلك الشعيب لاحت أمامنا قلعة الوجه الواقعة على درب الحج المصري، وما هو إلا وقت قصير حتى وصلنا إليها، وبعد ساعتين كانتا تمران ثقيلتين كدهر كامل وصلنا إلى ميناء الوَجه التابع للسيادة المصرية (رحلة داخل الجزيرة العربية، يوليوس أويتنج، ص٢٣٨).

[٤] القَفْر والقَفْرَة: الخلاء من الأرض حتى وإن كان فيها بعض الكلأ، وجمعه قِفارٌ وقُفور. وأُقفرت الدار: خلت. ويقال: دار قَفْر ومنزل قَفر، فإذا أَفردت قلت: انتهينا إلى قفرةٍ من الأرض. ويقال: أقفر فلان من أهله إذا انفرد عنهم وبقي وحده (انظر: لسان العرب، ٥ / ١١٠، مادة: قَفْر).

[٥] شجر نِبْق: هو السدر المعروف. واسمه العلمي: Ziziphus spina-cristi من الفصيلة السِّدرية Rhamnacea وله الكثير من الفوائد الطبية (انظر: موسوعة جابر لطب الأعشاب، د. جابر القحطاني، ٤ / ١٩٢).

[٦] المينا: ميناء مدينة الوَجه.

[٧] رج: أي منصة للمدافع.

[٨] صاغقول أغاسي: رتبة عسكرية في زمن الدولة العثمانية.

[٩] محافظ: الحاكم الإداري لدينة الوجه.

ينبغي، مع أنه في كل عام يَصْرِف الميري[10] مبلغًا لأجل نزحها وتطهيرها،[11] فالمبلغ لا يزال يُصرف كالمعتاد، والآبار لا تُنزح في الميعاد![12] وعند نزول الركب هناك، وُجدت المياه غير صالحة لشرب البهائم بالكلية؛ لمرارتها، فتحقق أنها لم تُنزَح، وأضرَّ ذلك بالحجاج، حتى اجتمع السَّقَّاءون المتوظفون فنزحوا بئرين منها في حوالي ثلاث ساعات حتى زالت المرارة منهما، فارتوت الدواب، وأما المستخدمون بالمَحْمَل فقد حُملت إليهم المياه من المينا على الجمال، وبعضهم استبطأ مجيء الماء فاشترى من العُربان القِرْبَة[13] الواحد من الماء بنصف ريال. وقد بلغت الحرارة وقت الزوال ٣٤ درجة.

[10] الميري: الحكومي أو الحكومة.

[11] نزحها وتطهيرها، أي تفريغها من الماء وتنظيفها من الرواسب العالقة في قاعها وجوانبها.

[12] هنا ينتقد الرحالة محمد صادق رحمه الله إدارة القلعة، وأنهم لم يخلصوا في عملهم، مع أن الدولة تصرف لهم الأموال اللازمة لذلك العمل، وهو تفريغ هذه الآبار وتنظيفها. وهذا الخلل إنما هو من الفساد الإداري والمالي في الدولة؛ وسببه عدم المراقبة الحازمة، وعدم وجود العقوبة الرادعة.

[13] القِربة: جمعها قِرَب، وهي وعاء لحفظ السوائل، يتخذ من جلود الماشية بعد دبغها.

صَرْفُ حقوق العُربان

في يوم الجمعة ١٧ منه (٢٢ أكتوبر) صُرف للعُربان حقوقهم من الدراهم والكساوي، فوجد عدد من الكساوي والخلع ناقصًا عن المرتَّب! فسُئل من كاتب الصُّرَّة عن سبب ذلك؟! فأجاب بأن الروزنامجة[١] صَرَفت للصرة أثمان ما ينقص ليُصرف إلى أربابه. وقد أبى بعض من نقص مرتَّبه قبْضَ هذا المبلغ وأنِف[٢] من ذلك، ومنهم الشيخ سليمان شيخ عُربان الوَجه،[٣] لأنه لعدم وجود بنشه الذي هو من العال[٤] أراد كاتب الصُّرَّة إعطاء دراهم في مقابلته، فأبى ذلك، ورأى أن أخذه للثمن عار، وأخذ بنشًا من النِّمرة الدُّون.[٥]

[١] الروزنامجة: ديوان أو وزارة المالية.

[٢] أنِفَ: استنكف وصدَّ أنَفَةً وعِزَّةً من أن يأخذ هذا المبلغ.

[٣] الشيخ سليمان: المقصود هو شيخ قبيلة بلي سليمان باشا بن عَفْنان بن عمار بن سليم بن رِفادة. قال عنه أمير الحج المصري اللواء إبراهيم رفعت باشا: أما سليمان باشا فإنه رجل العرب وواحدها كرمًا وخلقًا وتواضعًا في عزَّة وعفَّة، وله من النفوذ بين قومه ما ليس للحكومات ذات الأنظمة الحديثة، ولو ضاع عقال من صاحبه في طريق الوَجه لأتى به سليمان، ولقد سبق أن سُرق جملان من عرب الجيزة الذين كانوا معنا في سنة ١٣١٨هـ/١٩٠١م، فأحضرهما بعينهما، وسلمهما إلى ذويهما، ومحال أن تجد مثل هذه الأخلاق في مشايخ العرب الآخرين. ولقد عرفته الدولة فأكبرته، وقلدته الأوسمة الفاخرة، ورتبة الباشوية (مرآة الحرمين، ٢ / ٢٣١). عُمِّر الشيخ سليمان باشا طويلًا، وأدركته المنية بالقرب من تبوك عام ١٣٣٦هـ/١٩١٧م، في حادثة تفجير القطار الذي كان يقلُّه وهو عائد من بلاد الشام، وذلك في أثناء أحداث الثورة العربية، ودُفن في تبوك رحمه الله (انظر: أعمدة الحكمة السبعة، توماس إدوارد لورنس «لورنس العرب»، ص٤٣٩). وشيخ قبيلة بلي في هذا العصر ١٤٣٢هـ/٢٠١١م هو: االشيخ سليمان محمد بن إبراهيم بن سليمان باشا آل رِفادة سلَّمه الله.

[٤] لعدم وجود بنشه الذي هو من العال: أي لعدم وجود كسوة من النوع الذي يليق بالشيخ سليمان باشا بن رفادة وأمثاله.

[٥] النِّمْرة الدون: أي الأقل جودة. إذ ينظر الشيخ سليمان باشا بن رفادة، وأمثاله من المشايخ والوجهاء والأعيان، لهذه الكسوة أنها تكريم لهم من قبل حكومة مصر؛ لذا لن يكون لها مقابل مادي.

وصف العُربان

اعلم أن العربان إذا اجتمعوا في مجلس لا يتميز بينهم الأمير من الحقير، ولسوء أدبهم لا يوقِّر صغيرهم الكبير، لا أمان لهم، شيمتهم الغدر، ولولا الخوف من سطوة الحكام لذبحوا كل من مرَّ بهم وسلبوه، ومع هذا فإنهم يفعلون هذا بمن انفردوا به. حصونهم الجبال، لا يبالون بحرام ولا حلال، حُفاة جُفاة، شيخهم بلا نِعال، لا يعرف لبس السروال، وشرفه في كوفيَّته[١] وعقاله، وقلَّما يصغون إلى مقالة. وقد شاهدتُ منهم عدم التوقير، وكثرة الجراءة أمام شريف مكة المكرمة مع ما له من الجلالة والعظمة.[٢]

---

[١] الكوفيَّة: قطعة مربعة من القماش طولها متر × متر، تُثنى على شكل مثلث، ويُغطِّي العربي رأسه بها ويضع فوقها العقال، وما كان منها باللون الأبيض فيُسمى: غُتْرَة في لهجة أهل الجزيرة العربية، وقِضاضة في لهجة أهل الشام، وما كان منها مطرَّزًا باللون الأحمر فيُسمى: شِماغ. وهو مأخوذ من التركية.

[٢] وصف العربان هنا من قبل المؤلف لا ينطبق على أبناء القبائل بشكل عام حتى وإن كان بعض ما قاله صحيحًا. وهي نظرة متبادلة بين الطرفين العرب والأتراك ومن يسير في ركابهم في ذلك الوقت، ومن الذين فطنوا لذلك بوركهارت، ومع تحفظي على بعض ما قال إلا أنه في الجملة لم يجانب الصواب، حيث إنه من أكثر الرحالة إنصافًا. يقول بوركهارت متحدِّثًا عن عرب شبه الجزيرة العربية في عام ١٢٢٩هـ/١٨١٤م: إن عرب شبه الجزيرة العربية أمَّة أبيَّة شجاعة، وهذا ينطبق حتى على سكان المدن. وهم يحتقرون كل أمة لا تتكلم اللغة العربية أو تختلف عنهم في أسلوب عيشها. إلى جانب ذلك، فقد اعتادوا لسنوات عديدة أن ينظروا إلى الأتراك كشعب أدنى مرتبة. كلما دخل إلى الحجاز كان يرهب بسلطة الشريف. إن الطقوس والشعائر الصارمة في البلاط التركي لم تكن تناسب الرعايا الجدد لمحمد علي ولا مفاهيمهم الراسخة، فالشريف، في أعلى سلطته، كان يشبه شيخًا بدويًّا كبيرًا يرضى بأن يُخاطب بطريقة وقحة واحيانًا قاسية، أما الباشا التركي فكان يخاطب بأكثر أشكال العبودية إذلالًا. وقد روى لي أحد كبار تجَّار الحجاز: «أن الشريف غالب، كان كلما أراد قرضًا ماليًّا يرسل في طلب ثلاثة أو أربعة منَّا، وكنا نبدأ محادثات مغلقة

معه لبضع ساعات، وكنا أحيانًا نتشاجر عاليًا حين كنا دائمًا نخفض المبلغ إلى أقل بكثير مما طُلب في البداية. وحين كنا نذهب في أعمال اعتيادية إليه كنا نكلمه كما أكلمك الآن، إلا أن الباشا كان يبقينا واقفين أمامه بشكل مذل كالكثير من العبيد الحبشيين، وكان ينظر إلينا بنظرة متعالية كما لو كنا كائنات وضيعة حقيرة». ثم ختم قائلًا: «إنه يفضِّل أن يدفع غرامة للشريف على أن يحصل على معروف من الباشا». إن المعرفة القليلة البسيطة التي يملكها الأتراك للغة العربية ولفظهم السيئ لها حتى وهم يتلون آيات من القرآن، وجهلهم لشبه الجزيرة العربية وخصوصياتها التي ينتهكونها في كل فعل يقومون به، كلها أسباب عديدة إضافية لجعلهم مكروهين ومحتقرين في نظر العرب، ويبادلهم الأتراك ذلك الشعور بنسبة الازدراء والكُره نفسها، فإن كل من لا يتكلم لغة الجندي التركي أو لا يرتدي زيه، يعتبرونه فلاحًا أو ريفيًّا ساذجًا، وهي عبارة اعتادوا أن يطلقوها على الفلاحين المصريين كونهم كائنات يعيشون تحت أدنى حالة من العبودية والقمع. أما كرههم للعِرْق العربي فأكبر بكثير؛ لأن هذا العِرق لا يمكنه أن يتساهل مع تصرفاتهم الاستبدادية وتمريرها بلا عقوبة، كما اعتادوا في مصر، فهم مقتنعون بأن العربي إذا ما ضُرب فإنه سيَضْرِب مرة أخرى. ويتهم العرب الأتراك خاصة بالغدر والخيانة حين قبضوا على الشريف (غالب بن مساعد) وأرسلوه إلى تركيا بعد أن أعلن موالاته للباشا، وسمحوا للجيوش التركية باحتلال جدة ومكة، وهم — كما يؤكدون — ما كانوا ليُحرزوا تقدمًا أبدًا في شبه الجزيرة دون مساعدة الشريف، أو أن يحصلوا حتى على موطئ قدم هنا (رحلات في شبه الجزيرة العربية، بوركهارت، ص٥٠، بتصرف). هذا ولننظر إلى كلام محمد لبيب البتنوني — وهو من مصر أيضًا — عن العرب عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩، حين يضاف إلى كلام بوركهارت، وينقض كلام محمد صادق باشا رحمهم الله جميعًا، قال البتنوني عن أخلاق العرب: العرب أخلاقهم في البادية واحدة — في الغالب — من قديم الزمان، فهم أهل صدق ووفاء وشهامة وشجاعة وكرم، شديدو الغيرة على نسائهم، ولا قيمة للحياة في نظرهم إلا مع العزة، يأنفون العار، ويحفظون الجوار، ويدافعون عمن دخل في وجههم (حمايتهم)، وإذا بغى بعضهم على شخص فقال لهم: أنا في وجه فلان، يعني رجلًا من قبيلته، ولو في غيبته، رجعوا عنه، واحترموا حماية صاحبهم. يعرفون المعروف لصاحبه، ولا تأخذهم في الحق لومة لائم، وهم أبعد الناس عن الرياء والنفاق، وكلامهم كله صراحة، وليست فيه ألفاظ التفخيم وجمل التعظيم ماتضيع معه الحقيقة، فهم ينادون أمير مكة — وهو في منزلة الملك منهم — بقولهم: يا شريف، كما كانوا ينادون الرسول ﷺ بقولهم: يا محمد. ضمائرهم تسيل على ألسنتهم، وسلاحهم أقرب الأشياء إلى يدهم. الربيع عندهم خير الأيام، واللحم سيد الطعام، وهم أبعد الناس عن التأنق في المأكل والملبس (الرحلة الحجازية، محمد لبيب البتنوني، ص٥٦).

مفرق الدَّربَيْن

في يوم السبت ١٨ منه (٢٣ أكتوبر) سار الركب في الساعة ٧ ق٤٠ بين جبال وتلال، وفي الساعة ٨ ق١٠ هبط من محجر وزَلَط إلى وادٍ متسع ذي سنْط أرضه مرملة صَلبَة، وفي الساعة ١١ مر من بين جبلين إلى وادٍ متسع به أكمات متحجرة زرقاء مشققة تشققًا رأسيًّا على شكل ألواح يعسر السير فوقها بدون نعال، وفى الساعة ١٢ استراح، وفى الساعة الأولى من الليل جد السير، وفي الساعة ٥ ق٤٥ استراح بالقرب من مفرق الدربين؛ أعني الدرب الموصل إلى مكة والذي إلى المدينة، وفي الساعة ٦ ق١٥ سار في وادٍ تارة يعلوه زلط وتارة رمال فيها عبل، وفي الساعة ١١ ق١٥ استراح قدر عشرة دقائق ثم سار.

وادي العَكْرَة (أَكْرَا)

في يوم الأحد ١٩ منه (٢٤ أكتوبر) بعد مضي خمس عشرة دقيقة من الساعة الأولى من النهار مر بكثير من عبل وسَنْط في أرض تعلوها طبقات طين صالحة للزراعة، وفي الساعة ١ ق١٥ من النهار صعد فوق أكمة إلى سطح وادٍ مستوٍ فيه زلط كثير يُسمى بوادي العَكْرَة،[١] وهنالك نزل على غير ماء ولا مساكن؛ لأن المياه لا توجد في نحو هذا المكان إلا عند نزول السيل. وقد بلغت الحرارة عند الزوال ٣٠ درجة.

وفي الساعة ٨ ق٤٥ سار الركب واستمر في الوادي إلى الساعة ٩ ثم ارتقى على سطح وادٍ آخر به حَصَى، وفي الساعة ١٢ ق١٥ استراح، وفي الساعة ١ ق٤٥ من الليل جدَّ السير، وفي الساعة ٦ استراح، وفي الساعة ٧ سار، وفي الساعة ١٠ ق١٥ وصل إلى محطة حَنَك،[٢]

---

[١] وادي العكرة: هو أحد مصبَّات وادي الحمض، والثاني يُسمى اليعبوب، ويقع جنوب أكرا. وفي أكرا مبنى أثري يسمى قُصَيْر (تصغير قصر) سعيد، ويبعد عن الوجه جنوبًا حوالي ٥٠ كيلًا. ذكر الجزيري هذا الموضع في الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظَّمة باسم: أكرَه، ومرة باسم: أَكْرَى. وتبدَّل هذا الاسم فيما بعد إلى العَكْرَة، كعادة العرب — أحيانًا — في إبدال حرف الألف عينًا. قال عنه الجزيري: وأَكْرَى حدُّ أرض بلي من جهينة، وهو فضاء واسع، ومرعى، وماؤها حفائر جفار غير سائغة، وهي مختلفة منها ما هو مالح جدًّا، ومنها ما هو دونه، وإذا لم تكن الأرض سائلة من المطر فالملوحة متزايدة، وبالضدِّ، وتزعم الجمَّالة أن ماءها خبيث لشرب الجمال، وليس بصالح، وأنه يضرها بخلاف ماء الأَزْلَم، وأرضها ردِيَّة سَبْخَة، وأفاعيها قتَّالة في الغالب (الدر الفرائد المظمة، ٢ / ١٤٠٠).

[٢] حَنَك: من منازل الحاج المصري، ويسمى بين الدَّرْكَيْن، لأن ما قبله يسير الحاج المصري في دَرَك قبيلة بلي، أي حراستهم وحمايتهم، وما بعده يسير الحاج المصري في دَرَك قبيلة جهينة، أما الحنك فأشبه ما يكون بالمنطقة المحايدة بين بلي وجُهَينة، يسير الحاج فيه بدون دَرَك. والدرَك — بفتح الراء وسكونها

ولعدم وجود المياه بها استمر على السير، وفي الساعة ١١ ق٤٥ نزل في محل متسع، به سَنْط وزلَط، وليس فيه آبار ولا مياه؛ لكن مياه الركب كانت قد حُمِلت قبل ذلك من الوَجْه.

— مأخوذ من الإدراك وهو التبعة، أي أن القبيلة تتحمل تبعات ما يحدث في أراضيها. قال الجزيري عن الحنك: وكانت الإقامة بأَكرَى يومًا وليلة، وسار «الحاج المصري» إلى طارف الحنك إلى أن قطعه وهو فضاء واسع كبير، وطارف جبل صغير يُرى على مسيرة الركب ذهابًا وهو المسمى بالحنك (الدرر الفرائد المنظمة، ٢/١٤٠٢، بتصرف). وجاء السِّراج بن مليح القَيْسي مع الحاج المغربي في عام ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م، بعد الجزيري بحوالي ٨٠ سنة، وتحدث عن منازلهم فقال ثم لموضع صحرا يُقال له: بين الدرَكَين (أنس السَّاري والسارب، السِّراج بن مليح، ص٧٢).

بلدة الحَوراء

في يوم الإثنين ٢٠ منه سنة ٩٧ (٢٥ أكتوبر ١٨٨٠م) قد بلغت الحرارة وقت الظهر ٢٨ درجة. وفي الساعة ٧ ق٣٥ سار في وادٍ ذي رمل ثابت في بعض مواضع منه حَصَى وسَنْط وحشائش كثير للجمال، وفي الساعة ١٠ رُؤي البحر على بعد، وفي الساعة ١٢ استراح الركب، وفي الساعة الأولى من ليلة الثلاثاء سار، وفي الساعة ٢ ق٥٠ مرَّ في محجر عرضه خمسة عشر مترًا، منحدر بقدر اثني عشر مترًا، به أحجار كبير لا يمر منه إلا الجمل أو الجملان، ولم يقطعه إلا بعد نصف ساعة، فضلًا عن عشرين دقيقة مضت قبل المرور في تحضير وترتيب المشاعل والمهتابات، ثم استراح قدر ربع ساعة، وفي الساعة ٤ سار، وفي الساعة ٧ استراح، ورُؤي عن يمينه البحر، وفي الساعة ٧ سار، وفي س١٠ ق٤٥ وصل إلى محطة الحَوْراء،[1] في محل متسع به عين ماء عذْب تجري إلى بقعة فتخللها النخيل كجنَّة وسط هذه الصحراء يُرى البحر بعيدًا عنها بمسافة نصف ساعة، وبها أعراب يبيعون التمر والعسل والحشيش للدواب.

وفي يوم الثلاثاء ٢١ منه (٢٦ أكتوبر) لم يزل مقيمًا بها، وكانت الحرارة عند الزوال ٢٩ درجة.

---

[1] الحَوْراء: تقع شمال مدينة أم لُج أو أُمْلُج مباشرة، على ساحل البحر الأحمر في شمال غرب الجزيرة العربية، وقد اندثرت الحوراء بظهور مدينة أُملُج. وإلى زمن صاحب الرحلة الحجازية محمد لبيب البتنوني عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م والحوراء عامرة، ولا نعلم على وجه الدقة متى هجرها الناس. قال الجزيري في القرن العاشر الهجري عن الحوراء: هي قرية من قرى الحجاز تُباع بها العجوة، وبها قوارب لِطاف، بها جماعة لصيد السمك، وهي بساحل البحر، وماؤها حفائر جفار غير سائغ، ويَعذُب يسيرًا في بعض الأحيان إذا سال الوادي، والمراكب المتوجهة إلى الحجاز تستقي منها وبها شجر الأراك أيضًا (الدرر الفرائد المنظمة، ٢ / ١٤٠٥، بتصرف).

وكالة الحمير

وفي يوم الأربعاء ٢٢ منه (٢٧ أكتوبر) بلغت الحرارة وقت الزوال ٢٧ درجة. وفي الساعة ٧ سار الركب، وفي الساعة ٨ مر بين جبلين متباعدين، وفي الساعة ٩ وصل إلى واد متسع ذي أرض صلبة، وفي الساعة ٩ ق٤٠ مر بين تلال، وفي الساعة ١٠ ق٢٥ وصل إلى منحدر مستو عرضه عشرة أمتار إلى اتساع بين الجبال، وسَنْط بكثرة، وفي الساعة ١٠ صعد إلى عرض خمسة عشر مترًا في زلط كثير، وفي الساعة ١٠ ق٤٥ اتسع الطريق إلى ثلاثين مترًا، ووُجد في أعلى الجبال شجر القَفل[1] المستعمل في تبخير أواني الشرب، وفي الساعة ١١ وصل إلى متسع بين جبلين ذي زَلَط يكثر تارة ويقل أخرى، وفي الساعة ١١ وصل إلى منحدر يسير، عرضه عشرون مترًا، ثم إلى متسع كثير الرمل، وفي الساعة ١١ ق٤٠ مر في محجر ضيق بين جبلين، عرضه من ثمانين إلى عشرة أمتار، ثم من أربعة إلى خمسة، ثم اتسع شيئًا فشيئًا، وفي الساعة ١١ ق٤٥ وصل إلى دربند، أي مضيق، عرضه عشرة أمتار، بين صخرتين مرتفعتين نحو ثلاثين مترًا، ثم اتسع الطريق، وفي الساعة ١٢ وصل إلى رمال في مبدأ الأرض المشهورة بوكالة الحمير؛[2] وذلك أن الحمير الضعيفة تنقطع هناك لكثرة الرمال. وفي نصف الساعة الأولى بعد الغروب استراح، وفي الساعة ١ من الليل جدَّ السير، وفي الساعة ٣ ق٢٠ صعد فوق تل رمل، وفي الساعة ٦ سار،[3] وفي الساعة ١١ ق٣٥ استراح.

[1] القفل: نوع من الشجر المعمر يُستخرج منه صمغ «المُر»، وله فوائد طبية، والقَفل في اللغة: ما يبس من الشجر (انظر: لسان العرب، ١١ / ٥٦١، مادة: قفل).

[2] وكالة الحمير: موضع سماه بذلك الحجاج المصريين.

[3] كذا، ولعل الصحيح: وفي س٦ ليلًا استراح، وفي الساعة ٦ نهارًا سار. والساعة ٦ ليلًا (غروبي): الساعة ١٢ منتصف الليل. والساعة ٦ نهارًا (غروبي): الساعة ١٢ ظهرًا. أو قد تكون استراحة قصيرة لم يدقق الوقت فيها. والله أعلم. وقد مر معنا مثل ذلك وسيمر في الصفحات القادمة إن شاء الله.

محطة نَبْك (بئر السيِّد)

محطة الخُضَيْرَة

في يوم الخميس ٢٣ منه (٢٨ أكتوبر) أخذ في السير في ابتداء الساعة الأولى من النهار، وبعد خمس وعشرين دقيقة منها نزل بمحطة نَبْك،[١] المعروفة ببئر السيِّد، وهي محل متسع مرمل بين جبال من صخر، بها معادن الحديد والنحاس والمرقشيثا،[٢] وبالمحطة أربعة آبار مبنية، اثنتا منها مردومتان، وبالثالثة ماء يسير لوجود رَدْمٍ بها، وأما الرابعة ففيها ماء عذب، وعمقها خمسة أمتار، وقطرها من الأعلى ثلاثة أمتار، ومن سطح الماء أربعة، لوجود أربعة أكتاف كالعَمَد[٣] مبنية من قرارها إلى الماء، وفوق ذلك بُني داير البير أقل قطرًا من الأسفل، وارتفاعه إلى سطح الأرض نحو أربعة أمتار، وفيها أيضًا ردْم، فإن لم تُنْزَح ارتدمت في أقل زمن كالأخريين. وقد بلغت الحرارة عند الزوال ٣٠ درجة.

---

[١] نبْك: ذكر الرحَّالة الذين سبقوا محمد صادق باشا أن هذا المنزل: نَبَط. قال عنه الجزيري: وهو منهل من المناهل المشهورة، والمياه المذكورة، به ثلاث آبار من الماء الحلو الطيب، وللوفد بهذه الآبار رفق كبير، وخصوصًا إذا لم يكن بالوجه ماء فإن الحاج لا يَرِد على ماء حلو طيب بعد مغارة شعيب عليه السلام إلا منها، ويباع بنَبْط الشواء المعمول في التنُّور والعجوة والبطيخ والفجل مجلوبًا من يَنْبُع (الدرر الفرائد المنظمة، ٢ / ١٤٠٨، بتصرف. أنس الساري والسارب، السراج بن مليح، ص٧٢).

[٢] المرقشيثا: حجر النور، يستخرج منه النحاس وأجوده الذهبي.

[٣] العَمَد: مفردها عمود، والعمود: الخشبة القائمة في وسط الخِباء، والجمع أعمدة وعُمُد، والعَمَدُ اسم للجمع. وعَمَد الحائط يعمِدُه عمدًا: دعمه؛ والعمود الذي تحامل الثقل عليه من فوق كالسقف يُعمَد بالأساطين المنصوبة (انظر: لسان العرب، ٣ / ٣٠٣، مادة: عمد).

وفي الساعة ٩ ق٤٥ سار الركب في وادٍ مرمل محاطٍ بجبال يُسمى بوداي النار،[٤] لاشتداد الحرارة به صيفًا، وفي الساعة ١٢ عند الغروب نزل، وفي الساعة الأولى من الليل سار، وفي الساعة ٦ استراح، وفي س٦ ق٤٠ سار، وفي س١١ ق١٠ نزل بذلك الوادي بين جبلين، بهما آثار نحاس وحديد بكثرة، أرضه سهلة تعلوها حشائش، وعند اشتداد الشمس تلمع الرمال كالذهب، لكثرة اختلاطها بالمرقشيثا، وهذا المكان يُسمَّى بمحطة الخُضَيْرة.

وفي يوم الجمعة ٢٤ منه (٢٩ أكتوبر) بلغت الحرارة بعد الزوال بساعة ٣١ درجة. وفي الساعة ٩ ق٤٥ سار الركب، واستمر بين جبال سود مكوَّنة من حديد وغيره في أرض سهلة جدًّا في غاية الاستواء، صالحة للطرق الحديدية، ولم تزل كذلك إلى الغروب، وبعد عشر دقايق من الغروب استراح، ثم في الساعة الأولى من الليل سار، وفي س٢ ق٥٠ انتهت الجبال واتسع الوادي، وأما الأرض فما زالت بحالها، وفي س٧ ق٣٠ استراح، وفي س٨ سار، وفي س١٠ ق٢٠ نزل للاستراحة والتهيؤ للدخول إلى ينبُع البحر، ولم تزل الأرض مستوية جدًّا.

---

[٤] وادي النار: هلك فيه بعض الحجاج في بعض المواسم؛ بسبب الحرارة والعطش رحمهم الله جميعًا؛ لذلك سموه وادي النار.

يَنْبُع البحر

في يوم السبت ٢٥ منه سنة ٩٧ (٣٠ أكتوبر ١٨٨٠م) في الساعة الأولى من النهار سار الركب والمَحْمَل واكبًا ونزل بجوار بلدة يَنْبُع[١] الساعة ١ على مسافة ألف متر منها، وهذه البلدة على البحر، فيها مينا[٢] مشهورة، وبيوت وسوق يباع بها كل شيء يلزم للحجاج وبعض خضارات، وتُجارها من مصر والصعيد، وعند موسم الحج تأتي إليها العرب للتجارة، وأما في غير أوان الحج فلا بوجد بها شيء، وتصير كالخراب، وتُحمل إليه الغلال من مصر لترسل إلى المدينة، وبها شونة كبيرة، وبرج به مدفع من نحاس، وعشرة طوبجية من الترك، وبها محل للكرنتينة[٣] مبني في غاية الانتظام، ومحافظها من أهلها، برتبة قائمقام معيَّن

[١] يَنْبُع: هي ينبُع البحر وتقع في وسط غرب الجزيرة العربية على ساحل البحر الأحمر، وتبعد عن المدينة النبوية حوالي ٢٤٠ كيلًا. وينبُع هو ميناء المدينة بعد اندثار ميناء الجار (البريكة) التاريخي، الذي هو الآن بقرب بلدة الرايس. أما ينبع النخل فتقع شرق ينبع البحر على بعد ٥٥ كيلًا تقريبًا. وكانت ينبع النخل من منازل الحاج المصري والمغربي إلى أن تحولوا عنها إلى ينبع البحر. وفي عام ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م أنشأت السعودية الهيئة الملكية للجُبَيْل وينبُع، للإشراف على بناء مدينة الجُبَيْل الصناعية ومدينة ينبُع الصناعية، كقالعدة صناعية لتخفيف الاعتماد على النفط كمصدر شبه وحيد للدخل القومي في السعودية. وتقع ينبُع الصناعية على بعد ١٥ كيلًا جنوب ينبع البحر، وجهزتها الدولة بالدارات (الفلل) والمدارس والمساجد والدوائر الحكومية. وفي ينبع الصناعية تعمل الكثير من الشركات، ومنها شركة النفط السعودية «أرامكو»، التي تقوم بضخ النفط والغاز من شرق الجزيرة العربية إلى غربها، في هذه المدينة، ومنها إلى العالم، حيث إن الدولة السعودية أنشأت ميناء الملك فهد الصناعي في هذه المدينة، وهو من أكبر الموانئ الصناعية في العالم، وأنشأت ميناءً تجاريًّا في ينبُع البحر. ومنطقة ينبع تتبع إمارة المدينة المنورة.

[٢] مينا: ميناء بحري. والمقصود هو أن فيها رصيف ترسو فيه السفن والبواخر.

[٣] الكرنتينة: من اللغة الفرنسية وتعني: المحجر الصحي.

من طرف الدولة العلية؛[٤] لأن هذه البلدة تحت حكومة الدولة، وسورها منهدم، وجميع ما بها من الأبنية الميرية،[٥] كالشونة والمحافظة والبرج والسور ونحوها، قد صار بناؤه في مدة المرحوم محمد علي باشا،[٦] والي مصر سابقًا، ولم يتجدد مما ذكر شيء بعد أن صارت تحت إدارة الدولة؛ بل آل أغلبه إلى السقوط، وليس هناك آبار، وإنما تُخزَّن مياه السيل في صهاريج وتباع على الحجاج، وثمن زِق الماء عندهم غَرْشان،[٧] والزِّقُّ[٨] هو قِرْبةٌ صغيرة تستعمله العرب للماء، وكل ثلاثة زِقاق أو أربعة مِلء قِرْبَة مصرية، وبلغت الحرارة وقت الزوال ٣٠ درجة، وبعد الحج تأتي الوابورات[٩] إليها لتحمل الحجاج إلى السوَيس.

---

[٤] الدولة العلية: الدولة العثمانية.

[٥] الميرية: الحكومية.

[٦] محمد علي باشا: ولد بمدينة قولة «كافالا» باليونان عام ١١٨٢هـ/١٧٦٩م، التحق بالعسكرية وصار يترقى بها إلى أن أرسل نائبًا لقائد الكتيبة التي أرسلت إلى مصر، فرجع القائد وأصبح محمد علي باشا قائدًا لها، ومنها بدأ في تثبيت نفسه كحاكم إداري لولاية مصر إلى أن استقل بها، وأصبح أول حاكم لها في عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م. ضم الإمام عبد العزيز بن محمد آل سعود الحجاز، فندبت الدولة العثمانية محمد علي باشا لمحاربة الدولة السعودية، فجهز الجيش، وضع ابنه إبراهيم أميرًا عليه، وقبل أن يسير الجيش قضى على المماليك فى حفله الوداع عام ١٢٢٣هـ/١٨١١م فيما يسمى بمذبحة القلعه أو مذبحة المماليك؛ خوفًا من أن يثوروا عليه إذا ذهب إلى الحجاز لمحاربة الدولة السعودية. دخل مع السعوديين في حرب مفتوحة استمرت قرابة سبع سنوات، إلى أن أسقط الدولة السعودية الأولى عام ١٢٣٣هـ/١٨١٨م. يعتبر محمد علي باشا من الذين بنوا مصرًا، حيث أنشا المدارس النظامية في مختلف التخصصات. تنازل عن الحكم لابنه إبراهيم باشا في عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م، واختلف في زمن وفاته، قيل: إنها بعد ذلك بسنة، والله أعلم (انظر: حقائق الأخبار عن دول البحار، الميرالاي إسماعيل سرهنك، تحقيق ودراسة: أ.د. عبد الوهاب بكر، المجلد الأول/الجزء الثاني، ص٤٠٣).

[٧] غَرشان: مفردها غَرْش، وهي العملة المتداولة في ذلك الوقت.

[٨] الزِّق: هو السقاء، وجمع القِلة: أزقاق، والكثير زِقاق (انظر: لسان العرب، ١٠/١٤٣، مادة زقق). والمقصود هنا أحد الأوعية الجلدية التي تُحفظ فيها السوائل.

[٩] الوابورات: السفن البخارية.

محطة السقيفة

في يوم الأحد ٢٦ منه سنة ٩٧ (٣١ أكتوبر ١٨٨٠م) س٥ ق٤٥ سار الرَّكب، وفي س٦ هبط من منحدر بينه وبين شاطئ البحر خمسة أمتار، يستمر كذلك مدة ثم يتباعد عنه، أرضه مُرملة مستوية السطح سهلة السير، وفي س٨ مرَّ في أرض ذات شوك وحشايش، وتباعد عن البحر ثم في أرض يعلوها زلَط وسَنْط وحشايش، وفي س١٠ مر بأرض صلبة صالحة للزراعة، وفي الساعة ١١ ق٢٥ استراح، وبعد نصف ساعة من الغروب سار، وفي س٦ ليلًا استراح، وفي س٦ سار، وفي س١٢ من الليل نزل بمحطة السقيفة، في صحراء متسعة سهلة مستوية ليس بها سكان، ويوجد بها حفاير ماؤها مالح لا تصلح إلا لشرب الجِمال.

وفي يوم الإثنين ٢٧ منه (١ نوفمبر ١٨٨٠م) كانت الحرارة صباحًا ١٥ درجة، وفي وقت الزوال ٢٩ درجة. وفي س٧ ق٤٥ سار الركب، وفي س٩ مر عن يمين طريق بدر،[١] وفي س١٠ تركت حصاني في الصحراء لشدة ما نزل به من الإعياء، وفي س١١ ق٤٥ استراح الركب، وبعد خمس وأربعين دقيقة من الغروب سار في أرض لم تزل سهلة، وفي س٦ استراح، وفي الساعة ٦ سار إلى الصباح.

---

[١] بدر: ماء وقعت عنده معركة بدر بين المسلمين وكفار قريش في السنة الثانية من الهجرة النبوية الموافق لعام ٦٢٤م، وانتصر فيها المسلمون، وبه ١٤ شهيدًا من شهداء المعركة رضي الله عنهم جميعًا، وفيما بعد نشأت على هذا الماء قرية بدر، التي تطورت في العهد السعودي فأصبحت مدينة ومحافظة بدر، والتي تتبع إمارة منطقة المدينة المنورة. يبعد بدر عن المدينة حوالي ١٥٠ كيلًا، وعن البحر الأحمر حوالي ٢٠ كيلًا.

مَسْتُورَة

وفي يوم الثلاثاء ٢٨ منه (٢ نوفمبر) بعد مضي خمس وأربعين دقيقة من الساعة الأولى نزل الرَّكْبُ في محل مُتَّسِع، يُسَمَّى القاع، ليس به مياه ولا سكان، وبلغت الحرارة وقت الزوال ٣١ درجة. وفي س٧ ق٣٥ سار في أرض سهلة مستوية، وفي س١١ استراح، وبعد نصف ساعة من الغروب سار، وفي س٢ ق٣٥ هَبَطَ في مُنْحَدَر يسير، وفي س٢ ق٤٥ وصل إلى محطة مَسْتُوْرَة،[١] وهي محطة بها سوق ومساكن للعُرْبَان وبئران ماؤهما عَذْبٌ، مَرَّ عليها الرَّكْبُ بدون استراحة، وفي الساعة ٦ استراح، وفي الساعة ٧ سار حتى طلع النهار.

[١] مَسْتُوْرَة: مدينة صغيرة على البحر الأحمر، تقع بين يُنْبُع ورَابغ، شمال وادي وَدَّان على بعد ١٢ كيلًا تقريبًا. وكانت قوافل الحجاج — فيما مضى — تنزل في الأبواء القريبة من مَسْتُوْرَة وأحيانًا في وَدَّان، إلا أن الأبواء ووَدَّان قد هجرتا وحَلَّت محلهما مَسْتُوْرَة، والتي كانت في أصلها بئرًا يَرِد الناس عليها.

رَابِغ

وفي يوم الأربعاء ٢٩ منه (٣ نوفمبر) في الساعة الأولى نزل الرَّكْبُ ووكب المَحْمَل، وأتى إلى هناك الشريف حمزة وأتباعه من طَرَف أمير مكَّة الشريف عبد المطلب، ليسير مع الرَّكْب إلى مكَّة كما هي العادة، وفي س٢ سار، ودخل إلى رابغ[١] س٢ ق٢٠، وهي بلدة بينها وبين البحر نحو ساعة، بها بيوت كبيوت الرِّيْف، وسوق كبير، وقلعة تحتوي على مخازن للغلال، وذخائر لكل من الحاجَّين المصري والشامي ولمن بها من العساكر؛ لكن لم يُصْرَف هناك لمستخدمي المَحْمَل المصري إلا قنيطة قديمة مُكسَّرة مُتربة من السُّوس، فضْلًا عن تطفيف[٢] موازين المُرَتَّبات، وهذا جار في سائر القلاع.

---

[١] رابغ: بفتح الراء وكسر الباء، واد يصب في البحر الأحمر، يبعد عن مدينة جدة شمالًا حوالي ١٦٠ كيلًا، نشأت عليه البلدة التي أخذت الاسم منه، والتي أصبحت في العهد السعودي من أهم المدن الساحلية، وبالقرب منها أنشأت مدينة الملك عبد الله الاقتصادية. وإمارة رابغ في العهد السعودي في أسرة آل مبيريك، وأولهم هو الأمير إسماعيل بن مبيريك بن حمدي الغانمي، الذي بايع الملك عبد العزيز في عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م على أن تكون إمارة رابغ فيه وفي عقبه من بعده، فأقره الملك عبد الله العزيز رحمه الله على ذلك. توفي الأمير إسماعيل عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م رحمه الله، وخلفه في الإمارة ابنه سالم (١٣٧٥–١٣٨٦هـ)، ومن بعده ابنه قابل بن سالم (١٣٨٦–١٣٩٠هـ)، ومن بعده محمد بركة بن إسماعيل بن مبيريك (١٣٩٠–١٤٢٤هـ) أما محافظ رابغ في هذه الأيام فهو: طه بن عمر بن إسماعيل بن مبيريك بن حمدي الغانمي ابتداء من عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ووكيل المحافظة هو أيمن بن محمد بركة بن إسماعيل الغانمي (انظر: منتديات ومجالس قبيلة حرْب على شبكة المعلومات العامة «الإنترنت»).

[٢] التطفيف: نقص الميزان.

وهذه البلدة تحت حكم الدولة،[3] وبها خمس آبار قيسونية الماء، وصهاريج عذْبة المياه، وهناك يتلبس بالإحرام الحاج إلى بيت الله الحرام الوارد من مصر والشام قبل مسيره إلى محطة أخرى، ورُكَّاب البحر يُحْرِمون عند محاذاتهم لهذه البلدة أيضًا.[4]

[3] الدولة: الدولة العثمانية.

[4] ميقات الشام ومصر والمغرب، وساحل البحر الأحمر الشمالي، ومن يسلك هذا الطريق، هي قرية الجُحْفة (مَهْيَعَة)، وتقع جنوب مدينة رابغ بحوالي ١٥ كيلًا تقريبًا، على يسار المتجه جنوبًا، وكانت تُسمَّى قبل ذلك: مَهْيعة. إلَّا أن السَّيل اجتحفها فسُمِّيت الجُحفة، وما بقي منها الآن غير الأطلال. وكان الحجاج المغاربة يتورَّعون عن الإحرام من رابغ، ولا يحرمون إلا عند محاذاتهم للجُحفة، وقد أشار إلى ذلك العيَّاشي في رحلته عام ١٠٧٢هـ/١٦٦٢م. وللفائدة، فإن ميقات المدينة النبويَّة هو: ذو الخليفة، ويُسمَّى أبيار علي، ويبعد عن المدينة ٧ كيلات، وهو أبعد المواقيت عن مكَّة المكرمة إذ يبعد عنها ٤٢٠ كيلًا تقريبًا. وميقات اليمن: يَلَمْلم، وتُسمَّى السَّعديَّة، ويبعد عن مكَّة المكرمة ١٢٠ كيلًا تقريبًا. وميقات نجد والطائف: قرْنُ المنازل، ويسمَّى السَّيل الكبير، ويبعد عن مكَّة المكرمة ٧٨ كيلًا تقريبًا. وميقات العراق: ذات عرْق، والعرْق هو الجبل الصغير، وتسمَّى الضَّريبة، وتبعد عن مكَّة المكرمة ٩٥ كيلًا تقريبًا. وهذا الميقات مندثر، إلَّا أن وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف السعودية سوف تعيد تعميره، بعد أن أعلنت وزارة النقل السعودية أنها سوف تشق طريق القصيم– مكَّة المكرمة، ابتداء من هذه السنة ١٤٣٢هـ/٢٠١١م إن شاء الله، والذي يبلغ طوله حوالي ٦٠٠ كيل، وسوف يمر من خلال هذا الميقات، وسوف يحييه ويعيد له سابق تاريخه بإذن الله.

الإحرام

وفي يوم الخميس غرَّة الحجة سنة ٩٧ (٤ نوفمبر ١٨٨٠م) صباحًا حلقتُ ولم أحلق رأسي لاعتيادي ذلك، وقصَّيتُ[١] شاربي إلى أن بدت شفتي العُليا، وقلَمت أظفاري، وحلقتُ عانتي وإبطي، ثم اغتسلتُ ناويًا للإحرام، ثم ائتزرتُ بفوطة بيضاء كبيرة من فوط الحمَّام الاسلامبوليَّة، وارتديتُ بأخرى؛ أدخلتُ طرفها في المئزر وأدَرْتُها على جسمي بحيث سترتُ ظهري وصدري وكتفي إلى عنقي حتى انتهتْ، وتركتُ طرَفَها الآخر مسدولًا على كتفي من غير ربط، ورأسي مكشوف، وفي رجلي نعلان لا تستران إلَا نصف الأصابع، دائرهما مُنْحطٌّ عن الكعبين،[٢] ثم صلَيتُ ركعتين بنيَّة الإحرام في وقت تجوز فيه صلاة النافلة، بالفاتحة وقُل يا أيها الكافرون في الأولى، والفاتحة والإخلاص في الثانية، ثم قلتُ بلسان موافق للقلب: نويت الحج وأحرمتُ به لله تعالى.[٣] لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك. ثم بعد سكتة يسيرة قلتُ: لا شريك لك. ثلاث مرات متواليات، ثم صلَّيتُ على الرسول بقولي: اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد. ثم قلت: اللهم

---

[١] قصيتُ: قصصتُ.

[٢] دائرهما منْحط عن الكعبين: مؤخرة النعل أسفل الكعبين.

[٣] أركان الحج أربعة، ومن ترك شيئًا منها فقد بطل حجه، وهي: الإحرام، والوقوف بعرفة، وطواف الإفاضة، والسعي. وإذا خشي الحاج أو المعتمر من عائق يمنعه من إتمام نسكه، فله أن يشترط عند إحرامه بقوله: وإن حبسني حابس فمحلي (أي مكان تحللي من الإحرام) حيث حبستني. فإن حصل له ما يعيقه عن إتمام نسكه، مثل مرض ونحوه، فإنه يتحلل من إحرامه ولا شيء عليه.

إني أسألك رضاك والجنة، وأعوذ بك من سخطك والنار. وكررتُ هذه التلبية عند الركوب والنزول عن الدَّابة، وبعد كل صلاة.

وتحزَمتُ بكَمَرٍ[٤] على وسطي وإنْ كان مخيطًا لإباحته؛ لحفظ المعاملة،[٥] وتقلَّدتُ سيفي. ومن الواجب على الرجل المُحْرم التجرُّد عن المخيط إلَا لعذر، ويلزمه حينئذ كَفَّارة، فإنْ وضع رداءً، أو برنسًا،[٦] أو عباءة بدون إدخال يديه في أكمامها فلا تجب فدْيَة، وإلَّا وجَبَتْ. ويُسنُّ الإحرام في منسوج أبيض نظيف، كالفُوَط[٧] والقماش والحزام، ويجوز التختُّم.[٨]

وبعد نية الإحرام لا تجوز الحلاقة، ولا قصُّ الأظافر، ولا حكُّ الجسم بها،[٩] ولا ستر الرأس إلا بنحو شمسيَّة أو غطاء مَحَفَّة؛ بشرط أنْ لا يمسَّه شيء من ذلك عمدًا،[١٠] ولا التدهُّن ولا التعطُّر، ولا قتل القمل وما أشبهه، ولا قتل الصيد، ولا الإشارة إلى صيده، ولا الإشارة إلى منْ يقتله، ولا الجماع، ولا الجدال مع أحد.[١١]

ويفَرَّقُ في الإحرام بين ملبوس الرجل وملبوس المرأة، فالرجل يلبس المُحِيط أي الذي لا خياطة فيه ويحيط بجسمه، والمرأة تلبس المَخِيْط أي ثيابها المُخَيَّطة المعتادة نظيفة؛

---

[٤] الكَمَر: الحزام له جيوب كثيرة يلبسه الحاج ويحفظ فيه ماله ومتعلقاته الشخصية.

[٥] لحفظ المعاملة: الأشياء الخاصة مثل: النقود والنظَّارة والقلم وبعض الأوراق.

[٦] برنس: غطاء الرأس المنسدل على الأكتاف.

[٧] فوط: مفردها فُوطة. والفوطة: ثوب قصير غليظ يكون مئزرًا يُجلب من السِّند، وقيل: الفوطة ثوب من صوف، فلم يُحَلَّ بأكثر، وجمعها الفوط. قال أبو منصور: لم أسمع في شيء من كلا العرب في الفُوَط، قال: ورأيت بالكوفة أُزُرًا مخطَّطة يشتريها الجمَّالون والخدَم فيتَّزرون بها، الواحدة فوطة، قال: فلا أدري أعربيٌّ أم لا؟! (انظر: لسان العرب، ٧ / ٣٧٣، مادة: فوط.)

[٨] التختُّم: لبس الخاتم.

[٩] بل يجوز حكُّ الجسم. ومن الطرائف التي تُحكى عن الشعبي رحمه الله أنه سأله أحدهم هل يجوز للمحرم حكُّ جسمه؟ قال: نعم. قال: بقدر أيش؟ قال: حتى يبين العظم!

[١٠] الشمسيَّة: هي المظلَّة التي يحملها الحاج معه لوقايته من الشمس، خاصة إذا كان الحج في الصيف. والمقصد هو أنه لا يجوز في حال الإحرام تغطية الرأس مباشرة بعمامة أو طاقية أو طربوش أو غُترة أو شماغ ونحوها.

[١١] من فعل محظورًا من محظورات الإحرام جاهلًا أو ناسيًا أو مكرهًا فلا إثم عليه ولا فدية، ومنْ فعل المحظور لحاجة فلا بأس في ذلك وعليه الفدية، ومن فعل المحظور بلا عذر ولا حاجة فهو آثم وعليه الفدية.

لكن مع كشف وجهها وكفَّيْها وإنما لمنع الرجال إليها والافتتان بها تستر وجهها بقطعة مجدولة من الخوص كالمروحة المعروفة فيها خروق صغيرة للنظر منها، يربط أحد جانبيها على الجبهة، ويسدل باقيها على الوجه، بشرط أن لا تمسَّه، ومنهن من تخيط على الطرف المسدول نحو الشاش ويسترسل إلى الصدر كالبرقع.[١٢] ولا يجوز لهنَّ ستر أكفِّهنَّ بساتر ما. ويُستحب لهنَّ الخضاب قبل ليلة الإحرام. وإن كان في جسم المُحْرِم أذًى كجرح أو دُمَّل يحتاج إلى ربطه فلا مانع.

وعند مشاهدة الرَّكب يوم الإحرام مُحرمين جميعًا على هيأة واحدة صار الكبير كالصغير، والأمير كالحقير، متَجَرِّديْن عن الثياب وعن زخارف الدنيا، لابسين ثياب الإحرام كالأموات المؤتزرين بأكفانهم، فإنَّ الله — عز وجل — استدعى عباده إلى بيته الحرام، وشَرَع الغَسْلَ عند الإحرام؛ إشارة إلى التطهُّر ظاهرًا وباطنًا، وشَرَع خلع الثياب؛ إشعارًا بحالة الموتى، لأجل تخلِيهم عن الدنيا، وإقبالهم على باب ربهم وعبادته، بتركهم الرفاهية وحظوظ النفس، فإن التجرُد عن الثياب كتجرِد الميت عن ثيابه عند المغسل، ولبس ثياب الإحرام كلبس الأكفان، ليقدم العبد إلى باب مولاه خاضعًا ذليلًا غير مشتغل إلَّا به تعالى.

[١٢] كل ذلك من التكلُّف المنهي عنه. قالت عائشة رضي الله عنها: كان الرُّكبان يمرُّون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ مُحْرِمات، فإذا حاذوا بنا سدَلَتْ إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها، فإذا جاوزونا كشفناه. رواه أبو داود، وسكت عنه، وقد قال أبو داود في رسالته لأهل مكة: كل ما سكت عنه فهو صالح. وقال عنه الألباني: إسناده حسن في الشواهد (انظر: سنن أبي داود، ح١٨٣٣).

الحُكَماء (الأطباء)

وقد قلتُ برابغ في الحُكَمَاء:[1]

حكيمنا دواؤه واهٍ كنسيج العنكبوت إذا مريضًا عاده تركه حتى يموت

وعذره في ذلك أن الأجزخانة[2] والأحمال تُربط عند المسير ولا تُحلُّ إلا عند المبيت؛ يعني من بعد اثني عشر ساعة أو أكثر، فإذا مرِضَ شخص في مدة السير لم يجد ما يلجأ إليه غير الصبر والتحمُل إلى وقت المبيت، وهيهات أن يجتمع عليه؛ لأنه متى نزل الرَّكْبُ اشتغل الحكيم بمباشرة نصْب خيمته وجمْع أمتعته فيها وتحضير عشائه، وبذا يضيع زمن طويل، لا سيما إن صادف نزول الرَّكْب ليلًا، فإن الحكيم حينئذ يركن كغيره إلى النوم، ولا يلتفت إلى من يشكو مرضًا أو ألَمًا من القوم، إلا إذا كان هذا المريض من المعسكر، فيُجبر على أن يتوجه إليه مع كونه يتضجَّر.

---

[1] الحكماء: الأطباء.

[2] الأجزخانة: الصيدلية. والكلمة من التركية، وهي مركبة من أجزا: وهي الصيدلية، وخانة: وتعني المكان. والمقصود هنا هو صندوق الأدوية والإسعافات الأولية التي كان يحملها معه الطبيب المرافق للمحمل المصري.

الطريق إلى مكَّة

محطة بِئْر الهنْدي (القَضَيْمة)

وفي الساعة ٥ من يوم الخميس سار الرَّكبُ متوجهًا إلى مكَّة شرَّفها الله في فلاة مُتَّسعة أرضها سهلة ثابتة، وفي س٩ مرَّ بأعشاب وسنْط وحشائش ذكيَة الرائحة تنتشر منها عند مضغها رائحة النعناع أو السعتر،[1] وفي الساعة ١١ ق٤٥ استراح، وبعد ق٤٥ من الغروب سار، وفي الساعة ٦ استراح، وفي الساعة ٦ سار، وفي الساعة ٨ ق٥٠ مرَّ بمحطة بير الهنْدي أي القَضَيْمة،[2] وهي مكان يوجد به آبار وسوق يباع فيها اللحم والسمن والبطيخ والبلح، ولم يقف به الرَّكبُ؛ بل استمر سائرًا إلى الصباح.

---

[1] السعتر أو الزعتر: نبات طبي يؤكل ويشرب كالشاي، ويضاف إلى الخبز. والجزء الطبي المستعمل منه: الفروع المزهرة والأوراق. واسمه العلمي: Thymus vulgaris.

[2] القَضَيْمَة أو بئر الهندي: بلدة على ساحل البحر الأحمر، تبعد عن جدَّة شمالًا حوالي ١٣٠ كيلًا. والهندي: أسرة كريمة من قبيلة حرْب الذين يسكنون في تلك الديار.

محطة خُلَيْص

في يوم الجمعة ٢ الحجة سنة ٩٧هـ/٥ نوفمبر ١٨٨٠م، بعد مضي خمس عشرة دقيقة من الساعة الأولى من النهار نزل بمحل مُرمل به حشايش تُسمَّى بالدَّرن[١] تأكلها الجمال. وبلغت الحرارة وقت الظهر ٣١ درجة.

وفي س٦ ق٥٠ سار الرَّكْبُ، وفي س٨ تعسَّر السير لزيادة الرمال، وفي س٨ ق٤٥ مرَّ بعبل يصعب السير فيه ليلًا، لكثرته، مع عدم استقامة الطريق، وعلى يساره جبل، وفي س٩ مرَّ بآبار مجاورة للطريق وسط العبل، وفي س١٠ مرَّ بجبل على اليمين، وفي س١١ انتهى هذا العبل من جهة اليسار، في مكان ذي صخر من الصوَّان أزرق وأحمر، يتجه مُشرِّقًا مُقبلًا، وسهلت الأرض للمسير، وفي س١١ نزل بمحطة خُلَيْص[٢] في مكان على يساره نخيل وبها سوق وعِشَش للعُرْبَان.

---

[١] الدَّرن أو الدَّرين: نوع من العشب تأكله الإبل.

[٢] خُلَيْص: مدينة صغيرة تبعد عن مكَّة المكرمة شمالًا حوالي ٩٠ كيلًا. قال عنه الجزيري: ومنزل خُلَيْص فضاء واسع كثير الأنس، وبه حصن على جبل، ومزدرعات وخضر وبطيخ وبعض كرم، وأشجار ليمون، وبه الأغنام والحشيش لعلف الجمال. وخُلَيْص قال الأسدي: عين غزيرة كثيرة الماء، وعليها نخل كثير وبركة ومشارع ومسجد لرسول الله ﷺ. ومن قديد إلى عين ابن بُزيغ ثمانية أميال وشيءٌ، وهي خُلَيْص (الدُّررُ الفرَائِدُ المنظَّمة، ٢/١٤٥٨، بتصرف).

عُسْفَان

وبعد ق٤٥ من الغروب (ليلة السبت ٣ / ١٢ / ١٢٩٧هـ، الموافق ٥ / ١١ / ١٨٨٠م) سار الرَّكْبُ، وفي س٢ مرَّ بعبل بوادي عُسْفَان،[١] وفي س٤ مرَّ بقهوة العبد، وفي س٥ ق٤٥ استراح في مبدء بوغاز[٢] وادي عسفان، وفي س٦ ق٤٥ مرَّ الرَّكبُ منه هابطًا من محجر ضيِق عَسِر بين جبلين لا يمرُّ منه إلَّا الجمَل أو الجَمَلان، ومسافته ألف متر، وانتهى في الساعة الثامنة، وهناك آثار يقال لها: قصر جُحا. وفي س٨ وصل إلى محطة عُسفان أو بئر التَّفْلَة،[٣] وهو محل مُتَّسع محاط بجبال، به عِشش وسوق يباع بها اللحم والسَّمن والبلح والنارنج والمُسمَّى عندهم بالليم، وهناك ثلاث آبار عَذْبة المياه لا سيَّما بئر التَّفْلَة،

[١] وادي عسفان: بضم العين، وفي هذه الأيام تُلفظ بفتح العين. وهو واد يقع شمال مكَّة المكرمة، على بعد ٨٠ كيلًا. وَرَد في فضله عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: لما مرَّ رسول الله ﷺ بوادي عُسْفان حين حج قال: «يا أبا بكر أيُّ واد هذا؟» قال: وادي عُسْفان. قال: «لقد مرَّ به هود وصالح على بكرات حمر، خطمها الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النِّمار، يلبُّون، يحجون البيت العتيق». رواه أحمد. وقال عنه أحمد شاكر: إسناده ضعيف (انظر: مسند الإمام أحمد، ح٢٠٦٧). وقال عنه الألباني: ضعيف. وقال عنه ابن كثير في تفسيره: هذا حديث غريب من هذا الوجه (انظر: تفسير ابن كثير، ٢ / ٢٣١). وقال عنه في موضع آخر: إسناده حسن (انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ١ / ١٣٨). وقال المنذري: رواه أحمد والبيهقي كلاهما من رواية زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام، ولا بأس بحديثهما في المتابعات، وقد احتج بهما ابن خزيمة وغيره (انظر: الترغيب والترهيب، ٢ / ١١٧). وقال الهيثمي: في إسناده زمعة بن صالح وفيه كلام وقد وُثِّق (انظر: مجمع الزوائد، ٣ / ٢٢٣).

[٢] بوغاز: من التركية، وتعني: الثغر، المضيق، النفق.

[٣] عسفان أو بئر التَّفلة: عسفان بلدة صغيرة تبعد عن مكَّة المكرمة شمالاً حوالي ٨٠ كيلًا، وفيها بئر التَّفلة، الذي يقال: إن الرسول ﷺ قد تفل في هذا البئر فتبارك؛ لكنني لم أجد دليلًا صحيحًا صريحًا يؤكد هذه

فإن ماءها كماء النيل، ويقال: إنَّ ماءها كان مُرًّا، فتَفَل فيه الرسول عليه السلام عند مروره هناك فحلا[٤] إلى وقتنا هذا، بخلاف مياه الأخريين فإنها ثقيلة.

الرواية إلى الآن. والله أعلم. ولا عبرة بما يقوله الناس أو يفعلونه إن لم يؤيده الدليل الشرعي الصحيح الصريح كما هو معلوم.

[٤] فَحَلا: أي زالت مرارته فصار حُلوًا. وقد يكون ذلك عند نزول الأمطار، أما في غير ذلك فإن أهل منطقة عُسفان قد أكَّدوا أن ماء هذا البئر مالح. ورحلة الحج هذه كانت في شتاء عام ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م؛ مما يغلب على ظني أن هذه المنطقة قد مُطرت قبل وصول المحمل المصري، فزالت مرارة هذا البئر، الذي جعل محمد صادق باشا يُصدِّق هذه الرواية. والله أعلم.

وادي فاطمة – الجُمُوم

وفي يوم السبت ٣ منه (٦ نوفمبر) بلغت الحرارة وقت الزوال ٣١ درجة. وفي س٨ ق٤٠ سار، وفي س٩ ق٤٠ مرَّ بكيمان[١] وزلَط أسود،[٢] وفي س١٠ مرَّ بسهل به حشائش، وفي س١١ استراح بجوار سبيل الجَوْخِي؛[٣] وهو مبني من قديم، على يسار الطريق، إلَّا أنه الآن خرب، وكان يُملأ من بئر الباشا الآتية، وبعد نصف ساعة من الغروب سار، وفي س٤ مرَّ على يسار بئر الباشا، وفي س٥ ق٤٥ استراح، وفي س٦ ق١٥ سار، وفي س٨ ق٣٠ مرَّ بين الشجر المعروف بأم غيلان الذي هو ممتد بطول الطريق، وفي الساعة ١١ ق٤٥ مرَّ بوادي فاطمة،[٤] وفي الساعة ١٢ نزل به في محل مُتَّسع يُسمَّى بالجُمُوم،[٥] محاط بجبال على بعد، وبه سوق يباع بها اللحم والخضار والبطيخ والخبز والفطير، وشرقيُّه بساتين من الموز والليمون، وهناك عين عليها خرزة بئر مبينة، عمقها متر ونصف، ماؤها عَذْب متوسطة الحرارة، جارية من البئر تحت الأرض، بواسطة قناة إلى أرض منخفضة بها بعض المزارع، وبجوار البئر تلٌّ مرتفع. وبلغت الحرارة وقت الزوال ٢٩ درجة.

---

[١] كيمان: جمع كومة وهي الكثبان الرملية الصغيرة.

[٢] زلط أسود: حجارة سوداء.

[٣] سبيل الجَوْخي: قال عنه الجزيري: واستمر (المحمل المصري) سائرًا إلى وادي الزَّاهر عند سبيل عبد الباسط المعروف بسبيل الجوخي. والمسير إليه من بطن مرَّ الظَّهران، ويُسمَّى الوادي الزَّاهر. يسيرون في محاطب وفضاء، مضيق وعر بين جبلين، ثم القرية بعده، أي الجموم (الدُّرر الفرائد المنظَّمة، ٢ / ١٤٦٥، بتصرف).

[٤] وادي فاطمة: هو مَرُّ الظَّهران، واد كثير العيون والبساتين، يبعد عن مكَّة شمالًا حوالي ٤٠ كيلًا، وبه بلدة الجموم.

[٥] الجموم: بلدة في وادي فاطمة.

على حدود الحرم

وفي يوم الأحد ٤ منه (٧ نوفمبر) استراح الرَّكبُ، وفي ليلة الإثنين س٣ ق٣٠ سار، وفي س٤ مرَّ على يسار جبل، وفي س٤ ق١٠ صار الطريق بين جبلين، وفي س٦ ق٧ استراح عند ضريح السيدة ميمونة (رضي الله عنها)،[١] إحدى زوجات الرسول ﷺ ورضي عنهن؛ وهو على يمين الطريق، وفي س٨ ق١٥ سار، وفي س١١ ق٥ وصل إلى العُمرة؛[٢] وهو محل مبني على يمين الطريق، به مُصلًّى يُصلِّي به مَن يُحرِم بالعمرة ركعتين لله تعالى، ويدعو ويلبِّي ويستديم التلبية على قدر الإمكان إلى أن يدخل مكَّة. وبجانبها بركة كبيرة من الأمطار، ومن بعد العُمرة بخمسين مترًا حائط مرتفع بقدر ستة أمتار، عرضها خمسة أمتار في سُمك اثنين، وعليها ثلاث قباب صغار، يقابلها على يسار الطريق حائط أخرى مثلها، اتساع الطريق بينهما أربعون مترًا، وهذا البناء علامات بين الحِلِّ والحَرم، ولا بد للحاج

[١] هذا المكان يُسمَّى: سرف. وهو ماء شمال مكَّة المكرمة، ليس ببعيد عنها، له ذكر في السنُّة النبويَّة. بنى الرسول ﷺ فيه بأم المؤمنين ميمونة بن الحارث رضي الله عنها في ذي القعدة سنة ٧هـ/٦٢٩م، وقدَّر الله عز وجل أن تكون وفاتها وقبرها رضي الله عنها بسرف حيث بنَى بها، عام ٥١هـ/٦٧١م. وميمونة هي خالة عبد الله بن عباس رضي الله عنهم جميعًا.

[٢] العمرة: موضع في شمال مكَّة المكرمة على بعد ٧ كيلات، على طريق الهجرة السريع، ويعتبر خارج حدود الحرم، ومنه يُهل أهل مكَّة بالعمرة. بُني فيه مسجد مرَّ بمراحل عديدة في بنائه على مختلف عهود الدولة الإسلامية، وآخرها العهد السعودي، حيث أمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد رحمه الله بإعادة بنائه على أحدث الطرز المعمارية الإسلامية. ويُسمَّى مسجد التنعيم، ومسجد العمرة، ومسجد عائشة رضي الله عنها، لأنها أحرمت من هذا المكان بالعمرة في حجة الوداع سنة ١٠هـ/٦٣٢م.

الآتي من هذا الطريق أن يمرَّ بينهما قبل دخوله مكَّة،[٣] وهذا المكان يُسمَّى بالشهداء.[٤] ولا يجوز الصيد بين حدود العمرة ومكَّة؛ لأن ذلك معدود من الحرم.

[٣] كلمة «لا بد» لم أفهمها! هل لأنه لا يوجد طريق غيره في ذلك المكان وذلك الزمان؟! أم أن ذلك من باب العبادة؟! لا أدري حقيقة!

[٤] الشهداء: وادي الشهداء. ويسمَّى الآن: الزَّاهر.

الجَرول – الشيخ محمود

في يوم الإثنين ٥ الحجة (١٢٩٧هـ الموافق ٨ نوفمبر ١٨٨٠م) في الساعة الأولى وَكَبَ المَحْمَل، وسار بين جبلين إلى أن وصل إلى محل يُسمَّى الجَرْول[١] بعد ق٤٠، فأناخ هناك بجوار آبار عذْبة بعيدة عن مكَّة بأربعين دقيقة؛ وذلك للخوف من وباء الخيل الذي كان حاصلًا بمكَّة؛ مع كون هذا المكان أعدل هواء من غيره، ومنه إلى المكان المُسمَّى بالشيخ محمود عشرون دقيقة، وهو ابتداء مكَّة المكرمة.

---

[١] الجَرْوَل: الآن حيٌّ من أحياء مكَّة المكرمة. وجاء في لسان العرب: الجَرَلُ، بالتحريك: الحجارة وكذلك الجَرْول، وقيل: الحجارة مع الشجر، والواو للإلحاق بجعفر، واحدتها جرولة، وقيل: هي من الحجارة ملء كفِّ الرجل إلى ما أطاق أن يحمل. وقيل: الجراول الحجارة، واحدتها جرولة. والجَرْوَل والجُرْوَل: موضع من الجبل كثيرُ الحجارة. والجرول: ما سال به الماء من الحجارة حتى تراه مُدَلَّكًا من سيل الماء به في بطن الوادي (انظر: لسان العرب: ١١/ ١٠٨، مادة: جرل).

مكَّة المكرَّمة

السُّنَّة لداخل مكَّة الغُسْل إنْ تيَسَّر وإلَّا فالوضوء، وأن يدخل من كَدَاء ويمرَّ من الحُجون؛ وهو اسم لطريق بين جبلين فيه صعود، على يساره مجزرة يهبط منه إلى المعلاة، وهي مقبرة مكَّة، يفصل بينهما جداران، فيمرُّ منهما ويدخل إلى المقبرة التي على اليسار ويتوجه إلى آخرها، فيزور عن يساره ضريح السيدة خديجة، أول زوجات المصطفى ﷺ وأول من آمن به على الإطلاق رضي الله عنها، ويزور عن يمينه ضريح السيدة آمنة أم الرسول عليه الصلاة والسلام،[1] وبعدهما قُبَّتان،[2] إحداهما مبنيَّة على ضريح السيد عبد المطلب وأبيه هاشم جدَّيِّ الرسول ﷺ، والثانية مبنيَّة على ضريح عمه أبي طالب،[3] الذي هو الإمام علي

---

[1] ذكر أهل السير والمغازي أن آمنة بنت وهب توفيت ودفنت بالأبواء، وهي راجعة من المدينة، وعمر الرسول ﷺ في وقتها ست سنوات، وقد اندرس القبر فلا أحد يعلم مكانه اليوم على وجه التحديد والله أعلم، والآن الأبواء بلدة عامرة، وهي ليست ببعيدة عن مدينة مستورة. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: زار النبي ﷺ قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، فقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور، فإنها تذكِّر الموت». رواه مسلم (انظر: صحيح مسلم، ح٩٧٦).

[2] عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع تمثالًا إلَّا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلَّا سوَّيته. وفي رواية: ولا صورة إلَّا طمستها. رواه مسلم (انظر: صحيح مسلم، ح٩٦٩). ونهى الرسول ﷺ عن تجصيص القبور والبناء عليها، ونهى عن الجلوس عليها أو أن توطأ، ونهى عن الصلاة إليها (انظر: صحيح مسلم، ح٩٧٠، ح٩٧١، ح٩٧٢).

[3] قال الشيخ حمد الجاسر رحمه الله في محاضرة ألقاها في جامعة أم القرى بمكَّة في ١٣/٦/١٤٠٢هـ الموافق لعام ١٩٨٢م بعنوان «الآثار الإسلامية في مكَّة المشرفة»: نص المتقدمون من مؤرخي مكَّة على

رضي الله عنه. وعند خروج الزائر من هذه المقبرة يجد على يساره قبر سيدي عبد الرحمن بن أبي بكر[٤] رضي الله عنه، وقبر محمد جان النَّقشبندي.[٥] وقد رسمتُ منظر هذه المقبرة بالفطوغرافيا.[٦]

ثم يخرج منها ويدخل في المقبرة التي أمامها المُسمَّاة بشعبة النور، فيزور قبور جملة من الصحابة، وبعد عشر دقائق يبتدأ[٧] في دخول سوق مكَّة المكرمة، وبعد عشر دقائق أخرى يصل إلى بيت الله الحرام.[٨]

عدم معرفة قبر أحد من الصحابة إلَّا قبر ميمونة زوج النبي ﷺ في سرف خارج مكَّة بقرب التنعيم. قال الفاسي: ولا أعلم في مكَّة، ولا فيما قرب منها قبر أحد ممن صحب النبي ﷺ سوى قبر ميمونة، لأن الخلف يأثره عن السلف. وقال ابن ظهيرة في الجامع اللطيف: عن مقبرة المعلاة: لما حوته من سادات الصحابة والتابعين، وكبار العلماء والصالحين، وإن لم يعرف قبر أحد من الصحابة تحقيقًا الآن. ا.هـ. فقبر أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها كان مجهولًا لدى مؤرخي مكَّة حتى القرن الثامن الهجري، أي طيلة سبعة قرون بل تزيد، ثم أصبح معروفًا محدد المكان، في القرون الخمسة الماضية حتى يومنا هذا، بعد أن رأى أحد العارفين في المنام كأن نورًا ينبعث من شعبة النور، في مقبرة المعلاة، ولما علم أمير مكَّة في ذلك العهد بخبر تلك الرؤيا أمر ببناء قُبَّة فوق المكان الذي رأى ذلك العارف أن النور ينبعث منه، جازمًا ذلك الأمير أن ذلك المكان ما هو سوى قبر خديجة رضي الله عنها. ويورد المرجاني في كتاب «بهجة النفوس والأسرار» الخبرَ باختصار ويعقب عليه: ولا كان ينبغي تعيينه على الأمر المجهول. ا.هـ. ويدور الزمان فيصبح المكان وما حوله مقبرة للعظماء من أهل مكَّة؛ فيقبر فيه في القرن الحادي عشر في سنة ١٠١٠هـ/١٦٠١م عبد المطلب بن حسن بن أبي نُمي، ثم في سنة ١٠١٢هـ/١٦٠٣م يموت أحد أمراء مكَّة ممن عرف بالظلم والجبروت، وهو أبو طالب بن حسن بن أبي نُمي، وتبنى فوقه قبَّة تعرف بقبَّة أبي طالب، بجوار قُبَّة خديجة الخرافية وقُبَّة عبد المطلب، ويدور الزمان فيُجهل أمر صاحبيِّ القبَّة، فتنشأ خرافة قُبَّة عبد المطلب جد الرسول الذي مات في زمن الفترة، وقُبَّة أبي طالب بن عبد المطلب عم النبي عليه الصلاة والسلام، الذي مات مشركًا بنص القرآن الكريم. ويُدوِّن التاريخ تلك الخرافات الثلاث باعتبارها حقائق تاريخية، وتتناقلها الأجيال إلى يومنا هذا. ا.هـ.

[٤] عبد الرحمن بن أبي بكر الصِّدِّيق، توفي بالقرب من مكَّة بالصفاح، على طريق الحاج العراقي، فحُمل ودفن بمكَّة (انظر: سير أعلام النبلاء، ٢ / ٤٧١).

[٥] محمد جان النقشبندي الهندي، قدم إلى مكَّة عام ١٢٣٢هـ/١٨١٧م وجاور بها إلى أن توفي عام ١٢٦٧هـ/١٨٥١م. رحمة الله. وله ذرية لا زالت بمكَّة (انظر: عوائل مكة عبر العصور، عبد الله الغازي المكي، تحقيق: د. محمد الحبيب الهيلة).

[٦] الفطوغرافيا: آلة التصوير (الكاميرا).

وعند دخول مكَّة يقول: اللهم إن هذا البلد بلدك، والبيت بيتك، جئتُ أطلب رحمتك، مُتَّبِعًا لأمرك، راضيًا بقدرك. اللهم إني أسألك مسألة المضطر إليك، المشفق من عذابك، أن تستقبلني بعفوك، وأن تتجاوز عني برحمتك، وأن تدخلني الجنة. ثم يبادر إلى دخول بيت الله الحرام قبل كل شيء.

---

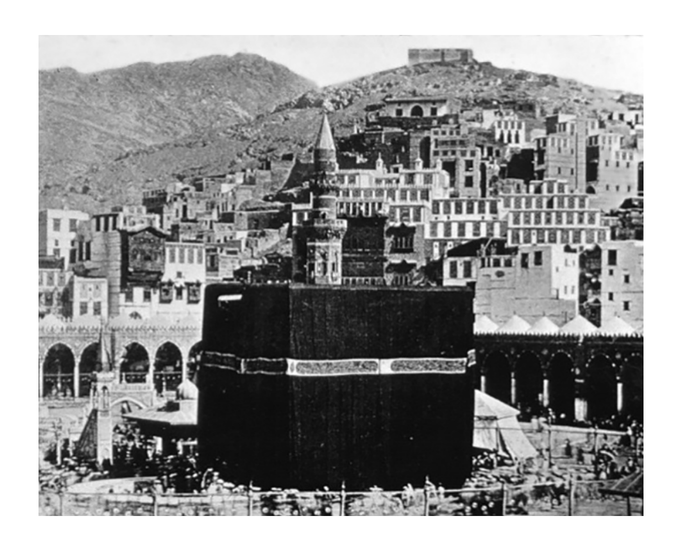
[٧] يبتدأ: يبتدئ.

[٨] بيت الله الحرام: جاء في فضله عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «المسجد الأقصى». قلتُ: كم بينهما؟ قال «أربعون سنة، وأينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد». وفي حديث أبي كامل: «ثم حيثما أدركتك الصلاة فصله، فإنه مسجد» رواه مسلم (انظر: صحيح مسلم، ح٥٢٠). وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تُشَّد الرحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى» رواه البخاري (انظر: صحيح البخاري، ح١١٣٢). وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلَّا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه». رواه ابن ماجه وصححه الألباني (انظر: سنن ابن ماجه، ح١٤٠٦).

طواف القدوم

وصف الكعبة المشرفة

وعند وصوله إلى باب السلام ومشاهدة الحرم يقول: اللهم إنَّ هذا حرمُك وحرمُ رسولك فحَرِّم لحمي ودمي على النار، اللهم آمنِّي من عذابك يوم تبعث عبادك. ثم يدخل برجله اليمنى ويقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، اللهم صل على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك.



صورة الكعبة المشرفة.

وإذا وقع بصره على البيت، وهو موضوع في وسط الحرم كالمصباح يقول: اللهم زد هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا ومهابة وتكريمًا. ويدعو الله بما شاء بالقلب مع الخشوع والتذلل، ولا يزاحم أحدًا. ويتجه إلى باب بني شيبة وهو مشتمل على عمودين تعلوهما قنْطرة[1] أمام مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويمر منه قائلًا: رب أدخلني مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطانًا نصيرًا، وقل جاء الحق وزهق الباطل إنَّ الباطل كان زهوقًا. ويتوجه إلى الجهة القبْليَّة[2] من الكعبة ويقف ما بين الركن اليماني والحجر الأسود، وينوي طواف القدوم سبعة أشواط، ويتوجه إلى الركن الذي فيه الحجر الأسود داعيًا الله تعالى، فيستلم الحجرَ ويُقبِّلُهُ؛ وهو حجر أسود به تشقق، مصون في صندوق من الفضة، مبني في الركن الشرقي من الكعبة، وفي هذا الصندوق فتحة مستديرة قطرها سبعة وعشرون سانتي[3] (سم)؛ أعني شبرًا وثلثًا، يُرى منها الحجر ويستلم، وقد صار ذا شكل مقعَّر كطاسة[4] الشرب. وكيفية استلامه أن يأتي الشخص إليه فيضع يده عليه ويقبِّله مكبِّرًا، فإن لم يمكن القرب منه للازدحام وقف محاذيًا له بُرْهة، ثم يشير إليه بيده مع التكبير ويُقبِّلها،[5] ثم يطوف حول البيت من شرقية بأن يمر أمام بابه خارجًا عن الشاذروان مارًّا من وراء الحطيم.

فأما الشاذروان، فهو الجدار المحيط بالبيت البارز من أسفله كدرجة سُلَّم، عرضه من جهة عشرون سانتي (سم)، ومن جهة أخرى أربعون، وارتفاعه نحو عشرين من جهة، وثلاثين من أخرى.

وأما الحطيم، فهو بناء مستدير أمام الجهة البحرية[6] من البيت على شكل نصف دائرة، ارتفاعه متر وسُمكه متر ونصف، مغلَّف بالرُّخام، أحد طرفيه محاذ للركن الشامي

---

[1] قنطرة: جسر صغير لعبور المشاة.

[2] الجهة القبلية: يقصد الجهة الجنوبية الشرقية.

[3] سانتي: وحدة القياس المعروفة سنتيمتر، واختصارها: سم.

[4] طاسة: أو طاس، وهو ماعون مقعَّر دائري يستخدم في الشرب. وأحيانًا يطلقُ على القدر الصغير (جمعها قُدور): طاسة. والخوذة التي يلبسها المقاتل على رأسه تُسمَّى قديمًا: طاسة. ومنها يقال له: مطوَّس. وجاء في لسان العرب: تطوست الجارية: تزينَّت. ويقال للشيء الحسن: إنه لَمُطَوَّسٌ (انظر: لسان العرب، ٦/ ١٢٧، مادة: طوس).

[5] يكون ذلك عند استلام الحجر باليد؛ لما روى نافع قال: رأيتُ ابن عمر رضي الله عنه يستلم الحجر بيده، ثم قبَّل يده وقال: ما تركته منذ رأيت رسول الله ﷺ يفعله. رواه مسلم (انظر: صحيح مسلم، ح١٢٦٨).

والآخر للغربي، مسافة ما بين كل طرف منهما وبين الركن متران وخمسة وثلاثون سانتي (سم)، فهما منفذان متقابلان يمر منهما إلى حِجر إسماعيل عليه السلام، ومسافة ما بين طرفي نصف الدايرة من داخل ثمانية أمتار. وأما نفس حِجْر إسماعيل، فهو المحل المتسع المنحصر بين ضلع الكعبة البحري وبين الحطيم، ومسافة ما بين وسط هذا الضلع ووسط تجويف الحطيم من داخل ثمانية أمتار وأربعة وأربعون سانتي (سم)،[٧] وفي أعلى منتصف هذا الضلع من الكعبة الميزاب وهو مصوغ من الذهب.[٨]

ووراء الحطيم بمسافة اثني عشر مترًا حدُّ المطاف المستدير حول الكعبة، وفي حدود هذا المطاف أعمدة من حديد مزخرفة الشكل متصل بعضها ببعض بواسطة قضبان تُعلَّق فيها قناديل البلَور للاستصباح ليلًا، فيشترط أن لا يطاف خارجًا عنها.[٩] ويتم دور الطواف بالوصول إلى أمام الحجر الأسود، وعند ذلك يقف الطائف بُرهة مستقبلًا له ومكبِّرًا، ثم يمسُّه بيده إن أمكن وإلَا فيشير إليه مع التكبير، وحينئذ يتم أول شوط، ويستمر على ذلك إلى تمام السبعة الأشواط، والمطوِّف[١٠] معه يلقِّنه دعاء كل شوط، فإن

---

[٦] الجهة البحرية: يقصد الجهة الشمالية.

[٧] الحطيم هو حِجْر إسماعيل، وإن كان الرحَّالة — كما رأينا — يطلق اسم الحطيم على الجدار، وحجر إسماعيل على المكان المحصور بين الكعبة المشرفة والجدار؛ وهي ستة أذرع وشبر أنقصتها قريش من الجانب الشمالي عندما بنت الكعبة. (انظر: تاريخ الكعبة المعظمة، حسين باسلامه، ص٢٠١). قالت عائشة رضي الله عنها: سألت رسول الله ﷺ عن الجَدْر أَمِنَ البيت هو؟ قال: «نعم.» قلتُ: فلِم لَم يُدخلوه في البيت؟ قال: «إن قومك قصرت بهم النفقة.» قلتُ: فما شأن بابه مرتفعًا؟ قال: «فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا، ويمنعوا من شاءوا، ولولا أن قومك حديث عهدهم في الجاهلية، فأخاف أن تنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجَدْر في البيت، وأن ألزق بابه بالأرض.» رواه مسلم (انظر: صحيح مسلم، ح١٣٣٣). لذلك لا يجوز الطواف من خلاله. قال ابن عباس رضي الله عنه: من طاف بالبيت فليطف من وراء الحِجْر. رواه البخاري (انظر: صحيح البخاري، ح٣٦٣٥).

[٨] أول من وضع ميزانًا للكعبة المشرفة قريش حين بنتها في سنة ٣٥ من مولد النبي ﷺ، وكان مصبه في حجر إسماعيل. وكلما تلف ميزاب تسابق حكام المسلمين في وضع واحد مكانه، إلى أن جاء عهد السلطان العثماني عبد المجيد، الذي أمر بصنع ميزاب جديد من الذهب الخالص، أرسله من أستنبول مع الحاج رضا باشا عام ١٢٧٦هـ/١٨٦٠م ويزن حوالي ٥٠ رطلًا (انظر: تاريخ الكعبة المعظمة، حسين باسلامه، ص٢٣١). وتم تجديد هذا الميزاب في عام ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

[٩] هذا الكلام غير صحيح، فالصحن كله يجوز الطواف فيه.

[١٠] يعتقد أن صناعة التطويف قد ابتدعت في عهد المماليك في نهاية القرن التاسع الهجري. قال أحمد السباعي: ولعل صناعة التطويف ابتدعت في هذا العهد؛ لأن الشراكسة بحكم جهلهم اللغة العربية، وميلهم

لم يكن مطوِّف ولم يكن حافظًا للأدعية قال في جميع الأشواط: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم.

ثم بعد مسِّ الحجر الأسود في انتهاء الشوط السابع يأتي إلى أمام الملتزم؛ وهو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود، فيدعو الله بما شاء.

ثم يتوجه إلى مقام سيدنا إبراهيم المقابل لباب الكعبة، البعيد عنه بنحو اثني عشر مترًا، داخله الحجر الأسعد الذي كان يقف عليه سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند بناء الكعبة، وبه أثر قدميه، فيصلي ركعتي الطواف[١١] ويدعو الله.

إلى الأبهة والبذل، كانوا يفضلون أن يعتمدوا على من يخدمهم ويدلهم على مشاعر الحج ويتلو أمامهم أدعيته، حيث حج قايتباي في عام ٨٨٤هـ/١٤٨٠م وكان القاضي إبراهيم بن ظهيرة قد تقدم لتطويفه وتلقينه الأدعية، ولم يذكر المؤرخون مطوِّفا قبل القاضي كان يلقن الحجاج في مكَّة فيما قرأته من تواريخ مكَّة (تاريخ مكَّة، أحمد السباعي، ١/٣٨٣، بتصرف). وبعد انتشار العلم — ولله الحمد — في زمننا هذا، أعتقد أن الناس في غنى عن هذه الطائفة. قال الشيخ عبد الله بن جبرين رحمه الله: لا حاجة إلى الملقنين، وهم هؤلاء الذين يقولون: نلقِّنك نطوِّفك. وذلك لأنهم يقطعون الأدعية حتى لا يكون لها معنى، وقد تتحرف أي يحرفونها، ويخطئون في لفظها، ثم إن تقطيعها لا يكون له وقعٌ في النفس، وإنما عليك أن تدعو بما تحفظ ولو جملة واحدة، وإن اقتصرت على الذكر: سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا إله إلا الله ... إلخ. كفاك ذلك (بعض المخالفات المنتشرة بين الحجاج والمعتمرين، ص٢٢، بتصرف واختصار).

[١١] قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: قدم النبي ﷺ فطاف بالبيت سبعًا، وصلَّى خلف المقام ركعتين وطاف بين الصفا والمروة، وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة. رواه البخاري (انظر: صحيح البخاري، ح٣٨٧).

الشرب من ماء زمزم

ويتوجه إلى بئر زمزم فيشرب من مائها[١] ويتضلَّع،[٢] وهذه البئر بِقِبْلي المقام[٣] بحيث إن الزاوية البحرية الغربية منها محاذية للحجر الأسود على بعد ثمانية عشر مترًا منه، طعم مائها قيسوني[٤] تعقبه مرارة يسيرة، عمقها اثنا عشر مترًا.

[١] ورد في فضل ماء زمزم، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ماء زمزم لما شُرِب له». رواه ابن ماجه وصححه الألباني (انظر: سنن ابن ماجه، ح٣٠٦٢). وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «زمزم طعام طُعْم، وشفاء سُقْم». رواه البزار بإسناد صحيح (انظر: الترغيب والترهيب، ح١٨١٤). وعن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: كنت عند ابن عباس جالسًا، فجاءه رجل فقال من أين جئت؟ قال: من زمزم. قال: فشربت منها كما ينبغي؟ قال: وكيف؟ قال: إذا شربت منها فاستقبل القبلة، واذكر اسم الله، وتنفس ثلاثًا، وتضلَّع منها، فإذا فرغت فاحمد الله عز وجل، فإنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلَّعون من زمزم». رواه ابن ماجه وضعفه الألباني (انظر: سنن ابن ماجه، ح٣٠٦١). وبعض العلماء قد خالفوا الألباني في حكمه على هذا الحديث، فالحاكم قال عنه في المستدرك على الصحيحين: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وابن الملقن والعيني قالا عنه في شرحيهما على صحيح البخاري: إسناده جيد. والله أعلم.

[٢] يتضلَّع: أي يشرب حتى تنتفخ أضلاعه من الشرب.

[٣] بقبلي المقام: جنوب شرق مقام إبراهيم.

[٤] طعم مائها قيسوني: أي طعم مائها مثل طعم الآبار الإرتوازية.

السعي بين الصَّفا والمروة

ثم يخرج من الحرم من الباب المسمَّى بباب الصَّفا إلى الشارع، ومنه إلى الصَّفا بالجهة الأخرى من الشارع، وهو مكان شبيه بالُمصلَّى، مقابل للحرم، طوله ستة أمتار، وعرضه ثلاثة، مرتفع عن الأرض بنحو مترين، يصعد إليه على سلَّم، فمن أتى إليه صعد على السلَّم واستقبل الحرم[١] ونوى السعي سبعة أشواط،[٢] ثم يتوجه منه إلى المروة داعيًا بما يلقِّنه المطوِّف، في شارع عرضه تارة عشرة أمتار، وتارة اثنا عشر مترًا، ماشيًا كالعادة قدر خمسة وسبعين مترًا، حتى يحاذي الميلين الأخضرين أي العلمين؛ وهما علامتان خضراوتان، إحداهما على الحائط اليمين من الشارع، والأخرى حذاها يسارًا بجوار باب الحرم المسمَّى بباب البغلة، وعند ذلك يسعى مهرولًا كأنه يسعى بدون نعال على رمل وقت اشتداد الحرَّ، ويداه قائمتان بجانبيه، حتى يأتي بين الميلين الآخرين اللذين إحداهما بباب الحرم، المسمَّى بباب علي، والآخر مقابل له في الحائط الآخر من الطريق، ومسافة الهرولة سبعون مترًا. ثم يمشي مشيه المعتاد قبل الهرولة حتى يصل إلى المروة بعد مائتين وستين مترًا تقريبًا، فالمسافة كلها نحو أربعمائة وخمسة أمتار. والمروة محل مرتفع له سلَّم كالصَّفا. ثم بعد الدعاء هناك يعود ثانيًا إلى الصَّفا ويهرول ما بين العلمين كما فعل أولًا حتى يصل إلى الصَّفا، وهكذا سبعة أشواط، وبهذا تمَّ السعي والطواف.[٣] وهذا لمن

---

[١] أي يستقبل القبلة وهي الكعبة المشرفة.

[٢] السعي: أحد أركان الحج الأربعة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهِ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٥٨).

[٣] كان المسعى خارج المسجد الحرام، وفي عهد الملك سعود بن عبد العزيز رحمة الله تمَّ تعميره وربطه بالمسجد عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م؛ لكن مع ازدياد عدد الحجاج والمعتمرين والزوَّار، أراد خادم الحرمين

أحرم بالحج،[٤] ويبقى بإحرامه، ثم يتوجه لقضاء شئونه، والبحث عن مسكنه، ويطوف حول البيت كلَّما أراد، إلى أن يتوجه إلى عرفات.

الشريفين الملك عبد الله في عام ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م أن يقوم بتوسعته ضعف السابق، فحصل جدل كبير بين العلماء حول مشروعية ذلك، وكان الخلاف يدور حول العرض الحقيقي للمسعى، إذ قد تكون هذه التوسعة خارج المسار الصحيح للسعي، وبعد الاستنارة بأقوال المؤرخين والباحثين، وشهادة الشهود من أهل مكة من كبار السِّن، حسم الخلاف لصالح التوسعة، وهي أن قاعدة جبل الصَّفا المتصل بجبل أبي قبيس، وقاعدة جبل المروة المتصل بجبل قعيقعان أكبر من التوسعة السعودية الأولى، وأن توسعة الملك عبد الله في المساحة المسموح بها شرعًا إن شاء الله، فتراجع بعض العلماء الذين كانوا يعارضون هذه التوسعة ولله الحمد، وتوقف بعضهم، والبعض الآخر — وهم قليل — بقي على موقفه الأول وهو المنع، ومضى الملك عبد الله في التوسعة، وهي ما نراه اليوم ولله الحمد.

[٤] أي المفرد. وللفائدة، فإن أنساك الحج ثلاثة وهي: (١) التمتع: وهو الإحرام بالعمرة في أشهر الحج، فيقول المحرم في إحرامه: لبيك اللهم عمرة متمتعًا بها إلى الحج. وبعد أن يؤدي العمرة يتحلل من إحرامه، وفي اليوم الثامن من ذي الحجة يحرم بالحج من مكانه. (٢) القِران: وهو الإحرام بالعمرة والحج معًا، فيقول المحرم عند إحرامه: لبيك اللهم عمرة وحجًا. (٣) الإفراد: وهو الإحرام بالحج فقط، فيقول المحرم عند إحرامه: لبيك اللهم حجًّا. ولكل نسك أحكامه.

وصف المسجد الحرام

الحرم الشريف في وسط مكَّة باتساع منيف، طوله مشرِّقًا مغرِّبًا نحو ١٩٢ مترًا، وعرضه ١٣٢ مترًا، زوايا أضلعه ليس قائمة، في دوائره الأربع قباب على أعمدة من المرمر والحجر النحت، بناؤه متين، عليه سبع مآذن، في وسطه بيت الله الحرام، أي الكعبة؛ مربع الشكل تقريبًا، طوله اثنا عشر مترًا في عشرة أمتار وعشرة سانتي (سم) فضلًا عن عرض الشاذروان، وارتفاعه نحو خمسة عشر مترًا، فالضلع الذي به الملتزم وباب الكعبة وهو الجهة الشرقية مائل إلى الشمال نحو عشرين درجة، وطوله اثنا عشر مترًا؛ وذلك مخالف لما ذكره المؤلف «ورجرس» في تاريخه، نقلًا عن المؤلف «برخارض» من أن باب الكعبة في الجهة الشمالية! والحال أنه كما ذكرناه.

والضلع الذي به حجر إسماعيل وبأعلاه الميزاب وهو الشمالي، مائل للغرب نحو العشرين درجة، وطوله عشرة أمتار، ويواجهه من البلاد: المدينة المنورة، والشام، وما وراءهما من البلاد لجهة الشمال. وعلى هذا يكون ركن الحجر الأسود ما بين الشرقي والشرقي الجنوبي تقريبًا، يواجهه من البلاد: الجزء الجنوبي من بلاد الحجاز لغاية عدن، وبلاد هرار،[1] ومدغشقر، وأستراليا، وجنوب الهند، والصين، وجميع صوماترا[2] وبورينو[3] وما حولها من الجزائر، بحيث إن من صلَّى في هذه البلاد تكون قبلته هذا الركن.

[1] بلاد هرار: إقليم يقع في جنوب شرق دولة أثيوبيا (الحبشة) وعاصمته مدينة هرر، التي اشتهرت بأفضل وأجود أنواع القهوة المعروفة بالهرري.

[2] صوماترا: سومطرة، وهي إحدى جزر الأرخبيل الأندونيسي في شرق آسيا.

[3] بورنيو: هي جزيرة بورنيو في شرق آسيا، ثالث أكبر جزيرة في العالم، وهي مقسومة بين ماليزيا وأندونيسيا وسلطنة بروناي، والأخيرة كلها توجد في هذه الجزيرة.

وركن حِجر إسماعيل، أي الركن الشامي، ويسمَّى بالعراقي أيضًا، يكون ما بين الشمالي والشرقي الشمالي تقريبًا، ويواجهه من البلاد: الجزء الأكبر من الحجاز، والعجم،[٤] وتركستان، والعراق، وشمال الهند، والسِّند، والصين، وسيبريا. والركن الذي يليه المسمَّى بالركن الغربي، ما بين الغربي والغربي الشمالي، ويواجهه من البلاد: غربي الرُّوسيا، وجميع أوروبا مع القسطنطينية،[٥] وشمال إفريقيا نحو الغرب، والجزائر، ومراكش، وتونس، وطرابلس،[٦] ومصر إلى غاية الشلال الثاني من بلاد النُّوبة.

والركن الرابع المسمَّى باليماني، ما بين الجنوبي والجنوب الغربي، ويواجهه من البلاد: قطعة إفريقيا الجنوبية، مبتدأ من سواكن[٧] بالبحر الأحمر إلى الرأس الخضرة بالأوقيانوس الأتلانتيقي،[٨] وما دون هذا الخط لغاية رأس الرجا الصالح.

والبيت المعظَّم مبني من حجارة الجص الكبار الصَّمَّاء الزرقاء، ويستدير به من أسفل الشاذروان كدرجة سلَّم، وباب الكعبة مرتفع عن الأرض بمترين يصعد إليه بمدرج من خشب، ويدخل منه إلى جوف البيت، وهو مربع به ثلاثة أعمدة من العود الماوردي العال، قطر الواحد منها خمسة وعشرون سانتي (سم)، موضوعة على حذاء واحد[٩] في منتصف المحل مبحرًا مقبلًا، وبسقفه هدايا من الجواهر الثمينة معلَّقة من عهد الخلفاء إلى الآن، وحيطانه مكسوَّة بالأطلس الأحمر، المنسوج عليه مربعات من الحرير الأبيض، مرسوم عليها «الله جل جلاله». وفي زاوية ركن حِجْر إسماعيل شطرة على يمين الداخل، فيها باب يصعد منه على مدرج إلى أعلى الكعبة، يقال له: باب التوبة. وعلى أربعة جهات البيت من الخارج، مسدول من الأعلى إلى الأسفل كسوةٌ من الحرير الأسود من نسيج

---

[٤] العجم: بلاد فارس وهي دولة إيران.

[٥] القسطنطينية: مدينة تقع على مضيق البسفور في أوروبا، ومنها قسم في آسيا، ومن أسمائها القديمة: بيزنطة، القسطنطينية، وعندما فتحها السلطان العثماني محمد الثاني عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م الذي لقب بعد ذلك بالفاتح بسبب فتحه القسطنطينية، قام بتغيير اسمها إلى إسلامبول وتعني: مدينة الإسلام أو تخت الإسلام. واتخذها عاصمة للدولة العثمانية، الذي تصحَّف اسمها أو غُيِّر بعد ذلك إلى إستنبول، والعرب تلفظها إسطنبول. وتسمَّى — أيضًا — الآستانة وتعني عتبة السلطان، والباب العالي. وبعد قيام الجمهورية التركية على أنقاض الدولة العثمانية عام ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م، قام مصطفى كمال أتاتورك — وتعني أبو الأتراك — بنقل العاصمة من إسلامبول إلى أنقرة.

[٦] طرابلس: هي عاصمة ليبيا، والتي يميزونها بقولهم: طرابلس الغرب. أما التي في لبنان فيميزونها بقولهم: طرابلس الشام.

مصر، تحمل إليه منها في كل عام، وعلى ارتفاع ثلثي الكسوة طراز مزركش مستدير على البيت كالمِنْطَقَة،[١٠] عرضه سبعون سانتي (سم)، مرسوم فيه بالمُخَيَّش[١١] آيات قرآنية. وفي ٢٧ القعدة يحاط البيت من الأسفل إلى ارتفاع مترين بالبفتة البيضاء،[١٢] ادِّعاءٌ أن هذا علامة إحرام الكعبة، وحقيقته أن الموكل بها يأخذ هذا الجزء من الكسوة الأصلية يهديه إلى الحجاج تبرُّكًا. وفي ١٠ الحجة توضع على الكعبة الكسوة الجديدة المحمولة من مصر. وعلى باب الكعبة ستارة من الأطلس الأخضر مزركشة جميعها بالمخيش، والعادة أن كسوة البيت تكون في آخر العام لحضرة الشيخ عمر الشَّيبي،[١٣] من بني شيْبة، الموكل بمفتاح بيت الله المكرَّم وخدمته، ما عدا الأشياء المزركشة فهي لشريف مكَّة، وهذا ما لم يكن الحج بالجمعة، وإلَا فالمزركش يُحمل إلى مولانا السلطان. ورقد رسمْتُ بالفطوغرافيا صورة حضرة الشيخ عمر المذكور، وأرسلتها إلى حضرته مع هذه الأبيات من قولي:

قلبي يصوِّر شخصكم في كعبة بُنيت على الرَّحَمات والأنوار
فالقلب مُشتعل بنار فراقكم أوَليس كل مصوِّر في النار
بيدي رسمْتُ مثالكم في رقعة أملًا لقرب الودِّ والتذكار

[٧] سواكن: أحد موانئ دولة السودان على البحر الأحمر.

[٨] بالأوقيانوس الأتلانتقي: المحيط الأطلنطي.

[٩] حذاء واحد: أي محاذية لبعضها البعض.

[١٠] المنطقة: هو الحزام الذي يديره الإنسان على خصره.

[١١] المخيش: خيط غليظ.

[١٢] البفتة البيضاء: قماش رقيق تحاط به الكعبة المشرفة في ٢٧ ذي القعدة من كل سنة، وترفع كسوتها عن الناس إلى أن توضع عليها كسوتها الجديدة.

[١٣] عمر الشَّيبي: هو الشيخ عمر بن جعفر بن محمد الشيبي العبدري القرشي، تولى الرئاسة بعد وفاة عمه الشيخ عبد الله بن محمد عام ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م رحمه الله، ومكث صاحب المفتاح ورئيس السدنة ٨ سنوات، إلى أن توفي عام ١٣٠٤هـ/١٨٨٧م رحمه الله (انظر: تاريخ الكعبة المعظمة، حسين باسلامه، ص٤٠٦). عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام يوم فتح مكة وهو على درج الكعبة فحمد الله وأثنى عليه فقال: «الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا إن قتيل السوط والعصا فيه مائة من الإبل، منها أربعون خلفة في بطونها أولادها. ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية ودم تحت قدمي هاتين، إلَّا ما كان من سدانة البيت، وسقاية الحاج، ألا إني قد أمضيتهما لأهلهما كما كانا».

وفي بحري[١٤] مقام سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام المنبر من المرمر، ووراء زمزم قبَّتان، إحداهما محل للمؤقِّت،[١٥] والأخرى خزانة للكتب.

وخلف قناديل المطاف بمترين تجاه الضلع البحري من الكعبة والميزاب محراب الحنفي، وخلف قناديل المطاف بمترين تجاه الضلع الغربي محراب المالكي، ومحراب الحنبلي مواجه للضلع القبلي، وأما محراب الشافعي فخلف مقام إبراهيم.[١٦]

وأرضية المطاف؛ المنحصرة ما بين قناديل المطاف والكعبة مع حجر إسماعيل والمنبر ومقام إبراهيم وزمزم هي مفروشة بالمرمر، ولا يجوز الطواف خارجًا عن هذه البقعة،[١٧] ولا داخل الحطيم، ولا فوق الشاذروان. ومتى أوقدت قناديل المطاف مع قناديل القباب فالناظر إلى الحرم يشاهده متلألئًا بالنور ككوكب دُرِي يَسرُّ الناظرين.

والمصلِّي في الحرم يستقبل البيت في أي جهة كان، فالحرم كدائرة نقطة مركزها البيت، كما أن المصلين خارجًا عن الحرم وفي كل البلاد يستقبلونه بحسب الوضع. وقد تيسَّر لي رسم مسطح الحرم بالبيان، وأخذ رسم منظره من جملة جهات مع ما حوله من البيوت بواسطة آلة الفطوغرافيا.

وبعض مواضع من صحن الحرم ليس بها بلاط، وإنما يعلوها زلط،[١٨] وباقيه مع ما تحت العقود مُبَلَّط بحجر الجص، وأرضية الحَرَم من تحت العقودات منخفضة عن الشوارع بنحو ثلاثة أمتار، ويُصعد منها إلى الشوارع بسلَّم، والبيت منحدر تدريجًا عن

رواه ابن ماجه وحسنه الألباني (انظر: سنن ابن ماجه، ح٢٦٢٨). وسدانة البيت في بني شيبة بن عثمان بن أبي طلحة العبدري يتوارثونها كابرًا عن كابر إلى يومنا هذا.

[١٤] بحري: شمال.

[١٥] المؤقِّت: الشخص المكلف بتحديد وقت دخول الصلاة.

[١٦] هذا من البدع المحدثة في المسجد الحرام في ذلك الوقت، حيث كان كل إمام مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة يؤم أتباعه في المكان المخصصة له. وجميع هذه المحاريب قد أزيلت في العهد السعودي، وجعلوا المسلمين يصلون خلف إمام واحد ولله الحمد.

[١٧] هذا الكلام غير صحيح، فالصحن كله يجوز الطواف فيه، والمسألة تخضع للعدد الموجود من الحجاج والمعتمرين والزوار. ولا أدري من أين أتى بهذا الكلام؟! ومن رأى الصور القديمة للكعبة والذي حولها يرى الذي يصفه لنا كاتب هذه الرحلة محمد صادق باشا، وبعضه صوَّره لنا هو نفسه رحمه الله. وقد أزيلت جميع المباني الموجودة في الصحن في العهد السعودي؛ توسيعًا على الحجاج والمعتمرين والزوَّار ولله الحمد.

هذه الأرضية نحو متر؛ وبذا يسهل تصريف ماء السَّيل عند نزوله، وأما المراحيض[19] فإنها خارجة عن الحرم في بعض جهات مخصوصة.

وبالحرم حَمَام الحِمى، وهو كثير، ولا ينفر من المارِين؛ لأمنه من الصيد؛ لأن صيده وقتله محرَّم، يُلقى إليه الحبُّ فيلتقطه بدون نفور، ولونه مباين للون غيره من الحمام؛ لأنه أزرق غامق، به نقط رمادية، وخطوط سود، وهو مطوَّق بالخضرة المُحَمَّرة، والقطط مُسَلَّطة عليه تصطاده.

[18] زلط: الزلَّط في لهجة أهل مصر هو الحجر، والرحَّالة هنا يقصد أن بعض أجزاء من الصحن غير مبلطة إنما هي مفروشة بالحصى الصغير.

[19] المراحيض: دورات المياه.

وصف مكة المكرَّمة

أما مكَّة شرَّفها الله، فهي بلدة كبيرة محاطة بالجبال، بيوتها تجارية عالية، بها خمس طبقات، تبنى بالحجر الجص الأصمِّ، ليس لها حوش،[1] وبمكَّة خانات، ووكايل، وحمَّامان،[2] وشوارعها ضيِّقة بدون انتظام،[3] ما عدا شارعًا مشهورًا، مبتدؤه الشيخ محمود مارًّا بباب العمرة إلى أمام التكيَّة المصرية، ثم على المسعى، وعلى طريق القشاشيَّة[4] وسوق الليل،[5] إلى آخر مكَّة من جهة المعلاة، وعرض الشارع يكون تارة ثمانية أمتار، وتارة عشرة، وتارة عشرين مترًا.

[1] الحوش: هو السور الذي يحيط بالمبنى.

[2] حمَّامان: مفردها حمام، والحمَّامات هي التي يستحم فيها الناس، بخلاف المراحيض التي يقضي الناس فيها حاجاتهم.

[3] شوارعها ضيِّقة بدون انتظام: أي ليست مستقيمة وليست في عرض واحد.

[4] القشاشيَّة: يعتقد — والله أعلم — أنها نسبة لأحمد القشاشي الذي عاش في منتصف القرن «١١» الهجري، حيث سكن في هذا الحي فسُمي باسمه. وأسرة القشاشي من الأسر المعروفة في مكَّة. هذا ولا يزال الاسم متداولًا في مكَّة المكرمة (انظر: تاريخ مكَّة، أحمد السباعي، ٢ / ٤١٤).

[5] سوق اليل: سمي بذلك لأن الناس تمارس فيها البيع والشراء في أول الليل. وكل من بقي عنده شيء من بضاعته في ذلك اليوم، خاصة المطاعم والأفران وما في حكمها، فإنهم يجلبون ما بقي من طعامهم إليه، لبيعه بأي قيمة كانت؛ حتى لا يتلف عندهم (انظر: صور من تراث مكة المكرمة في القرن (١٤) الهجري، عبد الله محمد أبكر، ١ / ٣٦١).

ولحوم الأغنام والخضارات وأنواعها فيها كثيرة، ومن فواكهها اللذيذة: الرُّمان، والعنب، والموز، والسفَّرجل وغيرها. تأتي إليها من الطائف[6] ومن سائر جهاتها.

[6] الطائف: مدينة تقع على جبل غزوان، جنوب شرق مكَّة المكرمة، على بعد ٩٠ كيلًا تقريبًا، تتميز باعتدال الجو في الصيف؛ لارتفاعها عن مستوى سطح البحر بنحو ١٧٠٠ متر. والطائف من مصائف السعودية الجميلة.

العملات النقدية المتداولة بمكَّة المكرَّمة

في موسم الحج عام ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م

أصناف المعاملة المستعملة بها دائمًا هي الإسلامبولية، وأما غيرها فأكثر ما يتعامل به في أوان الحج وبحسب القيمة.

قرش	العملة	قرش	العملة
١٥٦	الجنيه المصري	٢٧	الريال السنكو
١٥٤	الجنيه الإنجليزي	٢٧	الريال المجيدي
١٤٠	الجنيه الإسلامبولي	١٣	الروبيَّة
١٢٢	البنتو	٥	الفرانك
٢٨	والريال البطاقة	١٠	الغَرْش المصري

التكيَّة المصرية بمكَّة المكرَّمة

وقُبالة[1] الحرم[2] من الجهة القبليَّة[3] تكيَّة[4] مصرية،[5] فتينة[6] البناء، بها ناظر[7] ومستخدمون، وبها أماكن ومخازن، وفي دائرها من الداخل أُوَد،[8] ومخازن للغلال، ولسائر المرتَّبات التي ترد إليها من مصر، وبها طاحون ومطبخ متَّسِع تطبخ فيه الشوربة[9] صباحًا فقط، وتفرَّق في كل يوم على نحو أربعمائة فأكثر من الفقراء مع الخبز، وهي دور أرضي فقط وليس بها حواصل[10] تحت الأرض تحفظ الغلال من التسوُس وإتلافها كالحاصل سنويًّا عند اشتداد الحرِّ.

---

[1] قبالة: أمام.

[2] الحرم: المسجد الحرام.

[3] الجهة القبلية: المقصود هي الجهة الجنوبية الشرقية.

[4] التكيَّة: هو المكان الذي ينفرد فيه الإنسان لعبادة الله وحده، وفيما بعد صار هو المكان الذي توزع فيه الصدقات.

[5] التكيَّة المصرية: أسسها حاكم مصر محمد علي باشا عام ١٢٣٨هـ/١٨٢٣م (انظر: مرآة الحرمين، إبراهيم رفعت باشا، ١/ ١٨٥). وفي العهد السعودي دخلت التكيَّة المصرية في توسعة المسجد الحرام (انظر: تاريخ مكَّة، أحمد السباعي، ٢/ ٥٩٣).

[6] فتينة: بهيَّة، جميلة.

[7] ناظر: مدير.

[8] أُوَد: من اللغة التركية، ومفردها أودة، وهي الغرفة، وجمعها غرف.

[9] الشوربة: الحساء.

[10] حواصل: مكان يجمع فيه المحصول.

عين زُبَيْدَة

مياه مكَّة من عين زبيدة، التي أنشأتها السيدة زبيدة[١] حرم الخليفة هارون الرشيد،[٢] منبعها بوادي نعمان البعيد عن عرفات بنحو ساعتين، وهو منحط عن سطح الأرض بثمانية عشر مترًا،[٣] والمسافة من المنبع إلى مكَّة ثلاثة وأربعون ألف متر،[٤] وماؤها يجري في قناة مبنية من المنبع إلى مكَّة كقناة الوابور،[٥] عرضها من الأعلى متر بل تارة يزيد، وفراغها من خمسين سانتي (سم)، مغطاة ببناء من الحجارة، وبالغطاء فتحات بقدر خمسين سانتي (سم) أو أكثر؛ لأجل الملء منها، وهذه الفتحات متباعدة عن بعضها بنحو العشرة أو العشرين مترًا على حسب المواقع، وبجانبها أحواض لشرب دوابِّ المارِين، وأحواض أخرى لشرب الآدميين، وسطح القناة تارة يكون مساويًا لسطح الأرض، وتارة مرتفعًا عنها إلى سبعة أمتار، على حسب ارتفاع الأرض وانخفاضها، كما شاهدت جميع ذلك بعرفات، حيث تمر بجانب جبل الرَحمة، متجهة إلى منى، ثم إلى مكَّة، وهناك تصب في جملة صهاريج متعددة.

---

[١] زبيدة: السِّت المحجَّبة، واسمها أَمَةُ العزيز، وزبيدة لقب لها، وهي زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد وأم ابنه الأمين الخليفة من بعده. ولدت في عام ١٤٥هـ/٧٦٢م. من النساء الفاضلات. حجَّت في عام ١٨٦هـ/٨٠٢م، فشاهدت معاناة الحجاج في الحصول على أعز مطلوب، وهو الماء، فأمرت بحفر هذه العين، التي عرفت بعين زبيدة. وقامت بوضع العلامات، وحفر الآبار، وبناء البرك، في طريق الحاج العراقي، بحيث إذا مرَّ الحجاج بهذه البرك، تكون خلال السنة قد امتلأت من الأمطار، فيشربون منها. عرف هذا الطريق باسم درب زبيدة. ومن برَكة هذين العملين: عين زبيدة ودرب زبيدة، أن بقيا أكثر من ألف سنة والناس تنتفع بهما، فما أعظمه من عمل. توفيت زبيدة عام ٢١٦هـ/٨٣١م رحمها الله (انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٠ / ٢٤١).

وقد حصل فيها قبل أوان الحج بعض انهدام، وجرى ترميمه من أهل الخيرات. وأرسل من مصر أمداد خمسة وعشرون ألف جنيه مع حضرة أحمد بيك، أحد معاوني الداخلية، ولحضور حضرة مصطفى بيك جركس المهندس، متعينًا معه من مصر لمشاهدة العمارة الجارية بقناة العين، مع كونها كانت قد انتهت تقريبًا، لم أجد لزومًا لتوجهي إلى المنبع ومناظرة ما بقي من التعميرات المشاعة، حيث شاهدتُ القناة مبنية بناء متينًا من مكَّة إلى عرفات، ولم أدر ما وراء ذلك.

[٢] هارون الرشيد: أحد خلفاء الدولة العباسية الكبار. ولد في الريِّ عام ١٤٨هـ/٧٦٥م، تولى الخلافة بعهد من أبيه بعد وفاة أخيه الهادي عام ١٧٠هـ/٧٨٦م. كان من أميز الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، وكان كثير الغزو والحج. وكان يحب العلم وأهله، ويعظِّم حرمات الإسلام، ويبغض المراء في الدين، والكلام في معارضة النصوص الشرعية. وبلغه عن بشر المريسي القول بخلق القرآن، فقال: لئن ظفرت به لأضربن عنقه. ومن محاسنه أنه لما بلغه موت العالم الجليل عبد الله بن المبارك جلس للعزاء، وأمر الأعيان أن يعزوه في ابن مبارك. وفكَّر هارون الرشيد في ربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر إلَّا أن يحيى بن خالد البرمكي قال له: كي يختطف الروم الناس من المسجد الحرام، وتدخل مراكبهم إلى الحجاز، فتركه. وتمَّ بعد ذلك ربط هذين البحرين بحفر قناة السُّويس، حيث انتهوا من حفرها عام ١٢٩١هـ/١٨٧٤، توفى هارون الرشيد بطرس عام ١٩٣هـ/٨٠٩م رحمه الله (تاريخ الخلفاء، السيوطى، ص٣٢٦، بتصرف).

[٣] وادي نَعْمان: ويسمَّى خَبْت نعمان؛ لاتساعه الذي يقرب من ٣ أكيال. واد فحل من الأودية التي تحيط بمكَّة، يأخذ أعلى مساقط مياهه من رأس جبل كرا من ارتفاع ١٩٥٠ مترًا ثم تتجمع صدوره عند جبل قرن المدراء، وهو الجبل الصغير الحائز عن الجبال الذي تراه على يسارك وأنت تصعد حزم الكر، فإذا تجمعت صدوره — ويسمونها الصدَّر — أخذ الوادي إلى الجنوب الغربي، جاعلًا جبل كبكب على يمينه وجبال سحار يساره إلى أن يجتمع بوادي عُرَنَة عند عين العابدية ويبلغ طوله من رأس كرا إلى العابدية ٥٠ كيلًا تقريبًا، ويبعد أول وادي نعمان عن مكَّة ٢٤ كيلًا شرقًا تقريبًا، فإذا اجتمع مع عُرَنة مرَّ على حدود الحرم، على بعد ١٢ كيلًا جنوب مكَّة (أودية مكَّة المكرمة، عاتق بن غيث البلادي، ص٣١).

[٤] ٤٣ كيلًا.

[٥] الوابور: القطار.

حُكَّام مكَّة المكرَّمة

وأما حكَّام مكَّة، فأميرها الشريف عبد المطلب،[1] يدعى هنا بسيد الجميع، وله اليد العليا على العربان والولاة من قنفدة اليمن[2] إلى الحجاز ومن الشرق إلى المدينة. وعلى العساكر والضباط والٍ[3] برتبة مشير، وواحد لواء باشا. وعلى العساكر المتوظفين من الدولة بمكَّة وجدة والطائف والمدينة والٍ آخر برتبة لواء باشا، له وكيل برتبة ميرالاي[4] هو ضابط البلد، وهناك جملة متوظفين من أهل الدولة وكلهم تابع لها. ومن أعيان البلد من هو متوظف من أعضاء مجلس الحكام وغيره.

---

[1] الشريف عبد المطلب: هو الشريف عبد المطلب بن غالب آل زيد، تولَّى الإمارة في الحجاز لثلاث مرات متفاوتة، الأولى في عام ١٢٤٣هـ/١٨٢٨م، الثانية عام ١٢٦٧هـ/١٨٥١م، آخرها عام ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م، وكان وقتها قد طعن في السن وكبر، وحصلت بعض الأخطاء والتجاوزات في عهده، فعزل من قبل الدولة العثمانية عن الإمارة عام ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م، وعُيِّن مكانه الشريف عون الرفيق باشا بن محمد. توفي الشريف عبد المطلب في سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م رحمه الله (انظر: تاريخ أشراف الحجاز «خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام»، أحمد زيني دحلان، تحقيق وتحليل: د. محمد أمين توفيق، ص٦٠. وحكام مكَّة، جيرالد دي غوري، ترجمة: محمد شهاب، ص٣١١).

[2] قنفدة اليمن: وتلفظها الناس بالذال والدال، والرحَّالة كتبها حسب نطق أهلها لاسمها، وهي مدينة وميناء القنفذة على البحر الأحمر، وتبعد عن جدة جنوبًا حوالي ٣٨٠ كيلًا. أما إلحاق الرحَّالة محمد صادق لها باليمين فهو جغرافيًّا، حيث إن كل ما وراء الطائف كان يعدُّ في عرف العرب من اليمن، أما سياسيًّا فهي لم تتبع — حسب علمي — يومًا اليمن. والآن القنفذة من البلاد السعودية التي وحَّدها الملك عبد العزيز رحمه الله في عام ١٣٥١هـ/١٩٣٢م تحت راية التوحيد (لا إله إلَّا الله محمد رسول الله)، وقس على ذلك مدينة معان، حيث إنها تعدُّ من الحجاز، أو ابتداء أرض الحجاز، بينما هي من بلاد الشام، إذا دققنا في مكانها على الخريطة، وسياسيًّا تقع الآن في دولة الأردن.

وقد اجتمعتُ بمكَّة بحضرة علي بيك، قائمقام أركان حرب، وفطوغرافجي[٥] بعساكر الشاهانة،[٦] الآتي مع خمسة ضباط من أركان حرب إلى مكَّة؛ لأخذ رسم خريطة البقاع وبعض مناظر فطوغرافية بها وبالطائف، ثم أخذ رسم الطريق الموصلة منها إلى المدينة وما يلزم.

---

[٣] وال: أي والي وجمعها ولاة.

[٤] ميرالاي: مركب من «مير» مختصر أمير، ومن «الاي» الكتيبة، أي أمير الكتيبة. وهي تعادل رتبة العقيد في رتب الضبَّاط اليوم.

[٥] فطوغرافجي: مهندس أو خبير خرائط.

[٦] عساكر الشاهانة: العساكر الملكية في الدولة العثمانية.

وصول المَحْمَل الشامي

وفي يوم الثلاثاء ٦ الحجة (١٢٩٧هـ الموافق ٩ نوفمبر ١٨٨٠م) دخل موكب الحاج الشامي مكَّة، ومرَّ في شوارعها، وتوجَّه لمحل إقامته المعتاد، خارجًا عن الشيخ محمود، وكان أميره سعادة محمد سعيد باشا، الشهير بشمدين آغا زادة،[١] وهو من الأمراء العظام.

وفي يوم الأربعاء ٧ منه (١٠ نوفمبر) إقامة.

---

[١] محمد سعيد باشا: أمير الحج الشامي من عام ١٢٨٧–١٣٠٩هـ/ ١٨٧٠–١٨٩٢م (انظر: دفاتر شاميَّة عتيقة، د. أحمد ايبش، ص١٧٦).

المسير إلى عرفات

في يوم الخميس ٨ منه[١] (١١ نوفمبر) س١ ق٤٥ وَكَبَ المَحْمَل المصري من محل الجَرْوَل، ومرَّ بالزَّاهر، ثم بالشيخ محمود، ودخل مكَّة من باب العمرة، ومرَّ أمام التكيَّة المصرية، ثم من وسط المسعى إلى القشاشية وسوق الليل وبيت الإمارة سابقًا، إلى أن خرج من مكَّة إلى المعلاة مشرِّفًا إلى البياضية، أمام منزل الشريف عبد المطلب أمير مكَّة الآن، ومارًّا على يسار جبل النور إلى منى س٤، وهي بلدة مستطيلة، يقطعها الرَّكبُ في مسافة ثمانية عشر دقيقة، بها بيوت كثيرة مزخرفة، منحصرة بين جبلين، يفصلها شارع عرضه تارة عشرة أمتار، وتارة عشرون مترًا، وتارة ثلاثون، على جانبيه دكاكين مخازن، وهناك شارع آخر مبتدئ من وسط هذا الشارع وممتد على اليسار إلى آخر البلد، وهذه البلدة لا تُسكن إلَّا في أيام الحج. وخارج منى مما يلي عرفات على اليمين جامع كان عليه الصلاة والسلام يجلس فيه مكان القبَّة، وهناك أنزلت عليه سورة المرسلات،[٢] وهذا الجامع بني في أيام خلافة عبد الله بن الزُّبيْر رضي الله عنه؛[٣] إحياء لآثار رسول الله ﷺ، وهو المسمَّى بمسجد

---

[١] هذا هو يوم التروية، ومن السنَّة المبيت فيه بمنى، إلَّا أنه من خلال قراءة الرحلة نجد المحمل المصري قد واصل السير إلى عرفات، ولا نعلم السبب؟!

[٢] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في غار، وقد أرسلت عليه المرسلات عُرفًا، قال: فنحن نأخذها من فيه رطبة، إذ خرجت علينا حيَّة، فقال: «اقتلوها». فابتدرناها لنقتلها، فسبقتنا، فقال رسول الله ﷺ: «وقاها الله شركم كما وقاكم شرها». رواه الإمام أحمد. قال عنه أحمد شاكر: إسناده صحيح (انظر: مسند أحمد، ح٤٠٦٩).

[٣] عبد الله بن الزبير: صحابي ابن صحابي، وأبوه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأمه هي ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم جميعًا. وهو أول مولود ولد للمهاجرين بعد الهجرة، وفرح

الخَيْف؛[٤] أعني حضيض الجبل. وعلى يسار الداخل في منى ركن مبني تزعم العامة أنه مكان إبليس الكبير، ويعبَّر عنه في كتب الشرع بجمرة العقبة، يرجمونه بعد النزول من عرفات، ثم بعده بنحو مائة وخمسين مترًا بناء آخر على اليسار، تزعم العامة أنه إبليس الثاني، وهو الجمرة الثانية، وبعد مائة وخمسين مترًا في وسط الطريق حوض مستدير به بناء مربع كالعمود، تزعم العامة — أيضًا — أنه إبليس الثالث، وهو الجمرة الثالثة.

وفي س٤ ق٥٠ استراح الرَّكبُ، وفي س٥ سار، وفي س٥ ق٥٥ وصل إلى المُزْدَلِفَة، وهي أرض متَّسعة، تحتوي على محل به جدران على جانبي الطريق، المسافة بينهما ستون مترًا، وارتفاعهما أربعة أمتار، عرض الواحد منهما ثلاثة أمتار، ويسمَّى هذا المحل بالمشعر الحرام، ومنه يؤخذ الحصى لرمي الجمرات عند العودة، ثم في س٧ وصل إلى العَلَمَين، وهما بناءان أصغر من الأولين، المسافة بينهما مائة متر، يفصلان بين أرض مكَّة أي حرمها وعرفات.

المسلمون بولادته فرحًا شديدًا؛ لأن اليهود كانوا يقولون: سحرناهم فلا يولد لهم ولد. فحنكه الرسول الله ﷺ بتمرة لاكها، وسمَّاه عبد الله (انظر: تاريخ الخلفاء: السيوطي، ص٢٤٠).

[٤] مسجد الخيف: الخيف: ما ارتفع عن موضع مجرى السَّيل ومسيل الماء وانحدر عن غِلَظ الجبل، والجمع أخيافٌ، ومنه قيل: مسجد الخيف بمنى لأنه في خَيْف الجبل. وضبٌ: هو اسم الجبل الذي مسجدُ الخيف في أصله (انظر لسان العرب، ٩/ ١٠٢، مادة: خيف). ومن فضائل مسجد الخيف قال رسول الله ﷺ: «صلَّى في مسجد الخيف سبعون نبيًّا منهم موسى ﷺ، كأني أنظر إليه وعليه عباءتان قَطَوانيتان وهو محرم، على بعير من إبل شنوءة، مخطوم بخطام ليف، له ضفيرتان.» رواه الطبراني (انظر: المعجم الأوسط، ح٥٤٠٧). قال عنه المنذري: إسناده حسن. وقال عنه الألباني: حسن لغيره (انظر: الترغيب والترهيب، ح١٧٣٦). قطوان: بفتح القاف والطاء، موضع بالكوفة تنسب إليه العبيُّ والأكسية. وفي عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م أمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز رحمه الله بإعادة عمارة مسجد الخيف وتوسعته، وهو ما نشاهده الآن ولله الحمد.

الوصول إلى عرفات

وفي س٧ ق٤٥ وصل إلى عرفات، وهي بقعة متسعة، محاطة بالجبال، في غربيها جامع كبير يسمَّى بجامع نَمِرَة، وبشرقها بالقرب من الجبال جبل صغير من زلط منفرد على حدته، يسمَّى جبل الرَّحمة،[١] وعند العامة جبل عرفات، ارتفاعه نحو الثلاثين مترًا، وطوله قريب من ثلاثمائة متر، ويصعد إليه على مدرج من الصخر كالسلَّم، وفي وسط الصعود مكان مستو طوله عشرة أمتار في خمسة عشر مترًا، به مصلًّى، بها قِبلةٌ يقال: إنَّ النبي ﷺ صلَّى فيه. وأعلى هذا الجبل سطح مستو مبلَّط بالحجر، مربع في نحو عشرين مترًا، وفي وسطه مصطبة طولها سبعة أمتار في سبعة، ارتفاعها متر ونصف، وفي ركنها الغربي عمود مربع، ارتفاعه أربعة أمتار في عرض اثنين، يرى من أسفل الجبل كمنار للطريق.

---

[١] جبل الرَّحمة: اشتهر وعرف بهذا الاسم، أما اسمه القديم فهو: إلال، على وزن هلال. قال الإمام النووي: وأما ما اشتهر بين العوام من الاعتناء بصعود الجبل، وتوهمهم أنه لا يصح الوقوف إلَّا فيه فغلط؛ بل الصواب جواز الوقوف في كل جزء من أرض عرفات، وأن الفضيلة في موقف رسول الله ﷺ عند الصخرات، فإن عجز فليقرب منه بحسب الإمكان (شرح النووي على صحيح مسلم، ٨/ ١٨٥). وقال الشيخ عبد الله بن جبرين: ومن البدع تكلف الكثير في صعودهم إلى الجبل الذي يسمَّى الآن جبل الرَّحمة، وهذا الجبل ليس له مزيَّة، لكن صحَّ أن النبي ﷺ وقف خلفه عند الصخرات الكبار؛ ولكن لم يذكر أن له فضيلة، ولا أنه يُصعد إليه، وهو جبل كسائر الجبال، فالنبي ﷺ وقف في ذلك المكان وقال: «وقفت ههنا، وعرفة كلها موقف». رواه مسلم (انظر: صحيح مسلم، ح١٢١٨). وأرسل إلى أناس بعيدين في عرفات فقال لهم: «كونوا على مشاعركم، فإنكم اليوم على إرث من إرث إبراهيم». رواه ابن ماجه وصححه الألباني (انظر: سنن ابن ماجه، ح٣٠١١). ولم يقل لا بد أن تأتوا إلى الجبل أو إلى الصخرات، فالحاج يقف بمكانه، ويدعو مستقبلًا القبلة، فالذين يستدبرون الكعبة، ويستقبلون الجبل ويدعون، هؤلاء مبتدعة (بعض المخالفات المنتشرة بين الحجاج والمعتمرين، عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين، ص٣٣، بتصرف).

وبالجانب الغربي من سطح الجبل محراب منحرف من الغرب إلى الجنوب عشرين درجة. وبأسفل الجبل قناة عين زُبَيْدة، مبنية ومحيطة بثلاث من جهاته، ولها فتحات تملأ منها أحواض بجانبها لشرب الحجاج. وقد اجتمع بعرفات عالم كثير من الحجاج،[٢] نحو مائة وخمسين ألفًا، ناصبين خيامهم، ومعهم دوابهم وأمتعتهم، وقد تيسَّر لي أخذ رسم عرفات بالفطوغرافيا.

[٢] الوقوف بعرفات أحد أركان الحج الأربعة، قال الرسول ﷺ: «الحجُّ عرفة، فمن أدرك ليلة عرفة قبل طلوع الفجر من ليلة جَمْع فقد تمَّ حجه». رواه النسائي وصححه الألباني (انظر: سنن النسائي «المجتبى»، ح٣٠١٦).

الوقوف بعرفة

وفي يوم الجمعة ٩ الحجة سنة ١٢٩٧هـ/١٢ نوفمبر ١٨٨٠م بعد صلاة العصر، في الساعة العاشرة، وكب المَحْمَلان المصري والشامي، وأميراهما أمامهما، حتى أتيا إلى أسفل جبل الرَّحمة، في مكان مرتفع قليلًا عن سطح الأرض، ومعدٍّ لهما بأسفل مصطبة مرتفعة في ثلث الجبل، فوقها الخطيب راكب على جمل يخطب ويلبِّي، وبجانبه بيرق[١] أحمر لونه طوبي، وبجانبه مُبَلِّغ[٢] مصري، يشير بالمنديل للقريب والبعيد ممن حوله، ومن الواقفين أمام خيامهم، وللحاضرين بعرفة، ليلبوا أيضًا، ويقولوا: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. وكلَّما أشار بالمنديل لبَّى الحاضرون مع البكاء والتضرُّع والنحيب كيوم العرض بالتقريب، وهم في غاية الازدحام، عراة الرءوس، حفاة الأقدام، ليس عليهم سوى الإحرام، خاشعون خاضعون، قاصدون باب كريم غفَّار، وعدهم بغفرانه وكرمه على لسان نبيه المختار ﷺ ما دام الليل والنهار، فيا له من يوم تعجز عن وصفه رواة الأخبار.

---

[١] بيرق: راية، علم.

[٢] مبلِّغ: من ينقل كلام الخطيب إلى الناس الذين لا يسمعونه في مؤخرة المجلس وأطرافه.

النَّفْرة من عرفات

بعد الساعة الثانية عشر عقب غروب الشمس أُطلق ساروخ ليعلم الحاضرون أنَّ المناجاة بعرفات قد تمَّت، وربحت كل نفس بقدر ما اهتمَت. ثم صفَّتْ فرسان وعساكر المَحْمَلين على الطرفين، في وسطهم المَحْمَلان متجاوران، المصري يمينًا والشامي يسارًا، وأمام كل منهما أميره وأمينه، وسارا على هذا الشكل في موكب يسرُّ الناظرين، لم يشاهد مثله فيما سبق من السنين، تميل المحامل تبخترًا كالعرائس المجلوَّة والصلاة من هذا الجمِّ الغفير على خير البرية متلوَّة، والمدافع والسواريخ تضرب في كل مسافة قريبة، والطبول والمزامير والموسيقة تطرب بكل نغمة غريبة[1] وجميع الحجاج من ركاب الخيول والإبل والتختروانات[2] والشقاذف وغيرها، والمشاة عن يمين وشمال، وخلف المَحْمَلين سائرون، مع الرَّاحة فرحون مستبشرون، بدون أن يحصل أدنى خطر، لأحد منهم على خلاف ما كان يحصل في السنين الماضية، من الهرج، وازدحامهم لسير المَحْمَلين متفرقين، وكل منهما يريد أن يسبق الآخر بدون فائدة، فلله الحمد والمنَّة، لم يحصل ذلك في هذا العام، ولم يتضرر أحد من الازدحام.

[1] هذا من البدع المحدثة في ذلك الوقت، وقد زالت بفضل الله وحده ثم بانتشار العلم الشرعي الصحيح وتطبيقه من قبل الدولة السعودية جزاهم الله خيرًا.

[2] التختروانات: التَّختْ هو السرير أو المقعد.

المبيت بمزْدَلِفَة

وقد وصل الرَّكبُ من جبل الرَّحمة إلى أول العَلَمَيْن في خمس وعشرين دقيقة، ومنها إلى الثاني كذلك، وسار على هذه الصِّفة إلى أن وصل المُزْدَلِفة[1] س٢ ق٢٥ ليلًا، وبعد إطلاق مدافع الوصول نزل كل من المَحْمَلين في محلِه المختص به كالأصول، فالمَحْمَل المصري شكله معلوم وفي غاية الانتظام والرسوم، كسوته من الأطلس الأحمر،[2] مزركشة جميعها بالمخيش، وأما الشامي فشكله أقل عرضًا من المصري، وقبَّته عالية بالنسبة للعرض، وكسوته من الأطلس الأخضر الغامق، ومزركشة بالمخيش.

---

[1] مزدلفة: هذا هو أشهر أسمائها، وهي داخلة في حدود الحرم المكي، قال ابن حجر: وسميت المزدلفة: إما لاجتماع الناس بها، أو لاقترابهم إلى منى، أو لازدلاف الناس منها جميعًا، أو للنزول بها في كل زلفة من الليل، أو لأنها منزلة وقربة إلى الله (فتح الباري، ٣ / ٥٢٣). وسماها الله عز وجل: المشعر الحرام. قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهِ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٩٨). وقيل: هو الجبل الصغير الذي فيها. وسمَّاها الرسول ﷺ: جمع. فقال: «وقفت ها هنا، وجَمْعٌ كلها موقف.» رواه مسلم (انظر: صحيح مسلم، ح١٢١٨). ومن الأعمال التي يقوم بها الحاج في مزدلفة: المبيت بها في هذه الليلة، وهو واجب، وقد رخَّص الرسول ﷺ في هذه الليلة للضعفاء من الرجال والنساء والصغار والمرضى أن ينصرفوا من مزدلفة إلى منى بعد منتصف الليل، وكذلك ينصرف معهم من يحتاجون إليه، ويكون حكمه حكمهم. وأداء صلاة المغرب والعشاء جمعًا وقصرًا بآذان واحد وإقامتين، وأداء صلاة الفجر يوم النحر بها، والوقوف بعد الفجر بها، والذكر والدعاء ثم الدفع منها قبل طلوع الشمس إلى منى.

[2] الأطلس الأحمر: من اللغة الفارسية وهو الحرير الأحمر.

وبالمزدلفة كل شخص يلتقط من الأرض تسعة وأربعين حصاة[٣] من الزَّلط، بقدر الحِمِّصة والفولة،[٤] لرمي الجمرات، ويغسلها سبعًا،[٥] ويحفظها عنده. وقد شوهد عند نزول الحجاج من عرفة صعود حجاج الأعجام ليقفوا بعرفة يوم العيد.[٦]

[٣] لا يجب على الحاج أن يلتقط الحصى كله من مزدلفة، بل يجوز له أن يلتقطه من مزدلفة، أو من الطريق في أثناء مسيره إلى منى، أو من منى نفسها.

[٤] الحِمِّصة والفولة: أي بقدر حبة ثمار الحمِّص والفول.

[٥] غسل الحصى سَبْعًا لا أصل له، وهو من التكلُّف المنهي عنه. عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: «القط لي حصى». فلقطتُ له سبع حصيات هنَّ حصى الخذف، فجعل ينفضهنَّ في كفه ويقول: «أمثال هؤلاء فارموا». ثم قال: «يا أيها الناس، إياكم والغلوَّ في الدين، فإنه أهلك من كان قبلكم الغلوُّ في الدين». رواه ابن ماجه وصححه الألباني (انظر: سنن ابن ماجه، ح٣٠٢٩).

[٦] المقصود بالأعجام: الفُرْس. وهذه هي عاداتهم دائمًا نسأل الله أن يهدي ضال المسلمين، إلَّا أن الحكومة السعودية — جزاه الله خيرًا — تمنعهم من ذلك، وتلزمهم بالوقوف في عرفات مع المسلمين.

رمي جمرة العقبة

وفي يوم السبت ١٠ منه (١٣ نوفمبر) وهو يوم العيد الأكبر، بعد مضي ربع ساعة من النهار وكب المَحْمَلان، وأتيا إلى قريب من المشعر الحرام، بجوار سُلَّم في ركن من جدار، قد صعد عليه الخطيب وصار يدعو الله ويلبِّي، والحاضرون يلبُّون جميعًا. وعند الشروق، بعد مضي خمس وثلاثين دقيقة من الساعة الأولى من النهار، ختم الدعاء، وعطفوا أَعِنَّة كروباتهم، وسار المَحْمَلان واكبين في سيرهما كالأمس، إلى أن وصلا إلى منى،[١] وكانت الساعة واحدة وخمسًا وأربعين دقيقة، ونزل الرَّكبان كلٌّ في محلِّه المعتاد، ثم كل أحد توجه من الحجاج إلى آخر منى، ورمى الجمرة الأولى[٢] سبع حصيات من حصى المزدلفة، واحدة بعد واحدة مع التكبير، ثم عاد إلى مخيَّمه، وحلق، وفكَّ إحرامه، ولبس ثيابه، وتحلَّى بزخارف الدنيا، ودخل مكَّة، وطاف بالبيت طواف الإفاضة،[٣] ثم عاد إلى منى، فضحَّى وفَدَى. والأغنام بلغ ثمن الواحد منها من ريال ونصف إلى ثلاثة ونصف.

---

١ منى: سميتْ بهذا الاسم: لكثرة ما يمنى فيها من الدماء. أي: يُراق في يوم النحر (انظر: لسان العرب، ١٥ / ٢٩٤، مادة: مني). وحَدُّها شرقًا وغربًا من وادي محسر إلى جمرة العقبة، ومن الشمال والجنوب قال العلماء رحمهم الله: كل سفوح الجبال الكبيرة ووجوهها التي تتجه إلى منى من منى. وبناء على هذا تكون منى واسعة جدًّا، وتسع الحجاج لو أنها نُظِّمتْ تنظيمًا تامًّا (انظر: شرح حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه في صفة حج النبي ﷺ، محمد بن صالح العثيمين، ص٥٠). والمبيت فيها في أيام التشريق، واجب من واجبات الحج.

٢ الجمرة الأولى: جمرة العقبة، وهي التي تلي مكَّة المكرمة. سمِّيت بذلك لأنها كانت في أصل جبل يُصعد إليه، إلى أن أمر الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله بإزالة هذا الجبل؛ تسهيلًا وتوسيعًا على الحجاج.

٣ طواف الإفاضة: أحد أركان الحج الأربعة.

التهنئة بالعيد

في يوم الأحد ١١ منه (١٤ نوفمبر) توجهت الأمراء والأمناء إلى حضرة الشريف عبد المطلب بخيمته بمنى؛ لتهنئته بالعيد؛ وبورود فرمان[١] توليته إليه من الآستانة،[٢] وبعد قراءة الفرمان، وضع على ظهر حضرة الشريف بنش[٣] مزركش منظم باللؤلؤ، مشابكه من الماس، ثم بارك له الحاضرون، وشربوا الشربات،[٤] وانصرفوا شاكرين، وبارك ذوات[٥] كل من إسلامبول[٦] ومصر ومكَّة بعضهم لبعض. وبعد ظهر هذا اليوم، صلَّى كل حاج ركعتين في مسجد الخيف، ثم توجه إلى الجمرة الثالثة،[٧] أي إبليس الأصغر على اعتقاد العامة، ورمى سبع حصيات، ثم إلى الثانية،[٨] ورمى سبعًا أيضًا، ثم إلى الأولى،[٩] ورمى سبعًا أخرى، وعاد إلى محلِه. فكان الرمي من الظهر إلى المغرب. وقد تيسَّر لي رسم هذا المسجد وبُقعة منى بالفطوغرافيا.

---

[١] فرمان: القرار أو المرسوم الصادر من السلطان العثماني.

[٢] الآستانة: تعني عتبة السلطان أو الباب العالي. والمعنى أن القرار صادر من العاصمة إسلامبول من السلطان العثماني.

[٣] بنش: سترة رسمية.

[٤] الشربات: عصير التوت.

[٥] ذوات: المسئولون والأعيان والوجهاء.

[٦] إسلامبول: هذا هوا اسمها التاريخي الذي أطلقه عليها السلطان محمد الفاتح في عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، وتعني: مدينة الإسلام أو تخت الإسلام.

[٧] الجمرة الثالثة: الجمرة الصغرى، وهي التي تلي منى.

[٨] الجمرة الثانية: الجمرة الوسطى.

[٩] الجمرة الأولى: جمرة العقبة.

وفي مدَة الليل[١٠] أطلقت المدافع والشَّنكات،[١١] وقد فاقت الشَّنكات المصرية على الشَّنكات الشامية في الصناعة والرونقة بالكليَة.

---

[١٠] مدَّة الليل: أي في أثناء الليل.

[١١] الشَّنكات: نوع من البنادق.

النظافة في منى

وكانت الإقامة يوم العيد وثانيه صعبة؛ لكثرة العفونات والوخامات،[1] وإن كان قد عمل خارج منى ببقعة مسجد الخيف مجازر لذبح الفداء، بجانبها حفائر لإلقاء الدم والذبائح فيها، إلَّا أن ذلك لم يحصل إلَّا القليل جدًّا، حتى عند غروب يوم العيد، انتشرت رائحة جيف الذبائح من كل ناحية؛ لأن أغلب الناس ذبحوا بالقرب من خيامهم، وألقوا ذبائحهم حول خيامهم، وتحت أرجل المارين.

وفي صبح ثاني العيد، ازدادت العفونات، من تراكم الرِّمَم، ووجودها ملقاة حول الخيام، وتحت كل قدم، حتى حول خيمة الشريف، ولولا نزول الحاج إلى مكَّة في ثالث العيد، لحصل ضرر كبير، ومع هذا حصل من ذلك فتور في الأجسام؛ لما شاهدت ذلك في نفسي، ولم أدر أهو من تأثير العفونات، أو لعدم الاعتياد على الإحرام، ولولا أن الزمن كان معتدلًا، لزاد ضعف أغلب الحجاج، ولو نزل السَّيل بمنى أيام العيد، لحصل بمكَّة وباء شديد، من العفونات التي تتحلل من الضحايا.

وقد أخذ الحاكم بجُدَّة، عن كل وارد لها بَحْرًا من الحجاج، نصف ريال، بوسيلة في مقابلة المصروفات السانيتا،[2] وحفر وردم الحفائر بمنى، وإزالة العفونات. وعلى هذا، إذا كان الوارد لها مائة ألف شخص، كان مبلغ المتحصِّل خمسين ألف ريال، فضلًا عن ما خُصص على المواشي كما قيل.[3]

---

[1] الوخامات: المخلَّفات المتعفِّنة.

[2] السانيتا: أي الصحية.

[3] والمعنى، أن المبالغ التي يأخذها الشريف عبد المطلب من الحجاج، إنما هي مقابل ما يقدمه لهم من خدمات صحية وتنظيمية؛ لذلك ينتقد الرحَّالة محمد صادق باشا هذه الخدمات، وأنها لم تقدم للحجاج كما يجب؛ بل إن فيها تقصير كبير.

المراقبة الطبيَّة

وقد حضر بمكَّة في هذا العام حكيمان[1] برتبة ميرالاي،[2] أحدهما حضرة عبد الرحمن بيك الهراوي، أحد خوجات[3] مدرسة الطب بمصر، والآخر يُدعى أحمد بيك الشافعي، حكيم جُدَّة، وهما تابعان للحكومة المصرية، ليكونا مع الحجاج بمنى، ويخبرا بما يشاهدا من وباء أو غيره.

ومبلغ ما صُرِفَ عليهما من الصُّرَّة: عشرة آلاف وتسعمائة وأربعة وعشرون غَرْشًا، فليكن معلومًا. وهذا فضلًا على ما حضر معهما من الصناديق المملوءة والأدوية التي صرفتْ بمعرفتها.

[1] حكيمان: طبيبان.

[2] ميرالاي: تعادل رتبة العقيد في رتب الضُّبَّاط اليوم.

[3] خوجات: معلم أو مدرس.

الانتهاء من رمي الجمرات

في يوم الإثنين ١٢ منه (١٥ نوفمبر) س٦ ق٤٠ سار المَحْمَل المصري واكبًا ودخل في شارع منى، وعند وصوله إلى الجمرة الثالثة، رمى كل من الرَّكب سبع حصيات، وعند الجمرة التالية، وهي الوسطى كذلك، ولما وصلوا إلى الأولى رموا السَّبع الباقية، وهي آخر الحصى، ثم تقهقروا إلى منى نحو عشر خطوات، ثم اتجهوا سائرين إلى مكَّة.

وفي س٧ وصل الرَّكبُ إلى جبل النور، وهو جبل على يمين السائر إلى مكَّة، عليه بناء مربع كالعمود، علامة له، والجبال من الجانبين شاهقة من الصخر الأزرق، وفي س٨ وصل إلى مبدأ مكَّة، وفي س٨ ق٢٠ نزل بباب الحرم، المسمَّى بباب النبي، وانطوت كسوة المَحْمَل المزركشة، ووضعت في الصناديق، ووضعت عليه كسوته الخضراء، وأدخل في الحرم، ووضع على مصطبة بجانب الباب على يمين الداخل.

وفي يوم الثلاثاء ١٣ منه (١٦ نوفمبر) كان ثالث أيام التشريق، أعني رابع العيد.

وفي يوم الأربعاء ١٤ منه (١٧ نوفمبر) كان صرف مُرتبَّات.

أداء العمرة

وفي يوم الخميس ١٥ منه (١٨ نوفمبر) توجهتُ إلى العمرة،[١] لتأخري عنها،[٢] بسبب الفتور الذي عرض لجسمي، عقب نزولي من منى إلى مكَّة، فأحرمت بها بعد الاغتسال، وأتيت الكعبة، وطفت طواف العمرة سبعة أشواط، ثم سعيتُ بين الصفا والمروة سبعة أشواط، ثم حللت وتحلَّلت من الإحرام، وبذا تمَّ لي الحج والعمرة، والمنة لله تعالى وحده.

---

[١] العمرة: المقصود المكان، وهو التنعيم وفي مسجد أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقد مرَّ الحديث عنه.

[٢] لتأخري عنها: أي أداء فريضة العمرة.

صرف المرتَّبات والأمانات المرسلة

وقد جرى بالتكيَّة المصرية بمكَّة صرفُ مرتَّبات العربان، والمشايخ، والشُّرَفا، وسائر المرتَّبات والأمانات المرسلة بخصوص بعض الأهالي والمجاورين المقيمين بمكَّة، من الصُّرَّة المصرية في كل من الأيام الآتية، وهي:

يوم الجمعة ١٦ ذي الحجة (١٩ نوفمبر).

يوم السبت ١٧ منه (٢٠ نوفمبر).

يوم الأحد ١٨ منه (٢١ نوفمبر).

يوم الإثنين ١٩ منه (٢٢ نوفمبر).[١]

يوم الثلاثاء ٢٠ منه (٢٣ نوفمبر) وقد تيسَّر لي في هذه الأيام، أخذُ رسمْ المسجد المكيِ والكعبة بالفطوغرافيا، وأخذُ رسم مسطَّحه على قدر الإمكان، مع كثرة الازدحام وعدم الفراغ.

---

[١] هذه الأيام التي يذكرها الرحالة محمد صادق باشا تباعًا دون أن يذكر ما حصل فيها؛ لعل السبب أنه لم يحصل فيها شيء يستحق الذكر، فذكرها من باب تسلسل أيام الرحلة لا غير.

الطريق إلى المدينة؟!

وفي يوم الأربعاء ٢١ منه (٢٤ نوفمبر) دعى حضرة الشريف عبد المطلب أمراء وأمناء الحاجَّين، ووالي مكَّة والمدينة، وبعضًا من المتوظفين من أعيان مكَّة، إلى مجلس عقده بقصره بالبياضيَّة؛ ليتشاوروا في الطريق المستحسنة لوصول المَحْمَلين إلى المدينة، من الطرق الثلاث الموصلة إليها، التي إحداهما تسمَّى بالدَّرب الشرقي،[1] وهي بعيدة، والثانية تسمَّى بالفرعي،[2] ومسافتها اثنا عشر يومًا، والثالثة تسمَّى بالدَّرب السلطاني،[3] وهي طريق الجديدة. وكان إتيان المَحْمَل الشامي في هذا العام منها، وأما المَحْمَل المصري فلم

[1] الدَّرب الشرقي: من مكَّة يتجه شرقًا، ومنازله كالآتي: مكَّة – بئر البارود – وادي الليمون – الحفاير – بركة سمرة – بركة الملح – الحبيط – صُفيْنة – السُّويرقيَّة (مهد الذهب) – الحجرية – غراب – الغدير – المدينة النبويَّة (انظر: مرآة جزيرة العرب، أيوب صبري باشا، ص١٦٧. الرحلة الحجازية، محمد لبيب البتنوني، ص٢٧٢).

[2] الدَّرب الفرعي: وهو الذي سلكه المحمل المصري والشامي في رحلة العودة، في حج هذه السنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م. ومنازلة كالآتي:

مكَّة – عسفان – خُليْص – آبار الهندي (القضيمة) – رابغ – وادي حرشان – بئر رضوان – أبو ضباغ – الريَّان – الغدير – آبار الماشي – آبار علي – المدينة النبويَّة (انظر: مرآة جزيرة العرب، أيوب صبري باشا، ص١٦٤. الرحلة الحجازية، محمد لبيب البتنوني، ص٢٧١).

[3] الدَّرب السلطاني: وهو الذي سلكه المحمل الشامي في رحلة القدوم، في حج هذه السنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م. ومنازله كالآتي: مكَّة – عسفان – خليص – آبار الهندي (القضيمة) – رابغ – مستورة – بئر الشيخ – ديار وبئر ابن حصاني – الحمراء – مضيق الجديدة – بئر عبَّاس – بئر درويش – آبار علي – المدينة النبويَّة (انظر: مرآة جزيرة العرب، أيوب صبري باشا، ص١٦٠. الرحلة الحجازية، محمد لبيب البتنوني، ص٢٦٩).

يمر منها منذ سبع عشرة سنة. فحصل اتفاق المجلس، بحضرة الشريف، على مرورهما من السلطاني، وإن لم يستحسن سعادة أمير الحاج الشامي مرورهما من هناك؛ لعدم ائتمان من هناك من العربان، فأمَّنه حضرة الشريف، واستصوب الطريق السلطاني للمحملين، إلَا أنه حصل من خليل بن حذيفة بن سعد،[٤] وعمه عمر، المندوبين نيابة عن حذيفة شيخ مشايخ الدَّرب السلطاني، ليضمنا مرور الحاج من هناك مع الأمن والرَّاحة، أنهما في آخر هذا المجلس ادَّعيا أنَ لهم على الحاج المصري مبلغًا جسيمًا، خلاف ما صرف إليهم في كل عام من الأعوام الماضية، وإن لم يمر المَحْمَل المصري عليهم، وطلبا تجديد مرتَّبات لهما زيادة على الأصل، وأطالوا القول والتصلُّب في ذلك حى تعجَب الحاضرون من أفعالهم وجراءتهم. فبعد خروجهما من المجلس، استقرَّ الرأي على المرور من الدَّرب الفرعي، وأخذت من مشايخه الضَّمانات القوية والرهائن.

وبعد الغذاء وشرب القهوة والشَّربات، عاد كل شخص إلى محلِّه بالفرح والمسَّرات.

وبعد قرار هذا المجلس، توجه أغلب الحجاج إلى ديارهم مع القوافل، ومنهم من انتظر المَحْمَلين، ليتوجه معهما، خوفًا من عربان الطريق، ومن العربان المقوِّمين، أعني الجمَّالة. ومن أشنع ما بلغني عنهم، أن كل مقوِّم يضمن لمن يكتري[٥] منه وصوله إلى مقصده مع الأمن والرَّاحة، ثم متى تجاوز العمار،[٦] وصار في القفار،[٧] تمرَّد على ركَّابه وتأمَّر، وتحكَّم عليهم وتنمَّر، خصوصًا إذا كان أغلب الرَّكب إناثًا، ولم يكن مع الرجال سلاح، فينجبرون على الانقياد لأمره، إلى أن يصلوا إلى مقصدهم.

---

[٤] خليل بن حذيفة: من كبار مشايخ قبيلة حرب. وهو الشيخ خليل بن حذيفة بن سعد بن جزا بن عامر بن جويبر الصَّميدي الأحمدي. وعامر هو مؤسس هذه المشيخة، إلَّا أن ابنه جزا هو الذي أصبح عمودها؛ لذلك يقال لهذه الأسرة الكريمة: آل جزا. ارتكب حاكم المدينة النبويَّة ديوان أفندي حماقة حين قام باغتيال الشيخ جزا بالمدينة في عام ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م رحمه الله، حيث انتفضت قبيلة حرب على محمد علي باشا، فأرسل ابنه طوسون لينهي هذا الإشكال، فطالبت قبيلة حرب بالقصاص من ديوان أفندي، الذي مات في أثناء ذلك، قيل: إنه مات مسمومًا. فهدأت الأوضاع قليلًا، وتم استرضاء حرب، ودفعت دية الشيخ جزا (انظر: مواد لتاريخ الوهابيين، بوركهارت، ص١٦١. فصول من تاريخ قبيلة حرب، فائز البدراني، ص٣٠٥ و٣٦٩).

[٥] يكتري: يؤجر. ولا زالت الكلمة متداولة في بعض المجتمعات.

[٦] العمار. أي العمران والمساكن والمدن والقرى.

[٧] القفار: جمع قفر وهي الصحاري.

وأغلب هؤلاء المقوِّمين يبحثون عن القوي من ركابهم والضعيف، ويتفحصون عن ما بأمتعتهم من الثقيل والخفيف، ومتى وصلوا ليلًا إلى محلٍّ مخوف، يجعلون أنفسهم حرَّاسًا طول الليل على ركابهم وأمتعتهم، ومتى علموا أن عينهم قد حلَّ بها المنام، وهدأت منهم الأجسام وثب كل مقوِّم على ركاب صاحبه، وافترسهم بأفاعيه وعقاربه، وصال عليهم صولة الذئب على الخروف السمين، فهذا دأب هؤلاء المقوِّمين، فإذا أصبح الكل، وشكى فقْد أمتعته، لم يجد من يعذره، فضلًا عن كون المقوِّم يحنق[8] عليه ويزجره. وقد سرقتْ من القوافل بهذا الحال، كثير من الأحمال، وطالما قتل الجمَّالون الغني بجانب متاعه ليلًا، وسلبوا منه الأموال.

وقد بلغني بالمدينة المنورة، من حضرة أحمد بيك ناشد، المرسل من مصر بالإعانة المحكى عنها، أنه أتى من مكَّة إلى المدينة مع القوافل من الدَّرب السلطاني، وشاهد عندما نزل الرَّكبُ بمحطة وقت العشاء، واشتغل كل شخص بالعشا،[9] رجلًا قرمانيًّا[10] مذبوحًا بجانب حمله، ودراهمه مأخوذة من كمسره،[11] ما ذاك إلا بدسيس من مُقوِّمه.

وقد سرقوا ليلًا من حضرة البيك المذكور بعض ملبوسه، ولولا انتباهه من نومه سريعًا لضاع متاعه جميعًا.

ومن عادة هؤلاء الأعراب، مع من يحملون من الرُّكاب، أنه إذا نزل أحدهم ليلًا ليفك الحُصُر، وتأخر نحو عشرين خطوة، قتلوه في الحال، وسلبوا ما معه من الثياب والأموال، ولهم في ذبح من ينفردون به السرعة العجيبة، التي هي كلمح البصر أو أقرب، بحيث لا يتركونه ينطق بكلمة.

وقد بلغني — أيضًا — أنهم سلبوا حجاج الجاوة[12] بطريق جدَّة،[13] عند قفولهم[14] من مكَّة إلى أوطانهم، وأخذوا منهم نحو خمسة عشر ألف روبيَّة[15] خلاف المتاع، ووصل الخبر إلى شريف مكَّة، فصرف لهم هذا المبلغ على ما شاء، وأضمر لهؤلاء العرب الويل والتدمير والتنكيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

[8] يحنق: يغضب منه وينهره بالكلام.

[9] العشا: هو تناول وجبة العشاء.

[10] قرمانيًّا: نسبة إلى بلاد القرم. وهي شبه جزيرة قد احتواها البحر الأسود من جميع الجهات ما عدا الجهة الشمالية.

[11] كمسره: محفظة نقوده.

وفي يوم الخميس ٢٢ الحجة (٢٥ نوفمبر) صرفتْ مرتَّبات التكيَّة المصرية.
وفي يوم الجمعة ٢٣ منه (٢٦ نوفمبر) حصل قضاء بعض الشئون.

---

[١٢] حجاج الجاوة: أي حجاج أندونيسيا، نسبة لجزيرة جاوة والتي فيها مدينة جاكرتا عاصمة أندونيسيا في شرق آسيا.
[١٣] جُدَّة: مدينة جُدَّة.
[١٤] قفولهم: عودتهم.
[١٥] روبيَّة: إحدى العملات النقدية المتداولة في الهند وأندونيسيا.

واقعة غريبة ونادرة عجيبة

ولنذكر هنا واقعة غريبة ونادرة عجيبة، وهي أنه كان في الفقراء الذين قصدوا الحج برًّا من السُّويس، واتبعوا المَحْمَل على الأقدام، يقتاتون بصدقة الخاص والعام، رجل من دراويش الأعجام،[1] فقير الحال مكشوف الرأس، ليس في رجليه نعال، وما عليه من اللباس ولا معه إلَا خلقة مرقَّعة، فرقَّ لحاله أحد مستخدمي الصُّرَّة، وأحسن إليه بما يقيه البرْد ويستر منه العورة، وعند الوصول إلى العقبة، أنزله في البحر إلى الوجه، في مركب الشراع مع الفقراء مجانًا على الحكومة المصرية، التي لا يحصى مالها من الإحسانات والإنعامات الخيرية؛ وذلك لأجل عدم ازدحام الرَّكب بحمل المنقطعين منهم في البريَّة، وبوصول الرَّكب إلى قلعة المويلح كان مركب الشراع قد وصل إليه، فتخلَّص منه الدرويش بكل حيلة، وأتى عريانًا وملتجئًا إلى من ابتدأه بالجميلة، وأخذ يخدعه بأحاديث متنوعة، وأكاذيب مصطنعة؛ حتى رقَّ لحاله وكساهُ، وقرَّبهُ إليه وأحسن مثواه، وبما أن هذا الأفندي المحسن طاعن في السن، وبه رمدٌ مزمن،[2] طالما سأل عن علاجه كل كافر ومؤمن، اتفق أنه سأل هذا الدرويش عن مادة الإكحال،[3] لظنِّه أن هؤلاء الفقراء يحتوون من الصناعات على ما يغنيهم عن الأموال، وقد بلغه عنهم ما يذهب العقول، ويثبت ما ليس بمعقول، من

[1] الدرويش: هو الشخص الفقير الساذج. الأعجام: الفرس. حيث إن من عادة بعض الحجاج أنهم يرافقون المحمل المصري والشامي طلبًا للقوت والحماية.

[2] رمدٌ مزمن: الرَّمدُ من الأمراض التي تصيب العيون. مزمن: هو الذي يستمر مع الإنسان، مثل: مرض الربو والسكَّر والضغط.

[3] الإكحال: من الكحل.

دعوى الكيمياء الباطلة، التي من اشتغل بها أصبح والنعمة عنه زائلة، ففي الحال فطن الدرويش إلى مرغوب الأفندي ذي الإحسان، ومدح له كحلًا مركَّبًا من الميمران والذهب والكهرباء[٤] والمرجان،[٥] حتى خامر ذلك عقله، وتملَّك ذمامه،[٦] فاتخذ هذا الدرويش قدوته وإمامه، وزاد احترامه وإكرامه، كي ينال منه بالوصول إلى مكَّة مرامه.

ولما وصلا إليها، اشترى الأفندي له الميمران الهندي، والمرجان الغشيم،[٧] والكهرباء، ودفع إليه أربعة عشر مجرا ذهبًا؛ لكون هذا الكحل يدخل في تركيبه الذهب على ما قال، ويحتاج إلى عدة عقاقير وأوانٍ تُشترى في الحال، وتوجَّه إلى منزل الأفندي، ومكثَ فيه يومين معزَّزًا مكرَّمًا، آكلًا شاربًا منعَّمًا، يسحَق هذه العقاقير، ساترًا ما في الضمير، ثم في اليوم الثالث خرج من المنزل، بعلَة تكايس مجرات الذهب، فأخذ كل ما أحضره له الأفندي وذهب، ولما عيل صبر[٨] هذا الأفندي، وكلَّ بصره من طول الانتظار؛ لهذا الدَّجال الغدَّار، يئس من رجوعه، وألقى باقي العقاقير في النار، وصار يتحطط[٩] على هذا الدرويش، وأمثاله من الأشرار المدَّعين للأسرار، فاعتبروا يا أولي الأبصار، والحمد لله على خلاص الأفندي منه بهذا المقدار، ولو تمادى معه لباع الدار والعقار، فكم من غنيٍّ اتبع الدجَّالين فأصبح في الذِّل والافتقار، فليت كلًّا منا اعتبر بسير غيره واستقام، وحمد ربه وشكره على الدوام.

وفي يوم السبت ٢٤ منه (٢٧ نوفمبر) حصل قضاء أشغال.

---

[٤] الكهرباء: صمغ شجرة.

[٥] المرجان: صغار اللؤلؤ.

[٦] ذمامه: يريد أن يقول: زِمامه، بالزاي، وقد تقدَّم الكلام عن ذلك في بداية الرحلة.

[٧] الغشيم: الخام.

[٨] عيل صبر: نفذ صبره.

[٩] يتحطط: أي تغيَّرت نظرته لهؤلاء الناس، وصار يصفهم بالأوصاف التي يستحقونها. وهذه المواقف المخزية، من قبل من لا يخاف الله ولا يستحي، هي التي تقطع المعروف بين الناس، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

الاستعداد للرجوع من مكَّة

وفي يوم الأحد ٢٥ منه (٢٨ نوفمبر) نزل السَّيل[١] صباحًا بمكَّة، واستمر يهطل نحو ساعتين، وصار الناس يخوضون في الماء في الشوارع والأزقَّة.[٢]

وقبل ظهر هذا اليوم وَكَبَ المَحْمَل المصري من الحرم المكي إلى محطته خارج البلد، وطاف كل حاج طواف الوداع،[٣] واحتمل ما معه من المتاع، وتوجَّه إلى محطة المَحْمَل، فبات متأسفًا على مفارقة محل الرَّحمات، ولله درُّ من قال:

إلهي عبدك العاصي أتاك　　مقرًّا بالذنوب وقد دعاك

فإن تغفر فأنت لذاك أهلٌ　　وإن تطرد فمنْ يرحمْ سواك

---

[١] السَّيل: من خلال السياق يتضح أن الرَّحالة يقصد المطر.

[٢] الأزقَّة: مفردها زُقاق، وهو الممر أو الطريق الضيِّق.

[٣] طواف الوداع: آخر أعمال الحج، وهو واجب من واجباته. قال عنه ﷺ: «لا ينفرنَّ أحدٌ حتى يكون آخرُ عهده بالبيت». رواه مسلم (انظر: صحيح مسلم، ح١٣٢٧.) وليس للوداع سعي، ويسقط عن الحائض والنُّفساء. ومن أخَّر طواف الإفاضة، الذي هو ركن من أركان الحج إلى أن يسافر، فإنه يجزئ عن طواف الوداع.

المسير من مكَّة إلى المدينة

في يوم الإثنين ٢٦ منه (٢٩ نوفمبر) شُدَّت الأحمال على الجمال، وفي نهاية س٦ ق١٥ سار الرَّكبُ متَّكلًا على الرَّب المتعال، وفي س٣ وصل إلى العمرة، وفي س٥ ق٥٠ وصل إلى السيدة ميمونة (رضي الله عنها) زوج الرسول عليه السلام، وبعد استراحته نحو ربع ساعة جدَّ السَّير ووصل س٨ إلى وادي فاطمة، تابعًا لسير المَحْمَل الشامي، ومتأخرًا عنه بقدْر ثلث ساعة.

انتقاد إدارة المَحْمَل المصري

وكان سير الجمال بالرَّكب ضعيفًا؛ وذلك أنَّ الجمَّالة المصرية، المقاولين لحمل الرَّكْب والصُّرَّة، الذين هم من الحَجَّارة بمصر، غدروا الميري غدْرًا كبيرًا؛ لأنهم مع صرف علائق جمالهم إليهم كاملًا، مدَّة الإقامة بمكَّة، التي هي عشرون يومًا، أجَّروها إلى جُدَّة، لحمل بضائع التجَّار، واشتروا بثمن الإيجار جمالًا أخرى، وأشركوها مع جمالهم الأولى في عليق الميري، حتى اضْمحَلَّت من قِلَّة العلف، وصارت مهزولة، بحيث إن من ركبها عند الرجوع ولو ساعة، أدرك الفرق بين حالتها الأولى وحالتها عند الرجوع واضحًا، ومن اهتزاز جسمه واضطرابه صار صائحًا، وإن اشتكى من الجمال احتجَّ له الجمَّالون بالعلل الواهية في الحال؛ لأنه ليس عليهم رقيب ولا حسيب، يتعللون بثقل الأحمال، مع أنهم حملوها مع الفرح والمَسَرَّة في ابتداء الحال، ولا يزالون ينغِّضون[١] الرَّاكب مدَّة الطريق، ولولا خوفهم من سطوة الحكومة والعساكر التي مع الرَّكب لفعلوا أقبح مما يفعله جمَّالة العرب، ومنشأ ذلك تعيين متوظفين مستجدَّة[٢] للحاج في كل عام؛ لأن الأمير الجديد[٣] إذا كان ليس له بالطريق ولا بالعادات معلومية[٤] ولا إلمام، يترك المقصِّرين من المتوظفين على حالهم، ولا يجازيهم على التقصير في أشغالهم، كمحافظي القلاع، على عدم تطهير ونزْح الآبار

---

[١] ينغِّضون: أي لا يجعلون الحاج يهنأ بأي شيء. والتنغيض هو التكدير. نغَّض عليه عيشه تنغيصًا أي كدَّره، وتنغَّضتْ عيشتُه أي تكدَّرت. ونغَّض علينا: أي قطع علينا ما كان نحبُّ الاستكثار منه. وكل من قطع شيئًا مما يُحَبُّ الازدياد منه فهو منغِّض (انظر لسان العرب، ٧ / ٩٩، مادة نغض).

[٢] مستجدة: أي جدد، لذلك لا يحسنون إدارة المحمل؛ فتحصل الأخطاء المتكررة في كل موسم حج.

[٣] الأمير الجديد: أمير الحج الجديد.

[٤] معلومية: عِلمٌ.

التي في الطريق، مجاورة للقلاع، وتركها مردومة معطلة بدون انتفاع، ولا يسعى في إزالة بعض صعوبات للطريق، وتسهل إزالتها بدون تعويق، ويترك المقوِّمين يؤجرون جمال الميري[٥] بمكَّة بدون التفحص عليهم ومجازاتهم؛ لتحققه أنه ليس عائدًا في هذه الوظيفة بعد سنته؛ بل إنما يفتخر بكونه أمير الحاج، وكلما استحسنه برأيه فعله بدون معارض.

وأما الأمين، فليس عليه إلَّا خَتْم الكشوفات فقط إذ لا يعلم بحقيقة الحال، وكان ينبغي للروزنامجة أن تعطيه استمارة بما يخص مأموريته، والاطلاع على كلِّياتها وجزئياتها، ليكن على بصيرة، ولا تحيله على كاتب الصُّرَّة في هذه المعلوميات كما هو الجاري، فإنه في الطريق يبيِّن له البعض ويخفي عنه البعض، وكذا كان ينبغي لها أن تفرز[٦] المستخدمين بالصُّرَّة، نحو الفرَّاشين والسَّقائين والضوية والعكامة، من حيث لياقتهم لهذه السَّفريَّة[٧] وعدمها؛ لأن مقدمي هذه الطوائف متى تقيَّدوا بالروزنامجة قيَّدوا معهم أنفارًا حسبما اتفق؛ ليأخذوا من مرتَّباتهم ما أرادوا، ويترتب على ذلك تعطيل أشغالهم (في) أثناء الطريق.

وأما كاتب الصُّرَّة، فلمَّا كانت وظيفته دائمة على ممر السنين، صارت له معرفة تامة بالطريق وسكَّانها، وسلاطة[٨] على كافة الجمَّالة ونحوهم من المستخدمين، وعلى أغلب العربان ومن بالقلاع، بحيث إن أمره عندهم مسموع ومطاع، وله في الرَّكْب اليد العليا؛ لأن توزيع الصُّرَّة والعطايا بمعرفته، وبحسب دفتره.

وأما العساكر، فلعدم غيارهم[٩] ليس أحد منهم بشاكر، فالحاج في البرِّ يكابد أعظم المشاقِّ، ولا يعرف ذلك إلا مَنْ ذاق.

---

[٥] جمال الميري: الإبل الحكومية.

[٦] تفرز: فرز الشيء عزله عن غيره وميَّزه (انظر: مختار الصحاح، ١ / ٢٠٨، مادة: فرز).

[٧] السَّفرَة: الرحلة.

[٨] سلاطة: سلطة.

[٩] غيارهم: تغييرهم.

المبيت دون عُسْفان

في يوم الثلاثاء ٢٧ منه (٣٠ نوفمبر) في الساعة الأولى من النهار، سار الرَّكبُ ومعه كثير من الحجاج الأغراب، مقتفيًا أثر المَحْمَل الشامي، بمسافة نصف ساعة، وذلك لسهولة السَّير، وأخذ المياه من المحطَّات، بالرَّاحة بدون ازدحام، وكان الدَّرب بين جبال، وفي س٤ وصل إلى وادٍ متَّسع سهل ذي سنْط وحشائش، وفي س٦ ق٣٠ استراح بهذا الوادي، وفي س٧ ق١٠ أخذ في السَّير، وفي س٧ ق٥٥ وصل إلى بير الباشا، وفي س١٠ ق٤٥ مرَّ بسبيل الجوْخِي، وبعد الغروب بنصف ساعة، من ليلة الأربعاء، نزل قريبًا من المَحْمَل الشامي، متباعدًا نحو ساعة وربع عند محطة عُسْفان، وكانت هناك بِرَك[1] كثيرة من سيل نزل، وكان الجو باردًا رطبًا، ولعدم وجودنا الخيام منصوبة عند الوصول، كما كانت الأصول، وانتظارنا لنصبها نحو ساعة، ما بين العفش[2] والجمال، مع التعب وتشتت البال، حصل لنا توعُّك في الجسم، مكث معنا عدَّة أيام.

[1] برك: بكسر الباء وفتح الراء جمع بركة. والمقصود هي المستنقعات التي بقيت بعد المطر.

[2] العفش: الأمتعة التي يحملها معه المسافر.

عُسْفان – خُلَيْص

في يوم الأربعاء ٢٨ الحجة (١ ديسمبر) سار الرَّكبُ في الساعة الأولى من النهار، وفي س٢ ق١٥ وصل إلى محطة عُسْفان، وفي س٢ ق٣٥ استراح بالقرب من بوغاز[١] وادي عسْفان، وفي س٣ ق١٠ سار، وفي س٣ ق٣٠ مرَّ من أول البوغاز، وصعد بين تلال من الأحجار والزَّلط الكثير، وهذا البوغاز يضيق تارة ويتسع أخرى، وفي س٣ ق٥٠ مرَّ ببناء على يساره، وانتهى المنفذ إلى وادٍ متَّسع أرضه صلبة سهلة، وفي س٤ ق١٠ استراح، وفي س٤ ق٥٠ سار، وفي س٩ ق٢٠ نزل بمحطة خُلِيْص بضم الخاء وكسر اللام.[٢]

---

[١] بوغاز: كلمة تركية وتعني: الثغر. المضيق، النفق.

[٢] خُلِيْص: هكذا ضبطها محمد صادق باشا، والظاهر يجوز فيها فتح اللام وكسرها.

آبار الهندي (القَضَيْمَة)

في يوم الخميس ٢٩ منه (٢ ديسمبر) سار الرَّكبُ في الساعة الأولى بعد سير الرَّكب الشامي، وفي س٥ ق٤٥ استراح، وفي س٦ ق٢٥ سار في وادٍ متَّسع به درن،[١] واتجه نحو عشرين درجة إلى الغرب، وفي س٩ ق٥٥ مرَّ بمحطة آبار الهندي أو القضيْمَة، وفي س١١ ق٥٥ نزل بوادٍ متَّسع به زلط يسير، وهناك تشكَّى بعض الحجاج الأغراب، من جمَّالة الرَّكْب المؤجِّرين لهم من الخارج، بسبب ضعف الجمال، وعدم قوتهم على الأحمال.

[١] الدرن أو الدرين: نوع من العشب تأكله الإبل.

رابِغ

في يوم الجمعة غرَّة شهر محرم الحرام ١٢٩٨ (٣ ديسمبر ١٨٨٠م)، سار الرَّكْبُ بعد مضي ربع ساعة من أول النهار، وفي س٥ ق٥٠ نزل للاستراحة، وفي س٦ ق٣٠ سار، وبعد نصف ساعة من الغروب وصل إلى رابغ. وهذا التأخير سببه كثرة السيول في الطريق المعتادة، والسَّير في طريق أخرى، عارية عن السَّيل لارتفاعها، أبعد الأولى بساعة ونصف.

استلام المخصصات من مخزن رابِغ

وفي يوم السبت ٢ منه ٩٨ (٤ ديسمبر ١٨٨٠م)، استلم الخرْجَ كافةُ المستخدمين، ولعدم وجود الشعير بشونة[١] رابغ، صُرف للخيل فول عوضًا عن الشعير، كما حصل ذلك في مكَّة، ووجدت القنيطة معفِّنة ومُفَتَفَتَة![٢] وادَّعوا أن ذلك من كثرة الشَّيل والحَطِّ،[٣] ونزول الأمطار عليها عند ورودها من مصر، حتى تركها البعض لعدم الانتفاع بها. ولا يخفى ما في ذلك من الخسارة العائدة على الميري،[٤] فإنه أجرى تكاليف جسيمة لإرسال ما يلزم من مرتَّبات مستخدمي الصُّرَّة والمَحْمَل إلى القلاع التي يمرُون عليها، ولم يجر صرفُها كالواجب، بل صار كل من المخْزَنْجي النَّاظر[٥] يتصرَّف في أحسنها، ولا يجد المستخدمون عند مرورهم إلا فضلات من مفتت ومُعفِّن، فضلًا عن النقص في الأوزان، وتطفيف الكيل.

---

[١] الشونة: هي المخزن والمستودع.

[٢] مفتفتة: أي مفتتة.

[٣] الشَّيل والحطُّ: أي من كثرة حمل الأعلاف ووضعها؛ لذلك تفتتتْ ولا يُستفاد منها.

[٤] الميري: الحكومة.

[٥] المخزنْجي النَّاظر: مدير المخزن أو المستودع.

وادي حرشان

في يوم الأحد ٣ منه (٥ ديسمبر) سار الرَّكبُ س٣ ق٤٥، وفي س٤ خاض في سيل، ثم انحرف ما بين البحري والبحري الشَّرقي، وفي س٤ ق٣٠ استراح، وانتظر توجه الحاج الشامي إمامًا، وفي س٦ ق٤٥ جدَّ السير في وادٍ به زلَط وبعض أكَمَات من رمال، مع صعود وهبوط، وفي س١٢ مرَّ بتلال على اليمين، وفي الساعة الأولى من الليل نزل تحت سفح وادي حرشان.

بئر رضوان

في يوم الاثنين ٤ منه (٦ ديسمبر) بعد مضي خمس وأربعين دقيقة من النهار سار عن يمين تلال، وفي س١ ق٥ سار بين تلال عالية، وفي س١ ق٢٠ صعد إلى جبل لا يمرُّ منه إلَّا الجمل أو الجملان، وفي س١ ق٢٥ هبَطَ إلى وادٍ ذي رمل وتلال على اليسار، وفي س٣ ق٥٠ وصل إلى يمين جبل هرمي الشكل، وفي س٤ ق٢٠ استراح، وفي س٥ ق٢٥ سار شيئًا فشيئًا، ونفذ من منفذ يُسمَّى نقر الفار، يمرُّ منها الجمل فالجمل مع هبوط شديد، في محجر ضيِّق بين جبلين، طوله نحو مائتي متر، ثم اتسع الدَّرب بين الجبال، وفي س٥ ق٤٥ استراح لانتظار باقي الرَّكب، وفي س٧ ق١٥ سار في سنْط كثير، وفي س١٠ نزل بمحطة بير رضوان، في مكان متَّسع بين الجبال، ليس به مساكن، إنما فيه بئر واحدة، ماؤها عذْب، وقد اشتَّد البرد ليلًا، ولكون الترمومتر[١] الذي كان معي انجبر[٢] بمكَّة، ما أمكنني بعد ذلك معلومية درجة الجوِ على التحقيق.

[١] الترمومتر: مقياس الحرارة الزئبقي.

[٢] انجبر: لعلها مثل «انجمر» في لهجتنا السعودية الدارجة، وهو انفصال القضيب المعدني من قاعدته المتصلة به، أو أن الرحَّالة يريد أن يقول: كُسر. والسياق يدل على ذلك. والله أعلم.

أبو ضباع

في يوم الثلاثاء ٥ منه (٧ ديسمبر) سار الرَّكْبُ في س١ ق١٥، وفي س١ ق٤٠ مرَّ بزلط وحجارة، وفي س٢ مرَّ ببوغاز[١] عرضه خمسون مترًا بين جبلين مرتفعين قائمين أملسين، وبعد عشر دقائق قلَّ ارتفاعهما وتسلسلا في أرض وعرة ذات هبوط وصعود في محجر وزلط كثير مستمر، وفي س٦ استراح، وفي س٦ ق٥٠ سار، وفي س٩ ق٣٠ خفَّ الزَّلط نوعًا وسهل السَّير، وفي س١١ ق١٥ مرَّ بأكمات محجرة، ثم ببقعة بها نخيل بكثرة، وبيوت كبيوت الأرياف، وسوق يباعُ به التمر والأكياس الجلد المزخرفة المتنوعة من صناعة تلك الأراضي، وتسمَّى خرايز وقلص، وفي الساعة ١١ نزل بمحطة أبي ضباع،[٢] وبها عين ماء عذبةٌ جارية في آخر النخيل.

---

[١] بوغاز: هنا يريد المضيق.

[٢] أبو ضباع: بلدة من حواضر وادي الفرْع، على طريق الحاج، الذي يسمَّى الطريق الفرعي، وقد سلكه المحمل المصري والمحمل الشامي في طريقهما إلى المدينة في بداية سنة ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م. وأبو ضباع ضمن مجموعة من القرى والبلدات، مركزها الإداري في العهد السعودي بلدة الفقير. ويتبع وادي الفرع إمارة المدينة المنورة. وقد وصلت إلى الوادي جميع الخدمات، من تعليم وصحة وكهرباء واتصالات وطرق وغيرها. وقد زرت وادي الفرْع في ٥/١٠/١٤٢١هـ الموافق ٣١/١٢/٢٠٠٠م، وكانت رحلة ماتعة ولله الحمد، وسوف أنشرها بعد أن يكتمل نصاب الرحلات لدي إن شاء الله.

وادي الريَّان

في يوم الأربعاء ٦ منه (٨ ديسمبر) في الساعة الأولى سار الرَّكبُ في زلط كثير، وفي س٢ ق٣٠ مرَّ على نخيل بكثرة، وفي س٣ ق٣٠ ارتفعت جبال الطرفين، وصار عرض الطريق مائة متر وكسورًا، وفي س٥ كثر النخيل على الطرفين، ما بين الجبال والطريق، وهناك سوق يباع فيه التمر والأكياس والمخدَّات الجلد، وفي س٥ ق١٠ مرَّ بدرب المضيق،[١] عرضه عشرة أمتار بين النخيل، وبه سوق، وبأعلى الجبال من اليسار بيوت، وفي س٥ ق١٥ مرَّ على مجرى ماء بين النخيل، وفي س٥ ق٥٠ انتهت المزارع، وفي س٦ مرَّ بماء جار عرضه متر، ونزل الرَّكب للاستراحة إلى س٦ ق٥٠، ثم سار بين زرع وجداول ماء متباعدة بمسافات قليلة، وفي س٨ ق٣٥ انتهى كل من المزارع والجداول، واتسع الطريق بين جبال منخفضة عن ما قبلها، وفي س١١ ق١٠ نزل بوادي الرَّيان، بجوار نخيل وماء جار وبيوت وعشش وسوق.

[١] المضيق: بلدة تقع في لحف جبل آرة بوادي الفُرع لا تزال تعرف بهذا الاسم. وآرة: جبل يقابل قُدسًا، من أشمخ ما يكون من الجبال، أحمر، تخرُّ من جوانبه عيون، على كل عين قرية، فمنها: الفرع، وأمُّ العيال، والمضيق، والمحضة، والوبرة، والفغوة، تكتف آرة من جميع جوانبه، وفي كل هذه القرى نخيل، وهي من السُّقيا على ثلاث مراحل، من عن يسارها مطلع الشمس، وواديها يصب في الأبواء، ثم في وَدَّان (المغانم المطابة في معالم طابة، الفيروزآبادي، ٢ / ٥٨٢، بتصرف).

عَقَبَةُ رِيْع الخَيْف – الغدير

في يوم الخميس ٧ منه (٩ ديسمبر) سار بعد مضي خمسين دقيقة من الساعة الأولى بأرض أقل زلطًا مما قبلها، وفي س٣ كثرت أشجار السَّنط، وصار الطريق مشرقًا مبحرًا، وفي س٦ اتجه الرَّكب إلى بحري، ثم بعد ربع ساعة اتجه مشرقًا، وفي س٦ ق٤٠ اتجه مشرقًا مبحرًا وهناك عقبة ريْع الخيف[١] واستراح في ابتداء العقبة، وفي س٧ ق٣٠ سار، وصعد العقبة إلى أعلى جبل لا يمرُ منه إلَّا جملان فجَمَلان، وفي س٧ ق٤٥ وصل إلى سطح الجبل، في اتساع مستو، وبعد خمس دقائق هبط منه بسهولة، وفي س٨ ق١٠ انتهى الشوك المسمَّى بأم غيلان، وفي س٨ ق٢٠ وصل إلى وادٍ متَّسِع، وفي س٧ ق٤٥ استراح، وفي س٩ ق٥٠ سار، وفي س١٠ ق٤٠ نزل بالغدير، بجوار جبل هرمي، في وسط الوادي، وكان هناك سيل جار.

[١] ريع الخَيْف: الريع هو الطريق بين جبلين. الخيْف: ما ارتفع عن موضع مجرى السيل ومسيل الماء وانحدر عن غِلَظ الجبل، والجمع أخيافٌ. وهناك في الحجاز أكثر من موضع يسمَّى بالخيف، أشهرها خيف منى، وقد مرَّ الحديث عنه.

بئر العظم – بئر الماشي

في يوم الجمعة ٨ منه (١٠ ديسمبر) سار الرَّكبُ بعد نصف من الساعة الأولى، تاركًا الجبل عن يمينه، متَّبعًا لجهة الغرب حتى قطع الجبل، وفي الساعة ٢ ق٣٠ اتجه بين الشمال والغرب الشمالي، في أرض تارة يعلوها زلط خفيف وتارة رمل، ثم اتجه مبحرًا، وفي س٥ ق١٠ مرَّ بجبال على اليسار، وفي س٦ ق٢٠ وصل إلى محطة بئر العظم، وهناك بئر واحدة بجوار نخلتين ماؤها عذْب، وعلى بعد المائتي متر تقريبًا من جبل هرمي على يسارها، وفي س٦ ق٣٠ استراح، وفي س٧ ق١٥ سار، وفي س٩ ق٣٠ مرَّ بين جبال، واتسع الطريق من مائة متر إلى ثلثمائة متر متَّجهًا إلى بحري، وفي س١٠ ق٢٠ صار العرض تارة دون مائة وخمسين مترًا وتارة أكثر في سَنْط كثير، وفي س١١ ق٥٠ استراح، وفي نصف الساعة الأولى من الليل سار، وفي س٣ ق٣٠ وصل إلى العلواية، وهي مهبط منحدر، مستو بين جبلين، طوله مسافة ثلاث عشرة دقيقة، وفي س٤ ق٣٠ انتهت الجبال، وفي س٦ ق٣٥ هبط من محجر إلى تلال على الجانبين، وفي س٧ ق٣٠ نزل بمحطة بير الماشي،[١] وهناك بئر واحدة عذْبة، في بقعة محاطة بالجبال، بها مخزن كبير للغلال، وحرسه من أعراب المدينة.

[١] بير الماشي: تسمَّى الآن أبيار الماشي أو آبار الماشي، وهي قرية صغيرة على طريق الهجرة المزدوج، تبعد عن المدينة جنوبًا حوالي ٣٠ كيلًا.

ذو الحُلَيْفَة (آبار علي)

في يوم السبت ٩ منه (محرم ١٢٩٨هـ الموافق ١١ ديسمبر ١٨٨٠م) س١ ق٣٠ سار الرَّكبُ في طريق متَّسع، بوادٍ محاط بتلال به شجر وزلط، وهذه التلال تتقاطع تارة وتارة تتسلسل بجبال، وفي س٦ مرَّ على نخيل وآبار على اليمين وتوارت المزارع في بقع متقطِّعة يمينًا ويسارًا إلى س٧ ق٤٥، ونزل بمحطة آبار علي،[1] على يسار الطريق، في نخيل وآبار وبناء تعلوه قُبَّة، وهناك يلتقي الدَّرب السلطاني بالفرعي.

[1] آبار علي: هو ميقات ذي الحليفة، وهو لأهل المدينة ومن يمر به، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا وضع رجله في الغرز، وانبعثت به راحلته قائمة، أهلَّ من ذي الحليفة. رواه مسلم (انظر: صحيح مسلم، ح١١٨٧). ومن فضائل ذي الحليفة الواقعة في طرف وادي العقيق: عن عمر رضي الله عنه يقول: سمعت النبي ﷺ بوادي العقيق يقول: «أتاني الليلة آت من ربي، فقال: صلِّ في هذا الوادي المبارك وقل: عمرة في حجة». رواه البخاري (انظر: صحيح البخاري، ح١٤٦١). وصارت تعرف فيما بعد باسم آبار علي، ذكر ذلك المطري في القرن الثامن الهجري (انظر: التعريف بما أَنْسَت الهجرة من معالم دار الهجرة، جمال الدين المطري، ص١٦٧). وذكر ذلك — أيضًا — الجزيري في القرن العاشر الهجري (انظر: الدُّرر الفرائدُ المنظَّمة، ٢/١٤٠٢). وفي العهد السعودي، أصبحت آبار علي أحد أحياء المدينة، بعد أن وصل العمران إليها. وقد أمر الملك فهد بن عبد العزيز رحمه الله ببناء مسجد كبير في هذا الميقات، بدل المسجد القديم، مجهَّز بكافة التجهيزات التي يحتاجها الحاج والمعتمر والزائر. وقد تم الانتهاء من بناء مسجد ذي الحليفة عام ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

المدينة المنورة

العَنْبَرِيَّة

وفي س٨ ق٤٥ سار مبحرًا مشرقًا، وفي س١٠ ق٤٠ وصل إلى باب المدينة المنورة المسمَّى بباب العمبريَّة[١] غربي المدينة، وعلى يسار الداخل منه التكيَّة المصرية،[٢] وهي تكيَة طولها ٨٩ مترًا في عرض خمسين مترًا تقريبًا، مبنية للخيرات كالتي بمكَّة، ناظرها معيَّن من مصر، وبها مخازن وطاحون وأفران للخبيز ومطبخ، وجميع ذلك في غاية النظافة. وفي صبيحة كل يوم تأتي الفقراء إليها ليأخذوا الشوربة[٣] مع الخبز، وفي كل جمعة يطبخ لهم فيها أرز، وفي موسم الحج يجتمع فيها كل يوم ما ينيف على ستمائة فقير.

[١] العمبرية: العنبرية: أحد أحياء المدينة النبويَّة، وبها محطة القطار الحجازي.

[٢] التكيّة المصرية: بالعنبرية بالمدينة النبويَّة، ولا يزال يعرف مكانها إلى الآن، وهي من أوقاف والي مصر محمد علي باشا. والتكيَّة هو المكان الذي ينفرد فيه الإنسان لعبادة الله وحده، وفيما بعد صار هو المكان الذي توزع به الصدقات.

[٣] الشوربة: الحساء.

المَناخَة

والمتوجه من أمام التكيَّة للزيارة يصل إلى المناخَة،[1] وهي ميدان متَّسع، معدٌّ لقوافل الحاج، في غربيِّه جامع الغمامة المشهور، والعين الزَّرْقا،[2] وهي عين آتية إلى المدينة من الخارج، تنصبُّ[3] من عدَّة مجار في حوض منخفض عن سطح الأرض، أنشأها عبد الملك بن مروان[4] أحد خلفاء الدولة الأموية. وبالمدينة آبار كثيرة غير العيْن الزَّرقا.

---

[1] المناخَة: غرب المسجد النبوي، سُمِّيت بذلك لأن القوافل تنوِّخ جِمالها في هذا المكان ولا يزال الاسم متداولًا، وإن كان في طريقه إلى النسيان كغيره، والبقاء لله وحده.

[2] العين الزرقاء: تقع هذه العين جنوب مسجد قباء، ولا زالت تعرف بهذا الاسم، ولا زلنا نشرب منها ولله الحمد. وأول من أجرى هذه العين هو معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عام ٥١هـ/٦٧١م، والذي قام بهذا العمل عامله على المدينة مروان بن الحكم الأموي، وكان أزرق العينين، ولهذا سمِّيت بالعين الزَّرقاء، وعين الأزرق (انظر: التَّعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة، جمال الدين المطري، ص١٦٢).

[3] تنصبُّ: أي تصبُّ في حوض من خلال عدة مجار.

[4] الذي أجرى العيْن الزَّرقاء هو مروان بن الحكم كما مر معنا. أما عبد الملك بن مروان بن الحكم فيعده المؤرخون مؤسس الدولة الأموية الثاني. ولد عام ٢٦هـ/٦٤٧م، تولى الخلافة بعهد من أبيه عام ٦٥هـ/٦٨٥م، وهو أول من ضرب الدنانير وكتب عليها القرآن، وكتب عليها: ضُرِب بمدينة كذا، وقام بتعريب سجلات الدولة. توفي عبد الملك في عام ٨٦هـ/٧٠٥م. رحمه الله (انظر: تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص٢٤٤).

وصفُ المدينة المنورة

وشرقي المَناخَة الطوبخانة[1] وباب المدينة المسمَّى بالشامي، وبحريَّها فيه أماكن، وجامع الإمام علي رضي الله عنه. وقبليَّها سور المدينة،[2] وبابها المسمَّى بباب المصري، الذي يدخل منها المَحْمَل المصري إلى شارع غير منتظم، عرضه تارة أربعة أمتار وتارة أقلُّ، وعلى طرفيه دكاكين صغيرة مرتفعة عن الأرض بمتر تعلوها أماكن، ويمتد هذا الشارع على خط غير مستقيم نحو أربعمائة متر، وينتهي إلى باب الحرَم النبوي[3] المسمَّى بباب السلام، ويتصل بهذا الشارع أزقَّة موصلة لداخل المدينة عرض أغلبها متران، وفيه طريق موصل إلى باب الحرَم المعروف بباب الرَّحمة، وفيه دكاكين أيضًا. وبيوت المدينة كلها تجارية ليس لها أحواش[4] كبيوت مصر، وليست منتظمة،[5] وفيها قيعان ذات ليوانين كالطراز القديم بمصر،[6] إلَّا أنها صغيرة جدًا بالنسبة لقيعان مصر، وأغلبها طبقتان، ويوجد بها ثلاث طبقات، وأكثر شبابيكها خرط.

---

[1] الطوبخانة: من التركية، وهي مكونة من كلمتين: الطوب: المدفع. خانة: المكان أو المخزن. والكلمة مركبة تعني مخزن مدافع الجيش أو مكان سلاح المدفعية.

[2] سور المدينة: أول من بنى سورًا على المدينة النبويَّة هو الأمير إسحاق بن محمد الجعدي عام ٢٦٣هـ/٨٧٧م لحمايتها من تعديات قطاع الطرق وغيرهم. وجُدِّد هذا السور أكثر من مرة، كان أكبرها في عهد السلطان سليمان القانوني عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م، وهذا السور — أيضًا — جدِّد أكثر من مرة. وعندما وحَّد الملك عبد العزيز رحمه الله المملكة العربية السعودية عام ١٣٥١هـ/١٩٣٢م، ونشر فيها الأمن بفضل الله، لم تعد المدينة النبوية بحاجة إلى هذا السور، زد على ذلك أن سكان المدينة قد ازدادوا بشكل مطَّرد، فصار العمران خارج حدود هذا السور، عندها تمت إزالته في عام ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م (انظر: تاريخ معالم المدينة المنورة قديمًا وحديثًا، احمد الخياري، ص٣٦٣–٣٦٨).

وفي المدينة كثير من التَّكايا والزوايا، وتجارتها تُجلَبُ مع الحجاج من كل نوع، ويوجد بها من التمر أنواع شتَّى،[٧] والمدينة محاطة بنخيل كثير، وفواكهها نادرة، وبها نوع كالبرتقان[٨] يسمَّى ليم، في طعم النارنج، وبها الليمون المالح والحلو والجزر والفجل والبصل وبعض من الخضارات، وأما الحنطة فإنها تزرع بها، لكنها قليلة، وإنما تُجلبُ بعضًا للتُّجَّار، وبعضًا لمرتَّبات التَّكايا من مصر. وأما أسعار العملة فهي كما بمكَّة تقريبًا.

وأما أهل المدينة فهم في الأصل من الأنصار؛ ولكن الآن أغلب أهلها من ذُرِيَّة الهنود والأتراك المجاورين بها، وغيرهم من الغرباء.[٩]

---

[٣] الحرم النبوي: المقصود هو المسجد النبوي، وهذه هي التسمية الصحيحة للمسجد، أما الحرم النبوي أو حرم المدينة فهو ما بين لابتيها، ومن جبل عير إلى جبل ثور، وهو حرم الصيد كما جاء في الحديث.

[٤] أحواش: مفردها حوش، والحوش هو السور الذي يحيط بالمبنى.

[٥] ليست منتظمة: أي غير متساوية الأضلاع.

[٦] الليوان: غرفة مفتوحة من المقدمة بالكامل، تشبه الصَّالة، مُعَدَّة للجلوس.

[٧] أشهر أنواع التمر الذي بالمدينة: العجوة. الذي قال فيها الرسول ﷺ: «من تصبَّح سبع تمرات عجوة، لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر». رواه أبو داود وصححه الألباني (انظر: سنن أبي داود، ح٣٨٧٦). ومنه أيضًا: البَرْني، الحُلْوَة، العنبرة، الصِّقْعي، البيض، المبروم، نبتةُ علي، الصفاوي نُبوْت سيف، تمر شلبي، تمر قرويَّة. ومن أجود أنواع الرطب في المدينة: الرُّوثانَة.

[٨] البرتقان: فاكهة البرتقال.

[٩] مرت المدينة النبوية بتغيرات كثيرة في تركيبتها السكانية على مدى تاريخها. وفي العهد السعودي، وتحديدًا في عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م، استقرت كثير من الحواضر والقبائل العربية القريبة والمجاورة للمدينة في المدينة مثل: حرب، وجهينة، وبني رشيد، وعنزة، ومطير وغيرهم؛ بل أصبحت المدينة مفتوحة لجميع المسلمين من السعوديين وغيرهم، مما جعل التركيبة السكانية تتغير كثيرًا باستمرار. ويرتبط أهل المدينة النبوية مع بعضهم البعض، بادية وحاضرة، برباط الدين والأخوة والمحبة والمصاهرة ولله الحمد والمنَّة.

وصف المسجد النبوي وكيفية الزيارة

والزائر لرسول الله ﷺ[1] يدخل من باب السلام سائرًا في طُرْقَة مُتَّسعة مفروشة بالمَرْمَر تنتهي إلى ما وراء حُجرته ﷺ، وعلى يساره المسجد بعمدانه المزخرفة مفروشًا بالأبسطة الثمينة، وفيه المنبر والمحراب الشريف والروضة المطهَّرة، ويصطحب الزائر عند الدخول من باب السلام بأحد المُزُوِّرين أعني المرشدين للزوار على رسوم الزيارة، ولديهم أدعية

---

[1] زيارة المسجد النبوي للصلاة فيه سنَّة ثابتة، والصلاة فيه عن ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلَّا المسجد الحرام، ويشرع السفر للصلاة فيه؛ لقوله ﷺ: «لا تُشد الرحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى». رواه أبو داود. ولا علاقة لزيارة المسجد النبوي بالحج، وليست زيارته من مكمِّلات الحج، وليس لها وقت محدد، لكن من زاره قبل الحج أو بعده، أو في أي وقت من السَّنة، حصل له الفضيلة بإذن الله. وبعد أن يؤدي الصلاة فيه يذهب إلى قبر النبي ﷺ ويقف مقابله، ويقول: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. وإن قال الزائر في سلامه: «السلام عليك يا نبي الله، السلام عليك يا خيرة الله من خلقه، السلام عليك يا سيد المرسلين وإمام المتقين، أشهد أنك قد بلغت الرسالة، وأدّيت الأمانة، ونصحت الأمة، وجاهدت في الله حق جهاده.» فلا بأس بذلك لأن هذا كله من أوصافه ﷺ. ثم يتأخر قليلًا جهة المشرق، ويقف تجاه أبي بكر رضي الله عنه، ويقول السلام عليك يا أبا بكر الصديق ورحمة الله وبركاته. ثم يتأخر قليلًا جهة المشرق أيضًا، ويقف تجاه عمر رضي الله عنه، ويقول: السلام عليك يا عمر بن الخطاب ورحمة الله وبركاته. ثم ينصرف. وإذا أراد أن يدعو، فإنه يدعو في المسجد متجهًا إلى القبلة، ولا يتمسح بجدران الحجرة، ولا بشبابيكها، فإن هذا بدعة، وهو من وسائل الشرك، ولا يستغيث بالنبي ﷺ أو يطلب منه شيئًا، فإنَّ هذا شرك أكبر. ويزور مقابر البقيع، وقبور الشهداء في أُحُد للسلام عليهم، والدعاء لهم، والاعتبار والاتعاظ، ولا يدعو الأموات ولا يستغيث بهم؛ فإنَّ هذا شرك أكبر، ويزور مسجد قباء، ويصلي فيه اقتداء بالنبي ﷺ. وليس في المدينة مساجد أو أمكنة تشرع زيارتها غير ما ذكر (شرح مناسك الحج والعمرة على ضوء الكتاب والسنَّة، صالح الفوزان، ص١٣٧، بتصرف).

مأثورة، تُتلى ويدعى بها عند كل مشهد، والمزُوِّر بالمدينة كالمطوِّف بمكَّة، ولولاهما لم ينتظم للحجاج بهاتين البلدتين حال.[٢]

ويسير الداخل من باب السلام في الطُّرْقَة[٣] المذكورة، ويمرُ بين المنبر والمحراب، ويصلي ركعتين تحية المسجد بالروضة الشريفة،[٤] ثم يخرج من بين المحراب النبوي والمقام الشريف، ويدخل في الطُّرقَة المذكورة ويتوجه إلى شُبَّاك التوبة،[٥] وهو الشُّبَّاك المتوسط بين شباكين من نحاس، منقوش كالشَّبك، ومكتوب عليه آيات قرآنية، وذلك الشُبَّاك مواجه للقبر الشريف، يقفون أمامه للزيارة، وهو من ضمن أبواب الحجرة النبويَّة، ومكتوب على هذا الباب:[٦]

مَنْ عَوَّدَ النَّاسَ بإحسانه ... وعمَّ بالفضل جميع الأنام
تزاحم النَّاسُ على بابه ... والمنهلُ العذْب كثير الزِّحام

وبهذا الشُّبَّاك ثلاث طاقات[٧] مستديرة في اتساع اليد، يُرى من الأولى الكوكب الدُّرِّي المعلَّق على ستر المقام الشريف من داخل الحجرة على علوِ ذراع من الأرض؛ وهو قطعة ألماس كبيرة كبيضة الحمامة في وزن اثنين وتسعين قيراطًا، وبأسفله فصٌّ من زُمُرُّد كبير مُثمَّن، وهما في شبكة من الذهب معلَّقان بالمواجهة الشريفة، ومن تحتهما فجوة صغيرة

---

[٢] تقدم الحديث عن مهنة الطَّوَّافة. أما قول محمد صادق باشا: ولولاهما لم ينتظم للحجاج بهاتين البلدتين حال! فهو كلام غير دقيق، ولعله يقصد في ذلك الوقت تحديدًا؛ نظرًا للجهل السائد في بعض المجتمعات التي يحتاج فيها الحاج إلى دليل.

[٣] طُرْقَة: وهي الممر أو المسار.

[٤] قال النبي ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي».
رواه البخاري (انظر: صحيح البخاري، ح١١٣٨).

[٥] شبَّاك التوبة: روت عائشة وعبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». يُحذِّر ما صنعوا. رواه البخاري (انظر: صحيح البخاري، ح٤٢٥). وقال ﷺ: «اللهملا تجعل قبري وثنًا يُعبد، اشتدَّ غضبُ الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». رواه الإمام مالك (انظر: موطأ مالك، ح٤١٤). قال عنه الألباني في مشكاة المصابيح: إسناده صحيح. وشُبَّاك التوبة كان من البدع المحدثة في ذلك الوقت، وقد أزيلت هذه البدعة — ولله الحمد — بانتشار العلم الشرعي، وتطبيقه من قبل الدولة السعودية جزاهم الله خيرًا.

مستورة بستر المقام، يوضع فيها تراب الصَّندل في السابع عشر من ذي القعدة الحرام في كل عام،[8] وعند دوران الحول تقتسمه الأغوات،[9] ويُعطون من الزوَّار بقصد التَّبرُّك. ومن العاد الجارية في المدينة، أنهم يضعون في هذه الفجوة كل مولود يوم أربعينه، ويسبلون عليه السُّتُر، كما أهل مكَّة يضعون المولود كذلك على عتبة الكعبة المشرَّفة.[10]

والبرزخ الشريف بعيد عن الشُّباك بقدر أربعة أمتار، ويقف الزائر بعيدًا عن الشُّبَّاك المذكور بذراعين، واضعًا يديه على صدره خافضًا بصره داعيًا بما يلقنه المزُوِّر، ثم يتقدم خطوة إلى اليمين حتى يحاذي الدائرة الثانية، وهي بمواجهة الصَّدِّيق الأعظم رضي الله عنه، ويدعو، ويتزحزح إلى اليمين خطوة، ويحاذي الدائرة الثالثة، المواجهة للفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويسلِّم ويدعو كذلك. ثم يتوجه لشرق المقام من الطُّرْقة الثانية أمام الشُّبَّاك الوسطاني[11] من الثلاثة شبابيك؛ التي هي شبابيك مهبط الوحي.

والستائر المحيطة بالمقام الشريف تُرى من جميع هذه الشبابيك، والستائر المذكورة مسدولة إلى الأرض موصلة بمحيطة قاعد القبَة الشريفة،[12] بحيث لا يرى الزائرُ القُبَّة من

---

[6] هذه الأبيات لا تليق إلَّا بالله عز وجل، ولا يصح أن توجه للنبي ﷺ. قال ﷺ: «لا تطروني، كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله» رواه البخاري (انظر: صحيح البخاري، ح٣٢٦١). وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن رجلًا قال يا محمد، يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا. فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، قولوا بقولكم، ولا تستجرينكم الشياطين.» وفي رواية: ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، وما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل». رواه النسائي وصححه الألباني (انظر: سنن النسائي الكبرى، ح١٠٠٧٧). وعن مطرِّف قال: قال أبي: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «السَّيد الله [تبارك وتعالى]» قلنا: وأفضلنا فضلًا، وأعظمنا طولًا، فقال: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان». رواه أبو داود. وصححه الألباني (انظر: سنن أبي داود، ح٤٨٠٦).

[7] طاقات: جمع طاق أو طاقة، وهي الفتحة في الجدار، وتُطلق على النافذة.

[8] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم». رواه أبو داود وصححه الألباني (انظر: سنن أبي داود، ح٢٠٤٢).

[9] الأغوات: مجموعة من الخصيان الذين يشتغلون في خدمة المسجد النبوي وحراسته. ويُروى أن أول من وضعهم في المسجد النبوي هو نور الدين رحمه الله في أول دولة الأكراد، وقيل: صلاح الدين الأيوبي رحمه الله في أيام ولايته (انظر: مرآة الحرمين، إبراهيم رفعت باشا، ١ / ٤٥٩). وفي العهد السعودي ألحقوا برئاسة المسجد الحرام والمسجد النبوي، وهي التي تدفع لهم الرواتب، ولا يزال لهم بقية إلى يومنا هذا.

داخل الحرم أيًّا كان، وعند هذا الشُّبَّاك يُسلِّم على الملائكة الأربعة الكرام، ويدعو، ويتقدم يمينًا إلى الشُبَّاك الثالث، ومنه إلى باب يقال له: باب السيدة فاطمة، ويسلِّم ويدعو، وبجواره البقعة التي سيدفن فيها عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام بعد نزوله من السماء.[١٣] والسيدة فاطمة رضي الله عنها لم تكن مدفونة بتجاه هذا الباب، وإنما هو من جملة أبواب الحجرة الشريفة تسمَّى بها، وهي مدفونة بالبقيع بجوار العبَّاس عمِّ النبي ﷺ على القول الصحيح. وهذا الباب معدٌّ للدخول إلى الحجرة النبويَّة في كل ليلة للخدمة، ثم بعد أن يدعو الزائر هناك، يستدبره ويسلِّم على أهل البقيع ويدعو؛ لأن البقيع من وراء هذه الجهة، خارج المدينة، معدٌّ لدفن أمواتها، ثم يلتفت إلى شماله، ويستدبر القبلة، ويستقبل جبل أحد، ويسلِّم على حمزة عم النبي ﷺ، وعلى الشهداء ويدعو، ثم يرجع القهقرى[١٤] إلى مبدأ هذه الجهة حتى يأتي قِبلة المَدْعَى، فيدعو الله بما شاء بدون واسطة المزوِّر، ثم يستدير على يمينه حتى يواجه الشُّبَّاك النبوي، ويسلِّم، ويدعو ثانيًا، ويلتفت خلفه، ويتوجه إلى محراب سيدنا عُثْمان بن عفَّان رضي الله عنه، وهو في الحائط التي عن يمين الطُّرقة المبدوأة[١٥] من باب السلام، ويدعو، وبذلك تتم الزيارة.

ثم يدخل الحرم ويزور محل الجِذْع،[١٦] وهو جذْعٌ كان النبي ﷺ يخطب عليه قبل اتخاذ المنبر الشريف، وبعد اتخاذ المنبر حنَّ ذلك الجذْعُ لفراقه، وبقي هناك مدَّة بعد وفاته ﷺ، ثم أحرز في هذا المحل بجوار المحراب.[١٧]

---

[١٠] هذا من البدع المنتشرة في ذلك الوقت، وهو خلاف السُّنة. وأحكام المولود كالآتي: تحنيكه بتمرة تمضغ وتوضع في فيِّ الطفل، وتسميته باسمٍ لائق، وحلق رأسه والتصدق بوزنه من الفضة، أو ما يعادل ذلك من العملات النقدية المتداولة، والعقيقة، وهي ذبح شاتين عن الذكر وشاة عن الأنثى، وختانه، والختان في حق الذكر واجب.

[١١] الوسطاني: الأوسط.

[١٢] وبعبارة أخرى: موصلة بمحيط قاعدة القبَّة الشريفة.

[١٣] قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله: الأحاديث الواردة في دفن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام في حجرة النبي ﷺ، بعد نزوله آخر الزمان وموته، كلها ضعيفة (انظر: مجموع فتاوى ابن باز، ٢٦ / ٢١٩).

[١٤] القهقرى: الرجوع إلى الوراء.

ثم يتوجه لزيارة المحراب والمنبر والروضة، ويصلي بها ركعتين، ويميل لزيارة المصحف العثماني من وراء الشبكة، وهو موضوع على رَحْلَة، على يمين الداخل للحجرة الشريفة من باب الوفود، ولا يُفتح هذا المصحف إلَّا عند حادث عظيم كحرب أو وباء، فتجتمع العالم[١٨] بالحرم، ويدخلون بالحجرة من الباب الشامي لهذا المقصد، ويفتحون المصحف ويقرؤن[١٩] فيه ما تيسَّر من القرآن. وهذا المصحف أحد المصاحف السبعة الأولى التي استُكْتبت عند جمع القرآن الشريف من أفواه حملته، وهذا المصحف هو الذي قُتل عثمان بن عفَّان رضي الله عنه وهو في حجْره، ووقع دمه فيه، على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٣٧). وباق به هذا الأثر إلى الآن.

---

[١٥] المبدوأة: المبدوءة.

[١٦] هذه الزيارة من قبيل المعرفة والاطلاع، وليست من قبيل العبادة المشروعة، وقس على ذلك زيارة المساجد والآثار الموجودة في مكَّة والمدينة، حيث إن زيارتها من المباحات، بشرط أن لا يُبنى عليه عبادة غير مشروعة، ولا يعبد الله عز وجل إلا بما شرع كما هو معلوم، وشروط العبادة المقبولة كالآتي:

(١) الإخلاص، قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه». رواه مسلم.

(٢) المتابعة، قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». رواه البخاري ومسلم. رد: أي مردود عليه قوله وعمله واعتقاده؛ لذلك يجب على وزارة الشئون الإسلامية، والمعنيين بالسياحة والآثار في المملكة العربية السعودية، أن يهتموا بالآثار، خاصة التي في مكَّة والمدينة، وأن يضعوا لها الخرائط التي تدل السائح والزائر عليها، وتقديس الجهَّال لها لا يبرر لنا إهمالها وعدم الاعتناء بها، والجهل يعالج بالعلم والتوعية الشرعية الصحيحة المستمدة من الكتاب والسُّنَّة وفهم السلف الصالح رحمهم الله جميعًا.

[١٧] ومن أخبار هذا الجذع: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنها قال: كان المسجد مسقوفًا على جذوع من نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلمَّا صنع له المنبر، وكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكنت. رواه البخاري (انظر: صحيح البخاري، ح٣٣٩٢). وروى ابن ماجه رحمه الله أنه بعد توسعة المسجد النبوي، أخذ ذلك الجذع أُبيُّ بن كعب رضي الله عنه، وكان عنده في بيته حتى بلي، فأكلته الأرضه، وعاد رفاتًا. انظر: سنن ابن ماجه، ١٤١٤.) وقال عنه الألباني: إسناده حسن.

[١٨] العالم: أي الناس.

[١٩] يقرؤن: يقرؤون، وتكتب —أيضًا— الهمزة على السطر هكذا: يقرءون.

ومن أراد دخول الحجرة الشَّريفة؛ يتيسَّر له ذلك بواسطة الأغوات، قبل الغروب، بنيَّة إيقاد الشمع، ويلبسونه أثوابًا من أثوابهم بيضاء. وأما زيارة أهل البقيع وحمزة رضي الله عنه فقد جُعلت في الحرم؛ تسهيلًا على المسافر.[٢٠]

وللحجرة أربعة أبواب، باب صغير في شبَّاك التوبة، وباب السيدة فاطمة، والباب الشامي، وباب الوفود، ومن هذا الباب كان النبي ﷺ يخرج للصلاة بالحرم، وهذه الحجرة في بيت السيدة عائشة رضي الله عنها.

والحرم النبوي مزخرف، موضوع بشكل جميل، طوله من داخل ١٥٥ ذراعًا معماريًّا، وعرضه من القبلة ١٥٥ ذراعًا، ومن البحري ٨٨ ذراعًا، وأحجاره من جبل بالقرب من المدينة، وعواميده مُجصصة مغطاة بأدهان ونقوش، ولم تكن أعمدة من رخام؛ لعسر نقلها من محلها، وأرضه مفروشة بالبُسط الثِّمان،[٢١] وله بابان من الجهة الشرقية؛ وهما: باب السلام، في ابتداء الجدار الغربي من زاويته القبلية، وفوقه مأذنة،[٢٢] ويبتدئ الزائر بالدخول منه، وفي وسط هذه الجهة الباب الثاني، وهو باب الرَّحمة، وخارجه مأذنة صغيرة، وحنفيَّات[٢٣] للوضوء، ويمكن للزائر أن يدخل من هذا الباب، إلَّا أنه يميل على يمينه، ويسير في الطُّرْقة الموصلة إلى باب السلام، ويدخل في طُرْقته، ومنها يتوجه للزيارة كما سبق.

وبابتداء الحائط الشرقية مأذنة تواجه باب السلام، وبهذا الحائط الشرقي بابان: أحدهما باب جبرائيل، أمام باب السيدة فاطمة، والآخر باب النساء، مواجهًا لباب الرَّحْمة، والجدار البحري في كل طرف منه منارة، وفي وسطه باب التوسُّل، فبذا يكون بالحَرَم خمس مآذن وخمسة أبواب.

---

[٢٠] من السنَّة زيارة قبر النبي ﷺ، وزيارة البقيع، وزيارة شهداء أحد، إنما تكون الزيارة بالذهاب إليهم، والسلام عليهم، والدعاء لهم، لقوله ﷺ: «إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها». رواه النسائي وصححه الألباني (انظر: السنن الكبرى، ح٥١٦٢). وفي رواية عند الترمذي وغيره: «فإنها تُذكِّر الآخرة» (انظر: سنن الترمذي، ح١٠٥٤). وهذا الترخيص ناسخ لما قبله، وهو عام للرجال والنساء كما قال أهل العلم. والله أعلم. أما ما يقوله محمد صادق باشا رحمه الله فليس بمشروع وخلاف السنَّة. وقد مرت معنا شروط قبول العبادة.

[٢١] البسط الثِّمان: السُّجاد الفخم غالي الثَّمن.

[٢٢] مأذنة: مئذنة.

[٢٣] حنفيَّات: جمع حنفيَّة وهو الصنبور.

وفي وسط الحرم صحن يقال له: الحصوى،[٢٤] به جنينة صغيرة،[٢٥] بها بئر ونخل، تسمَّى بجنينة السيدة فاطمة.

والحرمُ تغلق أبوابه في الساعة الثالثة من الليل، في غير موسم الحج، ولا يبقى به إلَّا الأغوات المختصة بالخدمة.[٢٦]

وبالحَرَم حَمامٌ كحمام حرم مكَّة محرَّمٌ صيده وقتله.

وأدعية الزيارة موضوعة بالرحلة التي طبعناها سابقًا فلتراجع.

وقد تيسَّر لي أخذُ خريطة الحرم السطحية بالضبط والتفصيل، وأخذتُ — أيضًا — رسْم المدينة المنورة بالفطوغرافيا، مع قبَّة المقام الشريف والخمس منارات، وقد أخذتُ منظر القُبَّة الشريفة من داخل الحرم،[٢٧] وأخذتُ — أيضًا — صورة سعادة شيخ الحرم وبعض أغوات الحجرة الشريفة، وما سبقني أحد لأخذ هذه الرسومات بالفطوغرافيا أصلًا.[٢٨]

---

[٢٤] الحصوى: الحصوة؛ لأن هذه الساحة مفروشة بالحصى الصغير الأملس. وإلى عهد قريب ١٤١٥هـ/١٩٩٥م كنا نتفق نحن وأصحابنا أن الملتقى بعد صلاة المغرب في الحصوة الأولى أو الثانية، إلَّا أن هذا الاسم قد دخل في عالم النسيان، خاصة بعد توسعة الملك فهد رحمه الله للمسجد النبوي، والبقاء لله وحده.

[٢٥] جنينة صغيرة: حديقة صغيرة. وقد أزيلت في التوسعة السعودية الأولى.

[٢٦] بقي هذا العرف سائدًا إلى أن أَمَّ خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود — حفظه الله — في عام ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م بأن يبقى المسجد النبوي مفتوحًا دائمًا للحجاج والمعتمرين والزوَّار.

[٢٧] هذا الذي ينقله لنا الرَّحالة محمد صادق باشا من وصف المسجد النبوي الشريف، هي توسعة السلطان العثماني عبد المجيد، التي بدأت في عام ١٢٦٥هـ/١٨٤٩م، وانتهت في عام ١٢٧٧هـ/١٨٦١م (انظر: مرآة الحرمين، إبراهيم رفعت باشا، ١ / ٤٦٥). وفي العهد السعودي أمر الملك عبد العزيز بتوسعة المسجد النبوي في عام ١٣٧٠هـ/١٩٥١م، وأتمها ابنه الملك سعود عام ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م، وانتهت في عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م. وفي عهد الملك فيصل عام ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، والملك خالد عام ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، تمت توسعة المسجد النبوي وذلك بزيادة الساحات المحيطة بالمسجد، وتغطيتها وتزويدها بجميع الخدمات (انظر: عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي في العهد السعودي، د. عبد اللطيف بن عبد الله بن دهيش ص٣٠٧ وص٣٤١). وفي عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م قام خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بوضع حجر الأساس لأكبر توسعة تاريخية للمسجد النبوي، والتي انتهت بفضل الله عام ١٤١٤هـ/١٩٩٤م. وفي عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م تمت توسعة الساحة الشرقية للمسجد النبوي، وتغطية جميع الساحات المحيطة بالمسجد بالمظلات المتحركة.

وبجوار الباب المصري بالمَناخة دكاكين[29] وقهاوي[30] من أخشاب وسوق للغلال[31] والمواشي،[32] ومن المناخة يرى داخل سور المدينة قُبَّة بيضاء، وهي مقام سيدي أبي سعيد مالك بن سنان[33] صاحب لواء رسول الله ﷺ يوم أحد.[34]

---

[28] صدق محمد صادق باشا رحمه الله.

[29] دكاكين: محلات تجارية.

[30] قهاوي: مقاهي، مفردها مقهى. وهي التي تقدم فيها القهوة والشاي.

[31] الغلال: المواد الغذائية من قمح وأرز وغير ذلك.

[32] المواشي: الإبل والغنم والبقر وغيرها.

[33] مالك بن سنان: استشهد في معركة أحد عام ٣هـ/٦٢٥م.

[34] وقعت معركة أحد في شهر شوال من عام ٣هـ/٦٢٥م. وقد تحدث عنها الشيخ صفي الرحمن المباركفوري رحمه الله في كتابه: الرحيق المختوم. وهو بحث في السيرة النبوية حائز على جائزة رابطة العالم الإسلامي عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م. فليراجعه من أراد أن يعرف تفصيلات هذه المعركة.

المَحْمَل المصري في المسجد النبوي

في يوم الأحد ١٠ منه (١٢ ديسمبر) وكبَ المَحْمَل س٣، وأمامه الأمير والأمين ومحافظ المدينة والضباط والعساكر الخيَّالة صَفَّيْن، من باب العمبرية، مارًّا أمام التكيَّة، ثم جامع الغَمامة بالمَناخة، حتى وصل إلى الباب المصري، فترجَّل الراكبون، وأمسك الأمراء والمتوظفون بشرابتي زِمام جمل المَحْمَل، ودخلوا من الباب، والمَحْمَل خلفهم سائرًا رويدًا رويدًا؛ لضيق الطريق، يتبختر كالعروس، فيا له من يوم فرحت به النفوس، وقد تعطَّر الطريق بالبخور وبإعلان الصلوات والتسليمات انشرحت الصدور، إلى أن وصل إلى باب السلام، وصعد الجمل على السُّلَّم، وبرك عند العتبة في متَّسع بقدرِ مبرَكِه مع الرَّاحة، ثم رُفع المَحْمَل من فوقه، وأدخل الحرم إلى محله المعتاد سنويًّا بالقرب من المنبر النبوي، وطُويت كسوته بمفرداتها، وحملها بعض المستخدمين وأغوات الحجرة الشَّريفة، بعد أن لبس كل منهم جبَّة بيضاء وحزامًا وعمامة كذلك، ودخلوا إلى الحجرة النبويَة من الباب المسمَّى بالشامي، وتركوها في بقْعة السيدة فاطمة رضي الله عنها، بجوار باب ضريحه الشريف. وأما البيرق[1] بجوار الفجوة الكائنة عند الرأس الشريف وتُرِك هناك، وبعد أن دعوا الله مخلصين، خرجوا من باب السيدة فاطمة مسرورين، وعند قيام الحاج المصري من المدينة، يخرجون كسوة المَحْمَل مع البيرق من الحجرة، ويوكبونه من باب السلام، ويمر بالشارع، ويخرج من حيث أتى.

[1] البيرق: الراية، العَلَم.

وقد قلتُ عند وصولي للمدينة، متوسِّلًا بساكنها عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام شعرًا:[٢]

أنا عبد أتيتك اليوم أرجو منك فضلًا شفاعة عند ربك
يا حبيب الإله أنت شفيعي وشفيع لكل عبد محبك

[٢] روت عائشة وعبد الله بن عبَّاس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». يحَّر ما صنعوا. رواه البخاري (انظر: صحيح البخاري، ح٤٢٥). وقال ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتدَّ غضبُ الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.» رواه الإمام مالك (انظر: موطأ مالك، ح٤١٤). قال عنه الألباني في مشكاة المصابيح: إسناده صحيح. لذلك يجب أن يكون الطلب مباشرة من الله عز وجل دون واسطة من أحد، وإلّا وقع الإنسان في الشرك، الذي ما بُعث الأنبياء والرسل إلّا من أجل توحيد الله عز وجل. ومحبة الرسول ﷺ تكون باتباع سنَّتهُ، من خلال الكتاب والسُّنَّة وفهم السلف الصالح.

البقيع والمزارات

ومن بعد الخروج من الحرم النبوي، يتوجه الحاج لزيارة عبد الله، والد النبي ﷺ، وهو مدفون داخل المدينة، في دار مالك، أحد أخواله، ومنه يتوجه إلى البقيع، وبه مزارات آل البيت، والشهداء، وأولاد النبي ﷺ، وهم: زينب وفاطمة وإبراهيم والقاسم والطاهر والطَّيب.[1] وبه من أزواجه الطاهرات التي توفي عنهن:[2] عائشة وحَفْصة ورَمْلَة وسُوْدة وصفيَّة وأم سلمة وزينب وأم حبيبة، وأما ميْمُوْنة، فمدفونة بطريق مكَّة. ولله درُّ من قال:

آل بيت النبي إني محب   وجزاء المحبة الإكرام
فاز من زار حيَّكم آلَ طه   وتناءت عنه الكروب العظام
حاشَ لله أن تردوا محبًّا   وهو فيكم متيَم مستهام
أنتم القوم جودكم لا يُضاهى   وعُلاكم لغيركم لا يرام

[1] أولاد الرسول ﷺ سبعة وهم: القاسم، وهو الذي يكنَّى به الرسول ﷺ، وعبد الله (ويقال له: الطاهر والطَّيب)، وإبراهيم، وكلهم ماتوا صغارًا رضي الله عنهم. أما البنات فهنَّ: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة. رضوان الله عنهن جميعًا. وجميع أولاده ﷺ من خديجة رضي الله عنها إلَّا إبراهيم فإنه من مارية القبطيَّة المصرية رضي الله عنها، الجارية التي أهداها له المقوقس حاكم مصر، وتسرَّى بها الرسول ﷺ. وليس له من بقية زوجاته ذرية ﷺ.

[2] زوجات الرسول ﷺ هنَّ: خديجة بنت خويلد. سودة بنت زمعة. عائشة بنت أبي بكر الصِّديق. حفْصة بنت عمر بن الخطاب. زينب بنت خزيمة. أم سلمة هند بنت أمية. زيْنب بنت جحش. جويرية بنت الحارث. صفيَّة بنت حيٍّ بن أَخْطَب. أم حبيبة رمْلة بنت أبي سفيان. ميموْنة بنت الحارث. رضوان الله عنهن جميعًا.

وبه — أيضًا — مقام العبَّاس،[٣] وعقيل،[٤] والحسن بن علي،[٥] وسفيان،[٦] وعبد الله بن جعفر الطيَّار،[٧] وعائشة وصفيَّة عمتيَّ[٨] النبي ﷺ، وسعد[٩] وسعيد[١٠] والزُّبير،[١١] وهؤلاء الثلاثة من العشرة المبشَّرين،[١٢] وعثمان بن عفَّان،[١٣] وحليمة السَّعديَّة[١٤] مرضعة النبي ﷺ، وكذلك قبر الإمام مالك،[١٥] ونافع شيخ القرَّاء،[١٦] وإسماعيل بن جعفر الصَّادق،[١٧] وأبي سعيد الخُدْري،[١٨] ولكل منهم مزار مشهور. وهناك قبَّة تسمَّى قبَّة الحزن،[١٩] تنسب إلى السيدة فاطمة بنت النبي ﷺ. وزيارة البقيع يوم الخميس.[٢٠] والبقيع مدفن أموات المدينة، خارج عن سورها من الجهة الشرقية، ومحاط بسور، وبه قببٌ للمزارات المشهورة،[٢١] ويوضع على القبور ريحان، بدل الخوص بمصر.[٢٢] ومن وراء البقيع يُرى الوادي كالبساتين مزيَّنًا بالنخيل.

ومن العوائد الجارية[٢٣] بالمدينة قديمًا، أن كل شخص من الشيعة لا يدخل قبَّة أهل البيت بالبقيع للزيارة إلَا إن دفع خمسة غروش، كما أنه يؤخذ بمكَّة من كل من يريد أن

---

[٣] العبَّاس: العبَّاس بن عبد المطلب، عم الرسول ﷺ. توفي عام ٣٢هـ/٦٥٣م رضي الله عنه.

[٤] عقيل: عقيل بن أبي طالب، توفي عام ٤٩هـ/٦٦٩م رضي الله عنه.

[٥] الحسن: الحسن بن علي بن أبي طالب. مات مسمومًا عام ٤٩هـ/٦٦٩م رضي الله عنه.

[٦] سفيان: المقصود — والله أعلم — هو: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ابن عم الرسول ﷺ. توفي عام ٢٠هـ/٦٤١م رضي الله عنه.

[٧] عبد الله بن جعفر الطيَّار: توفي عام ٨٠هـ/٦٩٩م رضي الله عنه.

[٨] كذا في النسخة التي بين يدي، والصواب هكذا: عاتكة وصفيَّة عمتيَّ النبي ﷺ. وللفائدة فإن عمَّات النبي ﷺ هنَّ: أم حكيم البيضاء، أرْوى، أميمة، عاتكة، برة، صفيَّة. بنات عبد المطلب بن هاشم.

[٩] سعد: سعد بن أبي وقَّاص، توفي عام ٥٥هـ/٦٧٤م رضي الله عنه.

[١٠] سعيد: سعيد بن زيد بن عمرو، توفي عام ٥١هـ/٦٧١م رضي الله عنه.

[١١] الصحيح أن الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه قد قُتل بالقرب من البصرة في العراق ودفن هناك في رجب عام ٣٦هـ/٦٥٦م (انظر: سير أعلام النبلاء، ١ / ٤١). وفي رجب عام ٩٧٩هـ/١٥٧١م أمر السلطان العثماني سليم خان الثاني ببناء مسجد بجانب قبر الزُّبير رضي الله عنه، الذي أصبح هذا المسجد — فيما بعد — نواة لمدينة الزُّبير المعروفة في جنوب العراق (انظر: إمارة الزُّبير بين هجرتين، عبد الرازق الصانع وعبد العزيز العلي، ١ / ٤٥).

[١٢] المبشَّرين: أي بالجنَّة رضوان الله عليهم جميعًا.

[١٣] عثمان بن عفَّان: ثالث الخلفاء الراشدين، قتل في عام ٣٥هـ/٦٥٦م، رضي الله عنه.

[١٤] لم أجد دليلًا صحيحًا صريحًا يؤكد أن حليمة السعدية دفنت بالبقيع. والله أعلم.

يدخل الكعبة للزيارة، شيعًا أو سنيًّا ريال، إن لم يكن ذا ثروة وإلَا أخذوا منه مبلغًا كبيرًا، وكذا بالمدينة الأغوات المنوطون بخدمة الحجرة الشريفة، يأخذون ريالًا من كل شخص يريد دخولها، وذلك قبل الغروب بساعة عند إيقاد الشموع.

ومن بحري المدينة[٢٤] بعيدًا عنها بخمس وأربعين دقيقة جبل أحد،[٢٥] يتوجهون إليه لزيارة مقام سيدنا حمزة[٢٦] وشهداء أحد رضي الله عنهم.[٢٧]

وبقِبلي المدينة بنحو نصف ساعة مسجد قباء، يتوجهون لزيارته وزيارة ما حوله، وهو أول مسجد بني في الإسلام.[٢٨]

وفي يوم الإثنين ١١ محرم (١٣ ديسمبر).

---

[١٥] الإمام مالك: هو إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي، وإليه ينسب المذهب المالكي في الفقه، وله كتاب الموطأ. والإمام مالك صاحب الكلمة المشهورة عندما قال وهو في المسجد النبوي: كُلٌّ يؤخذ من قوله ويرد إلَّا صاحب هذا القبر. يقصد الرسول ﷺ. توفي الإمام مالك بالمدينة ودفن بالبقيع عام ١٧٩هـ/٧٩٥م رحمه الله رحمة واسعة (انظر: سير أعلام النبلاء، ٨/ ٤٨).

[١٦] نافع: هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم، أصله من أصفهان، قال عنه الإمام مالك: نافع إمام الناس في القراءة. توفي نافع عام ١٦٩هـ/٧٨٥م بالمدينة ودفن بالبقيع رحمه الله، وراوياه هما:

- عيسى بن مينا ولقبه: قالُوْن.
- وعثمان بن سعيد ولقبه: ورش (انظر سير أعلام النبلاء، ٧/ ٣٣٦).

[١٧] إسماعيل بن جعفر الصادق: توفي شابًّا في حياة أبيه عام ١٣٨هـ/٧٥٥م ودفن بالبقيع رحمه الله (انظر: سير أعلام النبلاء، ٦/ ٢٦٩).

[١٨] أبو سعيد الخدري: هو سعد بن مالك بن سنان الخزرجي الأنصاري رضي الله عنه. توفي عام ٧٤هـ/٦٩٣م (انظر: سير أعلام النبلاء، ٣/ ١٦٨).

[١٩] هذا من البدع المنتشرة في ذلك الوقت.

[٢٠] البقيع أو بقيع الغرقد فيه الكثير من الصحابة — رضوان الله عليهم جميعًا — غير ما أشار إليه محمد صادق باشا رحمه الله.

[٢١] عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع تمثالًا إلَّا طمسته، ولا قبرًا مُشرفًا إلَّا سوَّيته. وفي رواية: ولا صورة إلَّا طمستها. رواه مسلم (انظر: صحيح مسلم، ح٩٦٩) ونهى الرسول ﷺ عن تجصيص القبور والبناء عليها، ونهى عن الجلوس عليها أو أن توطأ، ونهى عن الصلاة إليها (انظر: صحيح مسلم، ح٩٧٠، ح٩٧١، ح٩٧٢).

[٢٢] هذا العمل غير مشروع. ولا يعبد الله عز وجل إلَّا بما شرع.

وفي يوم الثلاثاء ١٢ منه (١٤ ديسمبر).
وفي يوم الأربعاء ١٣ منه (١٥ ديسمبر).
وفي يوم الخميس ١٤ منه قضاء شئون (١٦ ديسمبر).
وفي يوم الجمعة ١٥ منه (١٧ ديسمبر).[٢٩]

---

[٢٣] العوائد الجارية: العادات المتبعة.

[٢٤] بحري المدينة: شمال المدينة.

[٢٥] جبل أحد: جاء في فضله عن أبي حميد رضي الله عنه قال: أقبلنا مع النبي ﷺ من غزوة تبوك، حتى إذا أشرفنا على المدينة قال: «هذه طابة، وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه.» رواه البخاري (انظر: صحيح البخاري، ح٤١٦٠).

[٢٦] سيدنا حمزة: هو أسد الله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، عم الرسول ﷺ. استشهد حمزة في معركة أحد عام ٣هـ/٦٢٥م. وجاء في فضله رضي الله عنه: عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله». رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد. وقال عنه الألباني: صحيح (انظر: المستدرك على الصحيحين، س٤٨٨٤).

[٢٧] شهداء أحد: عددهم على الأشهر ٧٠ شهيدًا. منهم حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وسعد بن الربيع، وعمرو ابن ثابت الأصيرم، الذي دخل في الإسلام يوم أحد، فاستشهد ولم يصل لله قط، ومخيريق، وهو أحد أحبار اليهود، وحنظلة ابن أبي عامر المعروف بحنظلة غسيل الملائكة أو حنظلة الغسيل؛ لأنه خرج من عند عروسه وهو جنب حين سمع الهاتف فاستشهد في أحد. رضوان الله عليهم جميعًا.

[٢٨] مسجد قباء: جاء في فضله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت، راكبًا وماشيًا، فيصلي فيه ركعتين. رواه مسلم (انظر: صحيح مسلم، ح١٣٩٩). والصلاة فيه كأجر عمرة، قال ﷺ: «من تطهَّر في بيته، ثم أتى مسجد قباء فصلَّى فيه صلاة، كان له أجر عمرة.» رواه ابن ماجه. وصحَّحه الألباني (انظر: سنن ابن ماجه، ح١٤١٢).

[٢٩] هذه الأيام التي يذكرها الرحالة محمد صادق باشا تباعًا دون أن يذكر ما حصل فيها؛ لعل السبب أنه لم يحصل فيها شيء يستحق الذكر، فذكرها من باب تسلسل أيام الرحلة لا غير.

العودة إلى مصر

وفي يوم السبت ١٦ منه (محرم ١٢٩٨هـ الموافق ١٨ ديسمبر ١٨٨٠م) وكَبَ المَحْمَل من باب الحرم النَّبوي، وسار بموكبه في محفل عظيم، حتى وصل إلى محطة خارج باب العمبريَّة.[١] وفي الليل أطلقتْ السَّواريخ بحضور جمٍّ غفير، وجَمع كثير، من أهل المدينة كالمعتاد، وبتنا وقلوبنا منجذبة إلى طَيْبة،[٢] متولِّعة بتلك المعاهد والمشاهد، لا أحرمنا الله العود إليها، ولله درُّ منْ قال:

إذا لم نطب في طيبة عند طيب … به طيبة طابت فأين نطيب
إذا لم يجب في حيه ربنا الدعاء … ففي أي حي للدعاء يجيب

---

[١] العمبريَّة: العنْبريَّة.

[٢] طيْبة: أحد الأسماء المعروفة والمشهورة للمدينة النبويَّة حفظها الله. واسمها المعروف والمشهور هو: المدينة. فإذا أطلق هذا الاسم بدون إضافة فلا يدل إلَّا عليه، ولا ينصرف الذهن إلَّا لها. ومن أسمائها: طابة، الدار، دار الهجرة، المحفوظة؛ لأن الله عز وجل حفظها من الطاعون ومن الدَّجَّال.

بئر عُثْمان (رُومَة)

في يوم الأحد ١٧ منه (١٩ ديسمبر) سار الرَّكبُ صباحًا، ووصل بعد ساعة إلى محطة بئر عثْمان،[١] بعد أداء زيارة الوداع.[٢]

شعر

هنيئًا لمن زار خير الورى	وحطَّ عن النفس أوزارها
لأن السعادة مضمونة	لمن حلَّ طيبة أو زارها

[١] بئر عثمان (رومة): تقع شمال غرب المدينة، قرب مجتمع الأسيال، والآن هي في مزرعة تشرف عليها وزارة الزراعة، بطرف حي الأزهري شمال سلطانة بالمدينة النبوية. يروى أن الذي حفرها رجل من مُزَيْنة، ثم باعها على رُومة الغفاري، وفي زمن الرسول ﷺ كان صاحبها يهودي يبيع الماء على المسلمين، فقال الرسول ﷺ: «من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة؟» فاشتراها عثمان بن عفَّان رضي الله عنه. رواه الترمذي. وقال عنه الألباني: إسناده حسن (انظر: سنن الترمذي، ح٣٧٠٣). اشترى عثمان نصفها من صاحبها، وجعل حصته صدقة على المسلمين، فلما شاهد اليهودي الناس لا ترد على الماء إلَّا في وقت عثْمان، قام بالتفاوض مع عثمان في أن يبيعه النصف الآخر، فاشتراه عثمان منه، وجعله — أيضًا — صدقة. بعد ذلك كأن الماء قليل في مقابل الطلب الكثير على ماء بئر رومة العذْب، فقال رسول الله ﷺ: «من حفر رومة فله الجنة». فحفرها عثْمان رضي الله عنه. رواه البخاري (انظر: صحيح البخاري، ح٢٦٢٦). حفرها: أي زاد فيها، وإلَّا بئر رومة موجودة، وتشرب الناس منها، ولها ذكر قبل الإسلام. هذا الذي يظهر لي من الروايات الكثيرة الواردة في أمر هذه البئر. والله أعلم.

وبالمحطة بئر عذْبةٌ تسمَّى — أيضًا — ببئر رومة، اشتراها سيدنا عثْمان (رضي الله عنه) من امرأة وجعلها صدقَة على المسلمين، وهناك مصلًّى بجانبها.

[٢] ليس للمسجد النبوي زيارة وداع. لكن نحن نفعل ذلك ونصلي فيه من باب التزود بالأعمال الصالحة، خاصة الذي هم ليسوا من أهل المدينة، أو أرادوا الانتقال منها إلى بلد آخر، وليس ذلك من الواجبات الشرعية.

تأخير مصروفات الجَمَّالة

ومن الشروط المقررة للجمَّالة — بأمر الداخلية — أن يصرف لهم في المدينة من الصُّرَّة عن كل جمل خمسون غَرْشًا سلْفة؛ ليشتروا تبنًا أو حشيشًا لعلف جمالهم، وليقضوا ديونهم بالمدينة، وهذه السُّلفة تؤدَّى إلى الروزنامجة[1] عند الحضور بمصر. وفي هذا العام لم تصرف لهم هذه السُّلفة إلا بالوجْه،[2] فأغلب الجمَّالة باع علائق[3] جماله لتسديد ما عليه، كما بلغني، وترك جِماله بدون فُوْل، لا تقتات إلا بحشائش الطريق، وقد هزل أغلبهم جوعًا.

[1] الروزنامجة: ديوان أو وزارة المالية.

[2] الوجْه: أي مدينة الوَجْه.

[3] علائق: أعلافها.

محطة الضَّعَيْني

في يوم الإثنين ١٨ منه (٢٠ ديسمبر) سار الرَّكبُ في الساعة الأولى من النهار، وفي س٦ ق٤٥ استراح، وفي س٧ ق٤٠ سار، وفي س١١ نزل بمحطة الضَّعَيْني.[١]

ولم أضع هنا مسافة المحطات إلَّا بالساعات، وأما معالم وسير هذا الطريق ومسافاته المترية، فموضع بنبذة الاستكشافات، التي ألفتها وطبعتها سابقًا بمطبعة عموم أركان حرب، بناء على ما شاهدته وقسته بمروري مع المرحوم (بإذن الله) محمد سعيد باشا،[٢] والي مصر حين توجه زائرًا في سنة ١٢٧٧ (الموافق ١٨٦١م)، فليراجعها الرَّاغب. وكل ساعة وربع من ساعات سير جمال الرَّكبْ، تضاهي سير ساعة فقط مما ذكر في النبذة.

---

[١] الضَّعيْني: ويقع في المِنْدَسَّة الواقعة على يسار الذاهب إلى تبوك، وتبعد عن المدينة حوالي ٢٠ كيلًا.

[٢] محمد سعيد باشا: الابن الرابع لمحمد علي باشا الكبير، ولد عام ١٢٣٧هـ/١٨٢٢م، وتولى حكم مصر عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م، وكانت زيارته للحجاز والمدينة النبويَّة في ١١/٧/١٢٧٧هـ الموافق ٢٢/١/١٨٦١. وكانت وفاته بمدينة الإسكندرية عام ١٢٧٩هـ/١٨٦٣م، وعمره ٤٢ عامًا رحمه الله (انظر: حقائق الأخبار عن دول البحار، الميرالاي إسماعيل سرهنك، تحقيق ودراسة: أ.د. عبد الوهاب بكر، المجلد الأول/الجزء الثاني، ص٤٨٩).

الشمس والقمر

حيث قد تمَّ الحج بزيارة فخر الكائنات فلنبدي ما قد تصورناه من التفكرات.

اعلم، أن الشمس والقمر، لو نزلا على الأرض، متباعدان عن بعضهما، لسعى منْ في الأرض لرؤيتهما، بدون تفكُر في المسافة التي يلزم قطعها لأجل الوصول إليهما، بعيدة كانت أو قريبة، سهلة أو صعبة، مأمونة أو خطرة، فأولًا يتجهون إلى الشمس ويمشون مهتدين بأشعتها، شاخصة أبصارهم إليها، لا يرون ما حولهم ولا ما تحت أقدامهم، سهلًا كان أو وعرًا، برًّا كان أو بحرًا، فكل على قدر درجة قوته، يصل إليها بحسب همَّته، فمنهم من يأتي سريعًا، ومنهم من يبطئ، ومنهم من يصيب الغرض، ومنهم من يخطئ، ثم بعد مشاهدة الشمس، على حسب تفاوت درجات القرب منها، واطمئنان قلوبهم بها، يتجهون إلى جهة القمر؛ ليشاهدوه بالنظر، فيسيرون على نوره ناظرين إليه دون غيره، حتى يصلوا إليه بعد المشقة الزائدة، غير مبالين بالمسافة قريبة كانت أو متباعدة، وبعد المشاهدة والحصول على الفائدة، يتوجهون من حيث جاؤا،[1] ملتحفين بما به باؤا،[2] تاركين النور وراءهم، وظلمة أنفسهم ممتدة أمامهم، فمن امتلأ بصره بالنور مشى سويًا على صراط مستقيم، ومن انطمس بصره انكب على وجهه في ظلام مستديم.

فالكعبة للحجاج هي الشمس والمدينة القمر، وكل امرئ يسعى بقضاء وقدَر، فالسعيد له الهنا، والشقي له الضرر، والمرام من الوصول الاقتباس، بحسب طهر الأنفاس، لا التفرج والافتخار بين الناس، والقلب المؤمن يتلألأ نوره كالجوهرة الثمينة،

---

[1] جاؤا: جاؤوا.

[2] باؤا: باؤوا.

ولكل مؤمن جوهرة في قلبه تزهو على حسب القيمة، فالجواهر منثورة على العباد على حسب ما قسم من الاستعدادات، كقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ (الزخرف: ٣٢). فمنهم من احتوى الجواهر، ومنهم الذهب، ومنهم من احتوى على الفضة أو النحاس بالتعب، ومنهم من بقي مجردًا لا ينال القوت إلَّا بشق النفس والتعب، فدرجات الإيمان في قلوب المسلمين بهذه الكيفية بين الناس، فكما أن الأغنياء بجواهر الدنيا يفوق بعضهم بعضًا، كذلك المؤمنون الذين قلوبهم بجوهرة الإيمان مستنيرة، يتفاوتون بحسب السيرة والسريرة، والله بصير بعباده، ويوفق كلًّا على حسب مراده، وكلما حسنت النيَّة حصل الفوز بالمواهب اللدنية، كما قال عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيَات، وإنما لكل امرئ ما نوى».[٣] صدق من لا ينطق عن الهوى، ولنبدأ أقرب مثال لهذا المقال، وهو أن الساعين للحج كالساعين لصلاة الجمعة، فمنهم من يأتي الجامع قبل الازدحام، ويسمع الخطبة ويقرب من الإمام، ومنهم من يسمعه تارة وتارة على حسب بعد المسافة، والتأخر لعائق أو آفة، فهؤلاء كلهم مُصلُّون، وبحسب سعيهم للتقرب من الإمام ينالون، وعلى أعمالهم يجازون.

[٣] رواه البخاري، ح١. رواه مسلم، ح١٩٠٧.

المليليح (النَّصيْف)

في يوم الثلاثاء ١٩ منه (٢١ ديسمبر) في الساعة الأولى من النهار سار الرَّكْبُ، وفي س٧ ق١٠ استراح، وفي س٨ سار، وفي س٩ ق٣٥ مرَّ بمحطة المليح أو النَّصيف،[١] وفي س١٠ ق١٠ نزل للمبيت، وعند الصباح نزل المطر من س١١ ليلًا إلى س١٢.

[١] المليح: هكذا جاء في النسخة التي بين يدي، والمقصود هو — لا شك — المليليح. وهو الآن بلدة على يسار طريق المدينة – تبوك، ويبعد عن المدينة شمالًا حوالي ٧٠ كيلًا. والنَّصيف مورد ماء في المليليح على طريق الحاج الشامي، ويمر به الحاج المصري إذا عاد من هذا الطريق. وعندما مدَّت الدولة العثمانية سكة الحديد الحجازية، كانت تمر بالمليليح، فقامت ببناء ثكنة عسكرية ومحطة قطار بالقرب من بئر نصيف، ولا زالت الآثار باقية إلى الآن.

شَجْوى

في يوم الأربعاء ٢٠ منه (٢٢ ديسمبر) بعد خمسة وأربعين دقيقة من الساعة الأولى من النهار سار الرَّكْبُ، وفي س٥ ق٥٠ استراح، وفي س٦ ق٥٠ سار، وفي س٨ ق٣٠ مرَّ على يسار قلعة ومحطة الشَّجْوَة[١] على بُعْد،[٢] وفي س٩ نزل السَّيل[٣] على الرَّكبْ وامتدَّ واشتدَّ، وفي س٩ ق٥٠ أناخ من كثرة المطر، ونصبت الخيام على البلل مع استمرار نزول المطر، وغمرت الأحمال والفرش بالمياه، ولم يوضع شيء على الأرض ليجلس عليه إلَّا ابتلَّ أسفله وأعلاه، وفي نصف الساعة الأولى من الليل امتنع المطر،[٤] وأمضى كل شخص ليلته بقضاء وقدر، بين رطوبة الأرض وفرشه، ومنْ كانت له سحَّارة،[٥] ونام عليها، صارت كنعشه،[٦] وأما الفقير الذي ليس عليه إلَّا القميص، وما له خيمة ولا غطا، فكان فرشه الماء، أعني الأرض ببللها، وغطاؤه الهواء، وخيمته السماء، ويفعل الله بخلقه ما يشاء.

[١] الشَّجوة: هي بلدة شجوى، وتبعد عن المدينة النبويَّة شمالاً حوالي ١٢٠ كيلًا. وبها قلعة شجوى التي لا زالت آثارها باقية إلى يومنا هذا. قال عنها محمد صادق باشا في عام ١٢٧٧هـ/١٨٦١م وهو قادم إلى المدينة من هذا الطريق: وصلنا إلى محطة الشَّجوى على مسير ١١ ألف و٥٠٠ متر من اصطبل عنتر، وبهذه المحطة آبار وقلعة مهجورة قيل: إنها منذ سنتين نهبتها العرْبان وشتتت محافظيها، وعندها يجتمع ويفترق طريقا الحج الشامي والمصري (الرحلات الحجازية «نبذة في استكشاف طريق الأرض الحجازية»، محمد صادق باشا، ص٤٠).

[٢] على بعد: مروا بها من بعيد ولم يقفوا.

[٣] السَّيل: أي المطر.

[٤] امتنع المطر: أي توقف.

[٥] سحَّارة: صندوق من الخشب.

[٦] كنعشه: أي صار هذا الصندوق مثل التابوت الذي يوضع فيه الميت.

إسطبل عنتر – آبار حلوة

في يوم الخميس ٢١ منه (٢٣ ديسمبر) بعد مضي عشرين دقيقة من الساعة الأولى سار الرَّكبُ، وفي س١ ق٤٥ وصل إلى أَكَمة عالية فوق جبل شاهق، تسمَّى بإسطبل عنتر أو قصر عَبْلَة،[١] وفي س٥ ق٥٠ صار عرض الطريق من خمسين مترًا إلى مائة متر، وتسلسلت الجبال على الطرفين كالتلال، وفي س٦ ق٣٠ استراح، وفي س٧ ق٣٠ سار، وفي س١٠ ق٥٥ وصل إلى محطة آبار حلوة،[٢] وهناك خمس آبار ماؤها عذبٌ، على يسار الطريق، ببقعة متَّسعة معتدلة محاطة بالجبال، وفي س١١ ق١٠ نزل الرَّكب بالبعد عنها، بجوار الجبل الموجود على يمين الوادي، في مكان كثير الحشائش، غير لائق للمبيت كأرض محطة آبار حلوة.

---

[١] إسطبل عنتر: من منازل الحاج الشامي، ويسمَّى منزل الفحلتين. قال عنها المؤرخ التركي أيوب صبري باشا: ومنزل فحلتين هذا عبارة عن هضبتين صغيرتين، تخلوان تمامًا من المياه، ويوجد بالقرب من فحلتين جبل مرتفع فوق قمته حصن حصين (مرآة جزيرة العرب، ص١٧٨). يقصد إسطبل عنتر. وهو: جبل شاهق أسود له رأسان. حيث يُعتقد أن عنترة بن شداد فارس بني عبس كان يربط خيله في أصل هذا الجبل. ولعل هناك عنترة آخر، فاختلط الاسم على الناس، وظنوا أنه عنترة بن شداد، حيث إن منازل قبيلة عبس كانت في نجد ولم تكن في الحجاز. والله أعلم. وهناك — لمن قرأ الرحلة كاملة من بدايتها — موضع آخر بالقرب من الوجه اسمه — أيضًا — إسطبل عنتر، مرَّ معنا في بداية الرحلة، وسيمر معنا في رحلة العودة إن شاء الله.

[٢] وتسمَّى — أيضًا — محطة أبي الحلو (انظر: الرحلات الحجازية «نبذة في استكشاف طريق الأرض الحجازية»، محمد صادق باشا، ص٣٩). وسمَّاها إبراهيم رفعت باشا: آبار الحلو (انظر: مرآة الحرمين، ٢ / ٢٢٦).

محطة النقارات

في يوم الجمعة ٢٢ منه (٢٤ ديسمبر) سار الرَّكب بعد مضي خمسين دقيقة من الساعة الأولى، وكان البرد شديدًا، في وادٍ واسع، أرضه سهلة، وفي س٥ ق٥٠ استراح، وفي س٦ ق٣٥ سار، وفي س ١٠ ق١٥ مرَّ على زلَط وتلال على اليسار، وفي س١٠ ق٤٠ مرَّ بست آبار على اليمين، ماؤها فيه ملوحة قليلة، وهناك محطة النقارات، وفي س١٠ ق٤٥، أعني بعد المحطة بخمس دقائق، نزل الرَّكبُ، وانتظر نصب الخيام، حسب الأمر كسائر الأيام في هذا العام.

محطة الفُقَيِّر

في يوم السبت ٢٣ منه (٢٥ ديسمبر) بعد مضي خمسين دقيقة من الساعة الأولى سار الرَّكبُ، وفي س١ ق١٧ أشرقت الشمس ومرَّ بأرض يعلوها زلط، ثم سباخ وعبل كثير وقنوات للسَّيل، وفي س٤ ق٤٥ وصل إلى يسار تلٍّ هرمي أسود، وفي س٥ ق٣٠ استراح، وفي س٥ ق٥٠ سار، وفي س٧ ق٢٠ انتهى لوادٍ وابتدأت الجبال يسارًا، وفي س٧ ق٣٠ نزل بمحطة الفُقَيِّر،[١] وبها خمس آبار ماؤها قيسوني، في أرض بها قطع أحجار صغيرة، ذات خطوط كالخشب المتحجِّر بطول الزمن وعلى حسب الموقع. ومن المعتاد سنويًّا الإقامة ثاني يوم الوصول في هذه المحطة؛ لراحة الرَّكبْ والدَّواب.

الآن المسافة من المدينة إلى الوجْه اثنا عشر يومًا، ويلزم أن يكون في كل خمسة أيام أو ستة إقامة يوم للاستراحة؛ ولكن صار السير على خلاف العادة.

---

[١] الفقيِّر: هكذا ضبطها محمد صادق باشا في رحلته الأولى عام ١٢٧٧هـ/١٨٦١م (انظر: الرحلات الحجازية «نبذة في استكشاف طريق الأرض الحجازية»، محمد صادق باشا، ص٣٩). وهكذا ضبطها صاحب كتاب مرآة الحرمين اللواء إبراهيم رفعت باشا رحمه الله. الذي كان قومندان حرس المحمل المصري عام ١٣١٨هـ/١٩٠١م، وأمير الحاج المصري لعام ١٣٢٠هـ/١٩٠٣م، وعام ١٣٢١هـ/١٩٠٤م، وأمير الحاج المصري لعام ١٣٢٠هـ/١٩٠٣م، وعام ١٣٢١هـ ١٩٠٤م، وعام ١٣٢٥هـ/١٩٠٨م (انظر: مرآة الحرمين، ٢ / ٢٢٧).

محطة العُقْلَة

في يوم الأحد ٢٤ منه (٢٦ ديسمبر) سار الرَّكبْ من ابتداء الساعة الأولى ومرَّ بوادٍ سهل، وفي س٤ ق٢٠ مرَّ بجبال متسلسلة على اليسار، وفي س٤ ق٥٥ مرَّ بجبال على اليمين، وفي س٥ ق١٥ ضاق الطريق إلى عشرين مترًا مع هبوط يسير إلى وادٍ متَّسع، والجبال من الجانبين تقرب تارة وتبعد أخرى، وفي س٥ ق٣٥ وجد على اليسار آثار بناء وحائط قائمة طولها خمسون مترًا وارتفاعها متران، تسمَّى بالقصر الأحمدي أو قصر جُحا عند العامَّة، وفي س٥ ق٥٥ استراح، وفي س٦ ق٤٥ سار، وفي س٩ ق٣٠ مرَّ على كثير من السعتر وأشجار مُسَوِّسة،[١] وفي س١٠ ق٨ اتجه الدَّرب من الغرب إلى القبلي،[٢] وفي س١٠ ق١٥ استقام إلى الغرب، وفي س١٠ ق٤٥ اتجه قبليًّا بين جبال عالية في اتِّساع خمسين مترًا بل أكثر ثم اتَّسع، وفي س١ ق١٠ من الليل اعتدل الدَّرب إلى الغرب تقريبًا، وفي س١ ق١٥ نزل الرَّكْبُ بمحطة العُقْلة بضم العين، وبها بئران ماؤهما لا يصلح إلَا لشرب الدَّواب. وقد مات ثمانية من الجمال التي مع الرَّكْب من التعب.

---

١ مسوِّسة: أصابه السُّوس.

٢ أي اتجه إلى الجنوب.

حادث مؤسف لبعض الجمَّالَة

في يوم الإثنين ٢٥ منه (٢٧ ديسمبر) في الساعة الأولى صباحًا سار الرَّكبُ، وفي س٦ ق٣٠ استراح، وفي س٧ ق١٥ اتبع البراح مُشرِّقًا مغرِّبًا، وفي س١١ ق١٥ نزل للمبيت، وفي هذا اليوم مات عشرة من الجمال أيضًا؛ من طول المسافة وثقل الأحمال. واتفق أنَّ أربعة من الجمَّالة انحرفوا قليلًا عن الرَّكْب، لجمع الحشيش لجمالهم، فنهبت العربُ جمالهم، وسلبتهم لباسهم، ونجوا بأنفسهم حفاة عُراة من هؤلاء اللصوص، وحمدوا الله على النجاة مع فقد الملبوس. وفي س٩ ق٢٠ من ليلة الثلاثاء سار الرَّكبُ إلى أن طلع النهار.

محطة الخوثلة

وفي يوم الثلاثاء ٢٦ منه (٢٨ ديسمبر) في الساعة الأولى استراح الرَّكْبُ، وفي س١ ق٣٠ سار، وفي س٥ مرَّ فوق تلال، وانحرف إلى بحري بقدر سبعة دقائق، ثم عاد إلى اتجاهه الأول، وفي س٧ ق١٠ نزل بمحطة الخوثلة، وهناك سلسول[1] ماء جار من السَّيل من سنين.

[1] السلسل السلسال السُّلاسِلُ: الماء العذْب السَّلس السَّهل في الحلْق. وقيل: هو البارد أيضًا. وماء سلسلٌ سلْسالٌ: سهْلُ الدخول في الحلق؛ لعذوبته وصفائه. السُّلاسل بالضم مثله (انظر: لسان العرب، ١١ / ٣٤٣، مادة: سلسل).

درب المحشرة

في يوم الأربعاء ٢٧ منه (٢٩ ديسمبر) س٧ ق٥٠ سار الرَّكْبُ وصعد قليلًا من منفذ إلى وادٍ ذي عبل كثير كبير، وفي س٨ ق٢٥ صعد من طريق مستو عرضه خمسة عشر مترًا إلى درب متَّسِع فيه عبل قليل، وفي س٨ ق٤٥ اتجه مبحرًا بين جبال كالتلال، وبعد خمس دقائق اعتدل في متَّسع، وفي س٩ ق٣٥ وصل إلى مبدأ تلال وجبال، وفي س١٠ ق١٥ مرَّ في زلط وأحجار ثم رمل في اتساع بين الجبال، وفي س١٠ ق٢٠ وصل إلى ابتداء جبال درب المحشرة، وفي س١٠ ق٣٥ نزل للمبيت، وفي الساعة العاشرة من ليلة الخميس سار الرَّكْبُ، وفي س١١ ق١٥ وصل إلى انتهاء درب المحشرة وجبال اليسار بأرض سهلة رملها ثابت.

محطة أم حرز

وفي يوم الخميس ٢٧ منه (٣٠ ديسمبر) في الساعة الأولى من النهار استراح بوادٍ متسع في منتهى جبال اليمين، وفي س١ ق٢٥ سار، وفي س٤ ق٣٥ وجد سلسلة رمال يسارًا وجبالًا بعيدة يمينًا، وفي س٥ ق٣٠ صعد قليلًا فوق أكمة، وفي س٦ ق١٥ استراح بمحطة أم حرز، وليس بها آبار، وفي س٧ سار إلى أرض سهلة بالقرب من مفرق الدَّربين، أعني هذا الدرب[١] والدرب الموصل إلى يَنْبُع البحر، وفي س١٠ ق٢٥ مر بين تلال، وبعد خمس دقائق هبط عنها يسيرًا، وفي ١١ نزل للمبيت في متسع بين جبال، وفي س١٠ من ليلة الجمعة سار الرَّكب.

[١] الموصل للمدينة المنورة.

قلعة الوَجْه

وفي يوم الجمعة ٢٩ منه (٣١ ديسمبر) بعد مضي ساعة وعشر دقائق مر من بين أكمتين، تسميان بالنَّهدين،[١] إلى طريق متسع بين تلال وجبال متسلسلة، وهناك نزل للاستراحة، وفي س١ ق٣٠ سار، وفي س٤ ق١٠ مر بين تلال، وفي س٤ ق٤٥ صعد فوق تلٍّ، والجبال من الجانبين ممتدة إلى محطة الوجه، وفي س٥ ق٥٥ هبط من التلِّ، وفي س٥ ق١٥ نزل بقلعة الوجه.

وفي يوم السبت غاية محرم سنة ٩٨ (١ يناير ١٨٨١م) استلم الخرج والعلائق. وفي ليلة الأحد ٨ ليلًا سار الرَّكبُ.

---

[١] النَّهدين: مفردها نَهْد. ونَهَدَ الثدْي ينهُد — بالضم — نُهودًا إذا كَعَبَ وانتَبَر وأشرف. ونهدت المرأة تَنْهُدُ وتَنْهَدُ، وهي ناهد وناهدة، ونهَّدَتْ، وهي مُنهِّدٌ، كلاهما: نهد ثديها. يقال: نهد الثدي إذا ارتفع عن الصدر وصار له حجم (انظر: لسان العرب ٣ / ٤٢٩، مادة نهد). قال عنهما الجزيري: وأما النَّهدين فهما جبلان صغيران متقابلان، على صورة النهدين في الوضع (الدُّرر الفرائد المنظَّمة، ٢ / ١٣٩٩). وهناك جبلان بمنطقة الجوف في شمال الجزيرة العربية لهما نفس الاسم. إلا أن العرب الأواخر يلفظون هذا الاسم بكسر النون، فيقولون: نِهْد.

إسطبل عنتر

وفي يوم الأحد غُرَّة صفر (٢ يناير) بعد مضي خمس وأربعين دقيقة من النهار استراح، وفي س١ ق٢٥ سار، وفي س٦ ق٢٥ استراح، وفي س٧ ق١٠ سار، وفي س١١ نزل بمحطة إسطبل عنتر، وبات هناك، وفي س٨ ق٢٥ من ليلة الإثنين سار.

محطة الأَزْلَم

وفي يوم الإثنين ٦ صفر/٣ يناير في الساعة الأولى من النهار استراح، وفي س١ ق٣٥ سار بين جبال ممتدة إلى محطة أزلم، وفي س٦ ق٤٠ استراح، وفي س٧ ق٢٥ سار، وفي س١١ ق٤٥ نزل بمحطة أزلم، وفي ليلة الثلاثاء س١٠ ق١٠ سار.

ضُبا (سلمى وكُفافة)

وفي يوم الثلاثاء ٣ صفر/٤ يناير بعد مضي خمسين دقيقة من الساعة الأولى من النهار استراح، وفي س١ ق٢٠ سار، وفي س٣ ق١٥ مر من صعود، وفي س٦ ق٢٥ استراح، وفي س٧ ق٦٥[١] سار، وفي س١١ صعد فوق أكمة، وفي س١١ ق٣٠ هبط إلى طريق بين تلال، وفي س١١ ق٤٥ نزل بمحطة سلمى وكُفافة، وفي ليلة الأربعاء س١٠ من الليل سار الرَّكب، وفي س١١ ق٥٠ صعد من نقر العجوز، وفي س١٢ استراح.

---

[١] هنا خطأ في الطباعة لا شك. ولعل مسيرهم بعد الاستراحة بساعة، فتكون العبارة هكذا: وفي س٧ ق٢٥ سار.

المُوَيْلِح

وفي يوم الأربعاء ٤ صفر/٥ يناير بعد نصف ساعة من الساعة الثانية سار، وفي س٦ ق١٥ هبط بين تلال ثم صعد، وفي س٦ ق٣٠ استراح، وفي س٧ ق١٥ سار في طريق متعرجة بسبب الجبال، وفي س١١ ق٤٥ نزل بمحطة المُويلح.

وفي يوم الخميس ٥ صفر/٦ يناير أقام واستلم المرتَّبات من القلعة، وفي ليلة الجمعة بعد الساعة الثامنة بربع سار الرَّكب ليلًا، وفي س١١ ق٣٠ مرَّ من خور مُتَّسع ذي هبوط وصعود.

عيون القصب

وفي يوم الجمعة ٦ صفر/٧ يناير بعد مضي خمسين دقيقة من الساعة الأولى من النهار استراح، في محل شرقيُّه تلال، وغربيُّه جبل حايل بين الطريق والبحر، وفي س٢ ق٤٠ رُؤي البحر على اليسار، وفي س٦ ق٤٥ استراح، وفي س٧ سار مع قرب الطريق من البحر تارة وبُعدها عنه أخرى، وفي س١١ ق٢٥ مرَّ من مهبط منحدر، وبانتهائه نزل بمحطة عيون القصب.

وفي ليلة السبت في الساعة الثامنة سار الرَّكب، وفي س١٢ استراح.

مغاير شُعَيب

وفي يوم السبت ٧ منه (٨ يناير) في الساعة الأولى من النهار سار، وفي س٦ ق٤٥ استراح، وفي س٧ ق٤٥ سار، وبعد ثلث ساعة من الغروب نزل بمحطة مغاير شُعَيب.

وفي يوم الأحد ٨ منه (٩ يناير) في س٥ ق٤٥ سار بين جبال ممتدة على الجانبين، وقد كان المعتاد في الرجوع الإقامة بهذه المحطة يومًا، لأجل راحة الجمال والخيل والرُّكَّاب، (و) بسبب وجود المياه هناك؛ ولكن صار القيام على خلاف العادة. وفي س١٠ انحرف الطريق إلى الشرق، بسبب وضع الجبال، وبعد ربع ساعة اتجه إلى بحري، وفي س١١ نزل للمبيت، وفي ليلة الإثنين سار في الساعة العاشرة من الليل.

محطة الشَّرَفا

وفي يوم الإثنين ٩ صفر/١٠ يناير بعد مضي ساعة من النهار استراح، وفي س١ اتبع البراح، وفي س٦ استراح بمحطة الشَّرَفا، وفي س٧ ق٢٠ سار بين جبال ممتدة من الطرفين، في أرض ذات شِيح[١] وعبل، وفي س١٠ صعد صعودًا خفيفًا، وفي س١٠ ق٣٥ مرَّ على قبور الشهداء، وهو على يسار الطريق، وبعد الغروب بعشر دقائق نزل للمبيت بالقرب من الجبال، بعد المرور من محل مُتَّسع منحدر محاط بالجبال، وفي الساعة العاشرة من ليلة الثلاثاء سار الرَّكبُ.

---

[١] الشِّيح: نبات عشبي بري من الفصيلة النجمية، واسمه العلمي Artemisia. وللشيح فوائد طبية كثيرة، وهو يشرب مع الشاي عادة، إلا أنه يجب عدم الإكثار منه، بسبب مادة السانتونين ذات الآثار السُمِّية إذا استخدم بكثرة أو بصفة مستمرة.

محطة ظهر حمار

في يوم الثلاثاء ١٠ صفر/١١ يناير بعد مضي نصف ساعة من النهار استراح، وفي انتهاء الساعة الأولى سار، وبعد مسافة اتجه إلى الشمال الغربي، وفي س٣ رُؤي البحر بعيدًا، والأرض منحدرة إليه، وفي س٥ ق٢٠ اتجه مُبحرًا حذاء البحر، وفي س٥ ق٣٥ صعد على رمال، وفي س٦ مرَّ بجانب البحر، ثم في رمال وخيران وهبوط من جبل كما ذكرناه في الطَّلعَة،[١] وفي س٧ نزل بمحطة ظهر حمار.

ومن المعتاد الإقامة في هذه المحطة باقي اليوم مع الليلة؛ لراحة الرَّكب؛ والوصول في اليوم الثاني إلى قلعة العقبة بالراحة؛ لكن صار المسير على خلاف المعتاد الساعة ٥ ق٥٠ من الليل، ومرَّ من مضيق محجر بين البحر والجبل، مع شدَّة الهواء والبرد؛ حتى كَلَّ أغلب الجمال من التعب والمشقَّة.

---

[١] الطَّلعة: رحلة الذهاب.

العقبة

وفي يوم الأربعاء ١١ صفر/١٢ يناير بعد مضي خمسين دقيقة من الساعة الأولى نزل لانتظار المتأخرين، وفي س١ ق١٠ سار، وفي س٢ نزل بمحطة قلعة العقبة. ومن المعتاد في كل سنة الإقامة في كل قلعة يومًا زائدًا على يوم الوصول، وإنه لا مانع من التأخر يومًا أو يومين زيادة عن الأصول، لراحة الرَّكب في المحطَّات، لوجود المحذورات، ولعدم التحديد في الرَّجعة،[١] الذي لابد منه في سفر الطَّلعة؛[٢] لأن للحج أيامًا معدودات. كما أن من الواجبات الجارية من الأصول، الإقامة بمحطة قلعة العقبة ثاني يوم الوصول؛ لراحة الرُّكاب، وأخذ المرتَّبات، وغسل الملبوسات، وإصلاح حلوس الجمال، ثم في اليوم الثالث، يصعد الرَّكب من العقبة، بالتأني، وعدم كدِّ الجمال[٣] بالأحمال، إلى سطحها، فيبيت هناك، كي لا يبقى أحد من الحجاج متأخرًا، ثم في صباح اليوم الرابع، يسير الرَّكب إلى جهة نخل.

وأما في هذا العام، فقد تغيَّرت العادات في بعض المحطَّات، كما حصل في هذه المحطة، فإنه في يوم الخميس ١٢ صفر/١٣ يناير وكلٌّ من الحجاج مشغول بلوازمه وإصلاح حاله (في) أثناء هذه الإقامة المعلومة للخاص والعام، لم يشعر الناس إلا والمنادي ينادي في

---

[١] لعدم التحديد في الرَّجعة: أي رحلة العودة. والمعنى: أننا ينبغي أن نسير في رحلة العودة على مهل دون أن نرهق أنفسنا أو نرهق دوابنا؛ وذلك لعدم تحديد وقت الرجوع على سبيل الإلزام؛ بل إن ذلك متروك لأمير الحج، الذي يجب عليه أن يراعي حال الحجاج المنهكين في هذه الرحلة الطويلة، حتى يصلوا إلى ذويهم سالمين غانمين إن شاء الله.

[٢] لابد منه في سفر الطَّلعة: أي رحلة الذهاب. لأن أيام الحج محددة، ولعدم فوات الحج يكون السير متواصلًا، بخلاف رحلة العودة التي ينبغي أن تكون على مهل كما أسلفنا.

[٣] كدُّ الجمال: إرهاقها.

الساعة الرابعة بأن القيام في الساعة الثامنة، فتركوا ما بأيديهم واشتغلوا بشد حمولهم، وكان صرف تعيينات مستخدمي الصُّرَّة جاريًا، ولم ينته إلا بكل الاجتهاد والسرعة، بحيث لم يمكن مراجعة رجع التعيينات المنصرفة، ولم يجر ختمها إلا بسطح العقبة صباحًا وقت التحميل.

وفي س٧ ق٥٠ قام الرَّكب من القلعة، وابتدأ الرحيل، ومرَّ بجانب نهاية بحر العقبة من الجهة البحرية،[٤] وعندما انتهى شاطئ البحر، صعد بالتدريج المسافة التي بين البحر والقنطرة المبنية في ابتداء صعود العقبة المشهورة، وهذه المسافة تسمَّى بمدرج العقبة. وكان الوصول إلى القنطرة س١٢ من النهار، فلعدم إمكان المبيت هناك، لضيق الطريق، وكثرة الخيران، لزم صعود العقبة ليلًا، جبرًا[٥] بكل مشقَّة، ووصل أول جمل من الرَّكب إلى سطح العقبة بعد س٢ ق١٠ من الليل، ووصل الجمل الأخير من الرَّكب س٧ ق٣٠ منه، وقد نزل المطر عند الصباح بحيث سارت الخيام تقطر ماء.

[٤] الجهة البحرية: الجهة الشمالية.

[٥] جبرًا: أي مجبورين.

بئر الست أم عباس

في يوم الجمعة ١٣ صفر/١٤ يناير ضُرب مدفع التحميل س١ ق٣٠، وفي س٢ ق٤٥ سار، وفي س٧ ق١٠ استراح، وفي س٨ سار، وفي س١٠ ق٤٠ نزل للمبيت في آخر الوادي، بجوار سلسلة من رمال متجهة لبحري، وفي ليلة السبت بعد الساعة التاسعة بخمسين دقيقة سار، وفي س١١ ق٥٠ مرَّ من نقر محجر بالجبل، طوله ثلثمائة[١] متر، وعرضه عشرة أمتار، في انتهائه بناء مربع على اليسار شبه مصطبة، قيل: إنه قبر.

وفي يوم السبت ١٤ صفر/١٥ يناير بعد مضي خمس وأربعين دقيقة من الساعة الأولى من النهار استراح، وفي س١ ق٢٠ سار، وفي س٦ ق٣٠ استراح، وفي س٧ ق٣٠ سار، وفي س٨ ق١٠ مرَّ بمحطة بئر الست أم عبَّاس، وفي س١١ نزل للبيات في الفلاة،[٢] وفي ليلة الأحد في الساعة العاشرة سار.

[١] ثلثمائة: ثلاث مئة. وتكتب — أيضًا — هكذا: ثلاثمئة.

[٢] الفلاة: الصحراء.

قلعة نخل

في يوم الأحد ١٥ صفر/١٦ يناير بعد مضي خمسين دقيقة من الساعة الأولى من النهار استراح، وفي الساعة ١ ق٢٠ اتبع البراح، وفي س٦ ق٤٥ سار، وفي س٩ نزل بجوار قلعة نخل.

وفي يوم الإثنين ١٦ صفر/١٧ يناير صار استلام التعيينات من القلعة، وفي ليلة الثلاثاء في الساعة ٨ سار الرَّكب.

ومن الأصول المعتادة سنويًّا أن الحاج متى وصل إلى قلعة العقبة يُرخَّص للبشير في التوجه لمصر، وبدخوله مصر بالبُشرى يحصل للأهالي الفرح الشديد بقدوم الحجاج، وتطمئن قلوب الأقارب على أقاربهم بتلاوة المكاتيب، ويجهزون ما يلزم لقدومهم بالسلامة إلى أوطانهم، والذي جرى في هذا العام كان على خلاف المعتاد، فإن الحاج لما وصل إلى قلعة العقبة صار منع طلوع البشير،[1] ولما وصل إلى نخل كذلك، فلمَّا وصل الرَّكب إلى عيون موسى، تعجَّب أهل السُّويس من قدوم الحاج بدون أن يقدمه البشير كالمعتاد، ليستعدوا له بما يلزم لمقابلته، وليبادروا بإرسال التعيينات بعيون موسى للمستخدمين والمياه العذبة وما يلزم للحجاج.

وقد حصل أنَّ الرَّكب عند حضوره لعيون موسى لم يجد شيئًا من تلك الاستعدادات، وتأسفوا على أن أهل مصر متى بلغهم حضور الحاج بالسُّويس، بدون أن ترد جوابات

---

[1] طلوع البشير: ذهاب البشير.

من الحجاج إلى قرابتهم، لاطمئنان خواطرهم، يحصل لهم غاية المشغولية وتشتت البال.[٢]

[٢] كان المسلم فيما مضى، وقبل أن يذهب إلى الحج، يقوم بالتوبة من كل ذنب، ويقوم بتسديد ديونه، ويكتب أو يملي وصيته؛ لأنه لا يعلم هل يعود أم لا؛ لأن رحلة الحج محفوفة بالمخاطر الكثيرة، ومنها الأمراض الفتَّاكة، وقطَّاع الطرق، فإن نجا، فإن الإرهاق الشديد مصاحب له، فإما أن يصبر وينتصر أو يقضي عليه الإرهاق لا سمح الله. وكان الحجاج المصريون إذا وصلوا العقبة، أرسلوا البشير إلى مصر بسلامتهم، ومعه الرسائل الموجهة من الحجاج إلى ذويهم. وفي موسم الحج لسنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م لم يأذن أمير الحاج المصري للبشير في الذهاب كالمعتاد، فإذا سمع الناس بقدوم الحجاج ووصولهم إلى السُّويس؛ التي هي على مرحلتين من القاهرة، أي حوالي ١٠٠ كيل، مع عدم قدوم البشير ورسائله التي يحملها، سوف تنشغل الناس، وسوف يحصل بعض الاضطراب، وقد تنتشر الشائعات المزعجة عن الحجاج.

وادي الحصن

في يوم الثلاثاء ١٧ صفر/١٨ يناير بعد الساعة الأولى من النهار سار الرَّكب، وفي س٦ ق٤٥ استراح، وفي س٧ ق٣٥ اتبع البراح، وفي س١١ نزل للمبيت بوادي الحصن، بالقرب من الجبال، وفي ليلة الأربعاء بعد الساعة التاسعة بخمس دقائق سار، وفي س١١ ابتدأ المرور من محاجر الحصن.

وادي التِّيه

في يوم الأربعاء ١٨ صفر/١٩ يناير بعد مضي خمس وثلاثين دقيقة من النهار استراح، وفي س١ ق٢٠ سار، وفي س٤ مرَّ بآخر الحصن، ودخل بأرض بها حشائش، وتُسمَّى بأرض المزارع، وهي ابتداء وادي التِّيه، وفي س٤ ق٤٥ مرَّ بأول علواية، وفي س٢ ق٢٥ استراح، وفي س٧ ق٣٠ سار، وفي س٩ ق٣٥ مرَّ بآخر علواية، وفي س١٠ ق٤٠ مرَّ على الناطور، وفي سن١٠ ق٥٥ نزل للمبيت، وكان المالح[١] يُرى قريبًا، وفي ليلة الخميس بعد الساعة التاسعة بخمسين دقيقة سار.

---

[١] المالح: البحر.

عيون موسى – المحجر الصحي

في يوم الخميس ١٩ صفر/٢٠ يناير بعد مضي خمس وأربعين دقيقة من الساعة الأولى من النهار استراح على بُعد من الناطور الأخير، وفي س١ ق٣٠ سار مقبلًا في وادٍ متَّسع به رمال هابطة وصاعدة، وفي س٦ نزل الرَّكب بعيون موسى، بالقرب من شاطئ البحر، في فلاة متَّسعة، لأجل الكرنتينة،[١] وليس هناك سوى مأموري الكرنتينة، ولم توجد سوق لمبيع ما يلزم للحجاج كالمعتاد، لعدم إخبارية أهل السُّويس بوصول الحاج، وأما المياه اللازمة للحجاج فجلبت من السويس، بواسطة الفناطيس[٢] والمراكب.

في يوم الجمعة ٢٠ صفر/٢١ يناير حضر سعادة رؤف[٣] باشا محافظ السويس،[٤] ومعه حكيمباشي[٥] الكرنتينة، والمأمورون، ونظروا الحجاج، وأخذوا تعدادهم، وتعداد دوابِّهم، وهم واقفون بالبعد[٦] عنهم، وجعلوا ثمانيًا وأربعين ساعة كرنتينة على الحجاج، ولوجود الجمال معهم، زادوها إلى اثنين وسبعين ساعة، من ابتداء وصول الحاج إلى محل الكرنتينة.[٧]

---

[١] الكرنتينة: من الفرنسية وتعني المحجر الصحي.

[٢] الفناطيس: البراميل والصهاريج الصغيرة.

[٣] رؤف: رؤوف. وتكتب — أيضًا — هكذا: رءوف.

[٤] محافظ السُّويس: الحاكم الإداري للسُّويس.

[٥] حكيمباشي: رئيس الأطباء في المحجر الصحي.

[٦] بالبعد: أي أخذوا تعدادهم عن بعد خوفًا من الأمراض المعدية.

[٧] أي جعلوا فترة الحجر الصحي ثلاثة أيام بدلاً من يومين.

وأما الخيول والبغال والحمير، فأمروا بإبقائها بالكرنتينة واحدًا وعشرين يومًا، ثم توجهوا، فحضرت المُرتَّبات والعلائق[٨] والبياعون في الحال، كالعادة عند وصول الحجاج، وفرح الحجاج بذلك، وكانوا قبل ذلك مُتكدِّرين[٩] لعدم وجود البيَّاعين.

وكان تعداد الآدميين، من عساكر ومستخدمي الصُّرَّة وأتباعهم: ٥٩٣، سوى الأغراب والفقراء. وهذا بيانهم:

- جهادية:[١٠] ٢٤١.
- خدما ميري:[١١] ٣٥٢.
- أهالي: ٢٦٠.
- دواسة فقراء: ٧٠.
- مغاربة:[١٢] ٤١.
- جِمال ميري:[١٣] ٥٠٠.
- جِمال برَّاني:[١٤] ٢٠٠.
- حمير حصاوي:[١٥] ٢٧.
- حمير بلدي: ٣١.
- خيول ميري: ٢٣٦.
- أبقار ميري: عدد ٤.
- أبغال ميري: عدد ٧ أبغال.
- برَّاني: عدد ٢.

[٨] العلائق: الأعلاف.

[٩] متكدِّرين: أي مهمومين، مغمومين.

[١٠] جهادية: تابعون للجيش.

[١١] خدما ميري: خدمة الجيش أو الحكومة.

[١٢] مغاربة: من أهل المغرب.

[١٣] جمال ميري: جمال تملكها الحكومة.

[١٤] جِمال برَّاني: أي غير رسميين في المحمل، من الذين يستأجرونهم لهذه المهمة.

[١٥] حمير حصاوي: حمير حساوي. وهي نوع من الحمير، يتميَّز بقدرته على التحمُّل، يجلب من منطقة الأحساء في شرق الجزيرة العربية.

وفي يوم السبت ٢١ ص/٢٢ يناير أقام الرَّكب بالكرنتينة، وبالبعد عن محلها بنحو أربعين دقيقة إلى الشرق عيون موسى، بوادٍ سهل مرمل، به خمسة بساتين لبعض الأوروباويين القاطنين بالسُّويس، ينتقلون إليها صيفًا، فيها نخيل وبعض أشجار مثمرة، والأرض هنالك مزروعة شعيرًا وقمحًا فقط، بسبب الرمال وعدم السباخ لزرع الخضار، وبأحد هذه البساتين ثلاث حفائر، ماؤها قيسوني، عمقها عن سطح الأرض نحو المتر والمترين، ومن هذه البساتين ثلاثة في كل منها عينان، وهذا العيون منها ما هو صالح لشرب البهائم، ومنها ما هو مالح نوعًا، وبالبستان الخامس عين ماؤها عذب، وبالبعد عن هذه البساتين بثلاث دقائق أرض مرتفعة نحو مترين عن أرض البساتين مع انحدار، بها نخلة عالية، وبجانب جذعها عين قيسونية، عمقها عن سطح الأرض ثلاثون سانتي (سم)، وقطر دائرة الحفرة متر واحد، وبالبعد عن النخلة بمسافة ستين مترًا تلٌّ مرتفع نحو الستة أمتار، سطحه مستو وبقدر عشرة أمتار، وفي وسطه ماء معين قيسوني مساو للسطح.

قناة السُّوَيس

في يوم الأحد ٢٢ صفر/٢٣ يناير حضر صباحًا سعادة محافظ السُّويس، وحكيمباشي الصحة، ومأمور الكرنتينة، وفرزوا[1] الآدميين والمواشي، وأفرجوا عن من بالكرنتينة إلَّا الخيل والبغال والحمير.

وفي س٧ ق٢٠ قام الرَّكبُ بدون استخبار من المحافظ عن ساعة إغلاق القنطرة، واتجه إلى بحري، محاذيًا للمالح، ومتباعدًا عنه بمسافة قليلة، في أرض مرملة كثيرة السباخ، تاركًا العساكر والخيول والحمير بالكرنتينة إلى حين انقضاء المدة.

وفي س١١ ق٢٠ وصل إلى القَنْطرة،[2] فلم يمكن المرور عليها، لكونها مفتوحة لمرور المراكب، فنزل بالقرب منها، في موضع يعلوه كثير من الأملاح والسباخ، فبات هناك مع التكدُّر، من عدم وجود شيء من الطعام ولا من المياه العذبة، ومن عدم إمكان وضع ما يجلس عليه، لشدة رطوبة الأرض، وكثرة سبخها، وقد اشتدت الرطوبة ليلًا على الحجاج من هذا السِّباخ.

[1] فرزوا: فحصوا. وفرز الشيء عزله عن غيره وميَّزه (انظر: مختار الصحاح، ١ /٢٠٨، مادة: فرز).

[2] القنطرة: قناة السُّويس.

عبور القناة والوصول إلى السُّويس

في يوم الإثنين ٢٣ ص/٢٤ يناير حضر سعادة المحافظ قبل الشروق، ومعه العساكر الخيَّالة، للسير مع الرَّكب، وأمر بإغلاق القنطرة، وفي س١ من النهار مرَّ أول الرَّكب، وانتهى آخره س٣ ق٣٠، وسار إلى أن وصل إلى محطته المعتادة بالقرب من السُّويس س٥ ق٣٠، وصار استلام التعيينات من الشونة[١] عن اليوم الماضي، وعن ثلاثة أيام مقدَّمًا إلى وصوله مصر.

ومن المعلوم لدى الجميع بالسُّويس، أن المَحْمَل يصير وَكبُه س٣ ق٣٠، من بعد ذهاب قطر الرُّكاب[٢] في الوابُور،[٣] وفي هذا العام لم يصر وكبه، فاختلفت العادة والرسوم المعتادة؛ لأنه في س٩ ليلًا شدَّت الأحمال على الجمال، وسار الرَّكب مُهتدٍ بالمشاعل، بدون إشعار أحد من أهل السُّويس، ولا انتظار من تأخر من الرَّكب بالبندر،[٤] فمرَّ من كوبري[٥] التِّرعة الحلوة،[٦] مختفيًا في الظلام، وجميع أهل البندر نيام، لا يدرون بما صار، وهم في أضغاث أحلام، واتجه لطريق مصر، مارًّا على قضيب السكة الحديد ليلًا، بأرض ناشعة من المالح، حتى صارت الجمال تتقدم رويدًا إلى أن وصل الرَّكب س١١ إلى بئر السُّويس، ونزل للاستراحة، كالجيش المضطر للفرار، من عدو خلفه غدَّار، ثم إن جُملة من جمال

---

[١] الشونة: مخزن ومستودع الحبوب في السُّويس.

[٢] قطر الركَّاب: عربات القطار.

[٣] الوابور: القطار نفسه، أو رأس القطار الذي فيه المحرِّك البخاري.

[٤] البندر: الميناء، والمقصود ميناء السُّويس.

[٥] كوبري: من اللغة التركية وتعني الجسر.

[٦] التِّرعة الحلوة: ترعة الإسماعيلية. وقد مرَّ الحديث عنها في بداية الرحلة.

الأغراب حُجِزت بالكوبري، بمعرفة مأموري العوايد،[7] حتى يدفع ما عليها من عوائد الدخولية،[8] وفي س١٢ سار متوكِّلًا على المولى السَّتَّار.

[7] مأمورو العوايد: موظفو الجمارك.

[8] عوائد الدخولية: العائدات الجمركية.

بئر عجرود

في يوم الثلاثاء ٢٤ ص/٢٥ يناير في الساعة الأولى استراح بجوار أول بوسطة، وفي س١ سار، وفي س٣ ق٣٥ مرَّ بيسار بئر عجرود،[١] وفي س٣ ق٥٠ مرَّ بيمين ثاني بوسطة،[٢] وفى س٦ ق١٠ استراح بجوار البوسطة الثالثة، فكان الحجاج المتأخرون يردون فرادى مع غاية المشقة والتعب، لقيام الركب ليلا مع عدم علمهم بلا سبب، وفى س٧ سار، وفى س٩ ق١٥ مر برابع بوسطة، وفي س١١ ق١٢ مرَّ بخامس بوسطة، وفي س١٢ نزل للبيات في الفلاة، وفي س٩ ليلًا سار متَّجهًا إلى الغرب، وفي س١٠ ق٢٠ مرَّ بسادس بوسطة، وفي س١١ ق٣٥ مرَّ بالشيخ الدكروري وبسابع بوسطة.

[١] بئر عجرود: لم يذكرها محمد صادق باشا في رحلة الذهاب، وهي من منازل الحاج المصري، وتوجد في الجنوب الغربي من السُّويس على مسافة ٢٠ كيلًا منها، ومن هناك يرجع المريض والمنقطع والمشيِّعون (انظر: الرحلة الحجازية، محمد لبيب البتنوني، ص١١٠).

[٢] البوسطة: مكتب البريد.

سرايا الدار البيضاء

في يوم الأربعاء ٢٥ ص/٢٦ يناير بعد مضي خمسة وأربعين دقيقة من الساعة الأولى استراح، وفي س١ مرَّ بسراية الدار البيضاء،[١] وهي بعيدة عن الطريق وعلى يمينه، وفي س٣ ق٥٠ مرَّ بثامن بوسطة، وفي س٤ ق٤٠ مرَّ بتاسع بوسطة، وفي س٦ ق٤٠ استراح بجوار البوسطة العاشرة، وفي س٧ ق٣٥ سار، وفي س٩ ق٣٥ مرَّ بالبوسطة الحادية عشر، وفي س١١ ق١٥ نزل بجوار البوسطة الثانية عشر، وفي س٨ ق٤٥ من الليل سار، وفي س١٠ ق٣٠ مرَّ بالبوسطة الثالثة عشر، وفي س١٢ ق١٠ مرَّ بالبوسطة الرابعة عشر.

[١] سرايا الدار البيضا: قصر بناه حاكم مصر عبَّاس باشا الأول، على طريق السُّويس، ليس ببعيد عن القاهرة.

نهاية الرحلة

وفي يوم الخميس ٢٦ صفر (١٢٩٨هـ الموافق ٢٧ يناير ١٨٨١م). بعد مضي عشرين دقيقة من النهار استراح، وفي س١ سار، وفي س٣ وصل العبَّاسيَّة، وكان هناك جمٌّ كثير من الأهالي، ينتظرون الأقارب والخلَّان، وبلقائهم ازداد فرحهم، ودخلوا معهم مصر آمنين، بعضهم بالطبل والموسيقى، والبعض مُتخلِّق بالشِّيلان. وما كابده الحجاج من التعب كأنه ما كان؛ بل تُرك في حيِّز النسيان، فسبحان خالق الأكوان، المتفرِّد بالبقاء، وكل من عليها فان.

فكرة وخاتمة[1]

وإذ قد أنهينا الكلام على الحاج المصري، من مبدأ خروجه حتى عاد إلى الأوطان، فنذكر نبذة تخطر على الأذهان، وهي أن الحجاج برًّا يكابدون المشاقَّ، التي لا مزيد عليها في النفوس والأجسام، أما في النفوس، فلحرمانهم لذَّة الطعام، إمَّا لعدم وجوده في الطريق، أو لأنه لقصر الإقامة بالمحطَّات، لا يتمكن من إنضاجه كما يليق، أو لتناولهم على الدوام من الطعام ما ليس بعادتهم، كالبقصماط والجبن والزيتون، بسبب حاجتهم، وكالعدس على حدَّته، أو مع الأرز، إن وجد الماء العذب، الذي سواه لإنضاج طبيخ العدس غير صالح، فإنه لا ينضح مطبوخه بالماء المالح، ولحرمانهم — أيضًا — من لذَّة الشراب، لتنوع المياه مع قلَّتها في أغلب الأحيان، فتارة مُرَّة، وتارة قيسونية، وتارة لزجة، أو نتنة من الاختزان، فإنها متى مكثت في القِرَب[2] أكثر من يومين، عرض لها النَّتن والتغيُّر بلا مين. وأما المشاقُّ التي يكابدونها في الأجسام، فهي تغيُّر أوقات منامهم، وانتباههم من النوم وقيامهم، ومقاساتهم مشاقَّ السفر من ركوب الجمال، ولو في المحفَّات، مع إدامة القُرفُصى،[3] والنوم بها مع أضغاث الأحلام، والفزع عند القيام، بحيث تعرض لرءوسهم وأعناقهم وأوساطهم في أقرب وقت الآلام، من الاهتزاز ليلًا ونهارًا على الدوام، ويستمرون على هذه الحالة ثلاثة أشهر بالتمام، فضلًا عن الإقامة شهرًا بمكَّة وبمدينة خير الأنام.

---

[1] هذا ما نسميه في أيامنا: الخاتمة ونتيجة البحث والتوصيات.

[2] القرب: جمع قِربه. وهي ما يتخذ من جلود الماشية بعد دبغها؛ وذلك لحفظ السوائل.

[3] القرفصى: يقصد جلسة القرفصاء المتعبة إذا دامت طويلًا. وهي أن يجلس على أَلْيَتَيْه ويلزق فخذيه ببطنه ويحتبي بيديه (انظر: لسان العرب، ٧ / ٧١، مادة: قرفص).

وإن عَرَض لأحدهم (في) أثناء سيره البول، لم يمكنه النزول عن دابته إلا بالمشقَّة لقضاء حاجته؛ خوفًا من التأخر عن متاعه ورفقته، ومن كان منهم على ظهر حصانه لم يستطع دوام الركوب مع عدم النوم، ومن كان ماشيًا على قدميه عرض له الحفاء، وصار من شدَّة التعب على شفا،[٤] ما لم يكن سائسًا،[٥] أو محترفًا بحرفة الحمَّارة،[٦] ومع هذا فمن هؤلاء من يكلُّ ويتأخر، لطول مشيه ليله ونهاره، ومنهم من يمشي وهو في حالة منامه، جارًّا الجمل بما حمل من زمامه، كما شاهدنا ذلك مرارًا في هاتيك المسالك، وما يكابدون من شدَّة البرد، ولا سيَّما إذا كان ذلك في مدَّة الليل، وما يلحقهم ودوابهم من المتاعب عند نزول السيل،[٧] وهذا كله يسير بالنسبة للخوف من الأعراب المتعرِّضين لنهب الحجاج وقتلهم، إلَّا أن جميع هذا الضرر البيِّن ليس له تأثير عند المسلم المتديِّن؛ بل يحتسبه عند ربه طامعًا أن يجازيه — تعالى — في مقابلة ذلك بقبول غفران ذنبه؛ لأنه متى خرج من بيته مهاجرًا إلى بيت الله الحرام، ثم إلى زيارة قبر نبيه[٨] عليه أفضل الصلاة والسلام، واستولى هذا المقصد على لبِّه، وتسلطن[٩] عليه آخذًا بمجامع قلبه، تعلَّقت آماله بالوصول إليه، وأنفق في مرضاة الله تعالى ورسوله كل ما لديه، وتحمَّل جميع المشاقِّ مع الصبر والحزم، محصيًا الأيام والساعات وما مضى منها وما هو آت، لا يخطر غير هذا بفكره، ولا يشتغل عنه بشيء غيره، مؤملًا بلوغ مأربه، مرتقبًا الحصول على مطلبه، فلولا أن للحاج أيَّامًا معدودات، يقرِّبها مرور الأوقات، ويدنيها تتابع الساعات، لنحل جسمه من شدَّة الشوق أو مات. وأمَّا يوم الوصول فيا له من يوم تكلُّ[١٠] عن وصفه الألسنة، وتندهش بمشاهدته العقول.

---

[٤] على شفا: أي من شدة التعب كأن الحاج على شفا جرف هار يوشك أن يقع فيه.

[٥] سائسًا: يقصد سائس الخيل، الذي مهمته تدريب الخيل وعَسْفَها.

[٦] حمَّارة: الذين مهنتهم بيع الحمير والاعتناء بها.

[٧] السَّيل: المطر.

[٨] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تشدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى.» رواه البخاري (انظر صحيح البخاري، ح١١٣٢). وزيارة قبر الرسول ﷺ، والسلام عليه، بدون شدِّ رحل أي بدون سفر، من المستحبات. وكذلك زيارة قبور الصحابة في البقيع، وقبور شهداء أحد رضوان الله عليهم جميعًا.

[٩] تسلطن: تمكَّن.

[١٠] تكلُّ: تعجز وتتعب.

ومتى أديت هذا الفريضة الشرعيَّة، بمناسكها المرعيَّة، واكتسب كل من الأجر على حسب أفعاله المرضيَّة، وما وفق إليه من خلوص النيَّة، ثنيت الأعنَّة إلى الأوطان، واشتدَّ الشوق إلى لقاء الأهل والخلَّان، فعند ذلك يلتهب القلب ويشتعل، وبالقرب من الأحبة على الدوام يشتغل، وتحسب الأوقات بالثواني والثوالث، ويزداد القلق والأرق بانتظار المكاتيب، وخوف الحوادث، حتى يصلوا إلى المواطن، ويلتقي المسافر والقاطن، فعند ذلك يفتخرون بمشاهدة هاتيك الآثار الشريفة، ويتفاوضون في كيفيَّة أداء تلك المناسك المنيفة، ويتمثَّل من يحرِّكه الشوق بما يُعزى إلى حضرة الإمام أبي حنيفة[11] وهو:

كيف الوصول إلى سعادة ودونها قلل الجبال ودونهن حتوف
والرِّجلُ حافيةٌ وما لي مَرْكَبٌ والدَّرب وَعِرٌ والطريق مخوف

هذا وبعض من العوام الشيارة،[12] من عكامة وضوية وحَمَّارة،[13] من يتوجه إلى مكَّة المكرمة ولا يحج ولا يسعى، وكما خرج من بلده عاد، لكن وعلى وجهه قناطير من السواد، ومع هذا لا يتركون الفشر[14] واللقلقة،[15] ولا يَدَعون الكذب والمشدقة؛ بل يسمُّون أنفسهم بالحاج بدوي عجورة، والحاج على أبو قورة، وجميعهم من الدَّفة إلى الشابورة، وقد كان للحجاج في الأزمنة الأولى شأن عظيم، وفخر زائد جسيم، يسافرون في البرِّ جمًّا غفيرًا، ويرغبون في البحر لكونه عسيرًا، إذ لم تكن لهم معرفة بغير مراكب الشراع، وخطر السفر في بحر السُّويس بين الناس مشاع.[16]

---

[11] أبو حنيفة: هو الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت، وإليه ينسب المذهب الحنفي في الفقه. ولد عام ٨٠هـ/٦٩٩م. قال عنه عبد الله بن المبارك: أبو حنيفة أفقه الناس. وقال الشافعي: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة. وقال الخريبي: ما يقع في أبي حنيفة إلا حاسد أو جاهل. توفي الإمام أبي حنيفة ببغداد عام ١٥٠هـ/٧٦٧م رحمه الله رحمة واسعة (سير أعلام النبلاء، ٦ / ٣٩٠، بتصرف واختصار).

[12] الشيارة: المساعدون، العتَّالون.

[13] حَمَّارة: الذين مهنتهم بيع الحمير والاعتناء بها.

[14] الفشر: هو الكذب والسخرية من الغير.

[15] اللقلقة: كثرة الكلام بالباطل.

[16] عدم حجهم سببه الجهل، وقلَّة التوجيه والتعليم! إذ لو حصل هذا في هذه الأيام لرجونا لهذا الشخص العودة وتعويض ذلك، أما في ذلك الوقت فإن الإنسان لا يعلم هل يتيسر له ذلك أم لا؟ وهذا للأسف يحصل

ثم لما وقع بين الولاة النزاع، واشتهر هذا الأمر في سائر الأقطار وذاع، واستمر بينهم اللجاج، واشتغلوا بالمحاربة عن مصالح الحجاج، استشعر بذلك أعراب الحجاز، فارتفعت منهم للنهب الرءوس، وقطع الطريق على المارَّة، المرءوسون منهم والرءوس، فكثر الخطر وعظم الضرر، واضطر ولاة مصر إذ ذاك إلى أن رتبوا مرتَّبات وعطايا للأعراب الذين تمرُّ الحجاج من أوعارهم، طمعًا في أن تكفَّهم تلك المرتَّبات عن فضائحهم أو عارهم، فيسهل للحاج المرور عليهم مع الاطمئنان، ومن النهب في أمان، وبنوا هنالك للعساكر قلاعًا، وشحنوها بالذخائر، وأحدثوا فيها سواقي وآبارًا وحفائر، رغبة في راحة الحجاج، وتسهيلًا لمرورهم في تلك الفجاج، إلا أن أغلب هذه الآبار والسواقي تعطَّل عنها المنافع، وصار أكثر تلك القلاع بتطاول الأزمان بلاقع، فلا يسافر من طريق البرِّ الآن غير المَحْمَل، والصُّرَّة المقررة لعوائد الحرمين والعربان، مع العساكر الذين هم عليهما مستحفظان، لما أسلفناه من أوعار الطريق وعدم الأمان.

وأما سائر الحجاج فيسافرون في البحر، حيث الوابورات[١٧] صيَّرت المدة أقصر بكثير من مدة السفر في البرِّ، فضلًا عن الراحة من مشاقِّ السير في القفار، والأمن من الخوف والفزع بمهول هاتيك الأخطار.

وقد سبق سفر الصُّرَّة والمَحْمَل مرتين في البحر، وحصل بذلك للميري كثير من الوفر،[١٨] ثم أعيد لأسباب لا تُدرى إلى السفر في البرِّ. وحيث إن الحجاج يسافرون الآن في البحر أجمعهم، فإن وافق أن كلًّا من الصُّرَّة والمَحْمَل يتبعهم بأن يقوم المَحْمَل من مصر إلى السُّويس بعد موكبه المعتاد، ثم من السُّويس إلى جُدَّة متقدمًا بسبعة أيام عن الميعاد، ويكون الأمير قد تقدَّم إلى هنالك بعشرة أيام، ليستأجر بمعرفة والي جُدَّة الجمال، ويأخذ على الجمَّالة الضمانات، فيأمن بذلك من المتاعب في السفر ومن المشقَّات، ويجتمع المَحْمَل في جُدَّة بالحاج المصري، فنحصل زيادة الأمنية، ويتمُّ للحاج بهذا الاجتماع كمال

— أيضًا — في هذا الأيام! إذ كثير من سائقي الشاحنات والحافلات التي تنقل الحجاج في مكَّة والمشاعر المقدسة لا يحجُّون! مع أن ذلك لا يكلِّفهم شيئًا سوى لبس الإحرام وعقد النيَّة، ومع ذلك لا يفعلون ذلك للأسف، قال رسول الله ﷺ: «من أراد الحج فليتعجَّل، فإنه قد يمرض المريض، وتضلُّ الضَّالة، وتعرض الحاجة». رواه ابن ماجه وصححه الألباني (انظر: سنن ابن ماجه، ح٢٨٨٣).

[١٧] الوابورات: السفن البخارية.

[١٨] الوفر: أي التوفير في الوقت والجهد والمال.

السرور وبلوغ الأمنية، ويكون مصحوبًا بمائتي عسكري فقط، فيتوفر للميري كثير من المصروفات، ويوكبون به عند قدومه إلى جُدَّة ومكَّة، وعند طلوع عرفات، وبعد أداء الفريضة، يتوجهون إلى زيارة خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، من الطريق التي يحصل الاتفاق عليه بمجلس شريف مكَّة على التوجه منه إلى المدينة، ثم الرجوع إلى ينبع أو رابغ، ليعودوا من طريق البحر إلى أوطانهم في أسرع الأوقات، فرحين مستريحين من مكابدة المتاعب ومقاساة المشقَّات، ومن طول صعوبة الطريق، وتبدد أمتعتهم في كل محجر ومضيق، فيتوفر للميري كثير من المرتَّبات والعلائق، ويزداد كل من جدَّة ومكَّة وينبع ثروة بالبيع والشراء، وتتسع فيهن دائرة التجارة بالأخذ والإعطاء، ولا يزيد القادر على مصروفات الحج في البرِّ شيئًا في طريق البحر؛ بل لا يصرف إلا القليل بالنسبة إلى ما كان يصرفه في طريق البرِّ، فضلًا على ما كان يلحقه فيها من المشاقِّ، والصعوبات والشدائد التي لا تطاق.

وأما الفقراء غير المستطيعين فليسوا بالحج مكلَّفين، بل إذا سافروا تألموا من السفر، وسخطوا وتشاجروا مع البدو والحضر، وعاد البعض منهم صفر اليدين مفلسًا، قليل الدِّين كثير الدَّين.

وعلى كل حال لا بد أن تُصرف للعربان مرتَّباتهم كالجاري في كل عام، ويأخذ عوائده الخاص منهم والعام، كما هو جار في كل سنة، من دفع مرتَّبات عربان الطريق السلطاني إليهم، مع عدم مرور الحاج من سنين عديدة عليهم، وبدلًا من الذهاب إليهم في كل سنة بهذه المرتَّبات، يرسلون عند خروج الحاج من ينوب عنهم في استلامها من الروزنامجة، أو ما يصير الاتفاق عليه من الجهات. فإن قيل: ما فائدة توجه الحج في البحر مع صرف مرتَّبات العربان إليهم في كل عام على ما هو مقرر؟!

فالجواب: أن لذلك من الفوائد الكثيرة ما لا يُنكر، منها: وفر العلائق ومرتَّبات أغلب المستخدمين، واطمئنان الحاج بالاجتماع مع المَحْمَل وعساكره المستحفظين. فإن للعساكر عند العربان هيبة ترد مساعيهم السيئة مقترنة بالخيبة، وراحة الإنسان هي المعوَّل عليها في كل آن، والله سبحانه وتعالى هو المستعان، وعليه في كل حال التُّكلان، والحمد لله على التمام وإليه الالتجاء في المبدأ والختام.


هنداوي